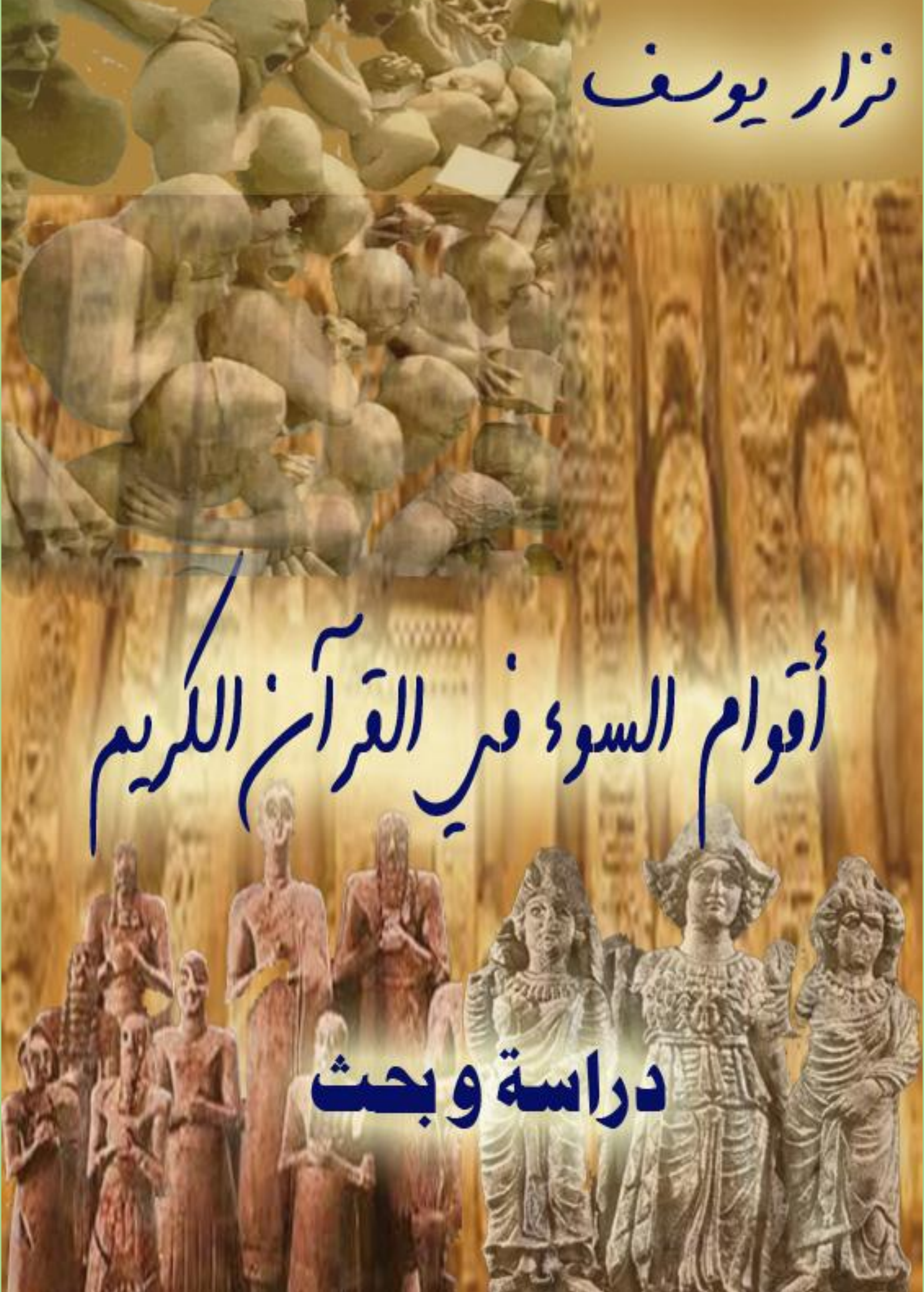

نزار يوسف

أقوام السوء في القرآن الكريم

دراسة وبحث

نزار يوسف

أقوام السوء في القرآن الكريم

دراسة و بحث

جميع الحقوق محفوظة للمؤلِّف

لا تقوم الساعة حتى تجتمع أقوام السوء

في قوم سوءٍ عالمي واحد

نزار يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

وإن يكذبوك فقد كَذّبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود (*) وقوم

إبراهيم وقوم لوط (*) وأصحاب مدين وكُذّبِ موسى

المحتوى

اضغط على العنوان للانتقال إليه

المقدمة
الشجرة (الأساس)
فترة آدم

قوم نوح
قوم عاد
قوم ثمود

قوم إبراهيم
قوم لوط
قوم شعيب (مِدين)

فرعون و قومه
خلاصة و استخلاص

نبذة عن المؤلف

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم خالق الخلق مالك المُلك رب الخلائق أجمعين .. الحمد لله وحده لا لغيره فغيره لا حمد له من دونه ، و الشكر لله وحده لا لغيره فغيره لا شكر له من دونه ، و الرحمة من الله وحده لا من غيره فغيره لا رحمة منه من دونه .. و المُلك لله وحده لا لغيره فغيره لا ملك له ، فهو المَلك الحق يؤتي الملك مَن يشاء و ينزع الملك ممن يشاء و إن العزة لله جميعاً .. هو الرحمن ربي .. إياه وحده عبدت و إياه وحده أطعت و به وحده آمنت و له وحده أسلمت .. و إن خير الكلام ما قل و دل .. أما بعد ..

لم تكن الشرائع و التعاليم الإلهية الربانية التي أنزلها الرحمن رب العالمين إلى عباده و ساق لهم طُرقها عبر رسله ، إلا رحمة منه لهم إذ كان يبدو أنه لا مناص من الكفر فيهم من بعضهم ، و لا بد من ذلك .. ذلك أن أبَوَي بني آدم ، قد خرجا من الجنة بخطيئتهما التي ارتكباها بأكلهما من الشجرة

المحرمة التي نهاهما الله سبحانه و تعالى ، عنها ، فكان أن أهبطهما الله سبحانه و تعالى ، من الجنة إلى الأرض ، و قال مخاطباً إياهما ..

بسم الله الرحمن الرحيم { قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدًى فمن اتبع هداي فلا يضل و لا يشقى } .

ثم قال الرحمن رب العالمين مخاطباً ذريتهما ..

بسم الله الرحمن الرحيم { يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو و قبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون } .

تلك مما سبق من آيات قرآنية ، كانت البدايات الأولى العملية للخطيئة البشرية و للضلال و التضليل لبني البشر .. لكن المعطيات النظرية الأولى لذلك الأمر ، كانت على ما يبدو منذ البدايات الأولى لخلق الإنسان (أي آدم و ذريته التي في ظهره و صلبه) فقد جاء في القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إنّا عرضنا الأمانة على السماوات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها و حملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً } .

تخبر الآية القرآنية الكريمة إن الإنسان الأول ، و منذ عملية تكوينه الأولى و خلقه ، قد تقَبَّلَ الأمانة التي تم عرضها عليه بينما رفضها كل من

السماوات و الأرض و الجبال بخوف و قلق غير مباشرين .. و تخبر الآية إن الإنسان باختياره هذا ، كان ظلوماً جهولاً ، أي أنه كان ظالماً لنفسه و لغيره ، و جاهلاً بما سوف يترتب عليه هذا الاختيار .. و في ذلك إشارة قوية لما سوف يكون عليه هذا الإنسان من كفر و ظلم و فساد في الأرض و طغيان ، حال وجوده فيها .. و لا أدَلّ على ذلك النبأ الإلهي الرباني ، من النبأ الإلهي الرباني التالي ..

بسم الله الرحمن الرحيم { هو الذي خلقكم فمنكم كافر و منكم مؤمن و الله بما تعملون بصير } .

أي أنه بعد خلقكم أيها البشر و انتشاركم في الأرض ، سيكون منكم من هو كافر و من هو مؤمن ، و بإرادتكم أنتم أنفسكم لا بقرار مسبق من الله سبحانه و تعالى .

و قد صَدّقَ هذا الإنباء و صَادقَ عليه ، ما حصل بعد فترة وجيزة من ظهور الإنسان الأول على الأرض متمثلاً بابني آدم الذَين ورد ذكرهما في القرآن الكريم ، و الذي جسّدَ أول جريمة قتل في التاريخ البشري ، ظلماً و عَدواً بغير حق ، من حيث جاء في القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و اتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتُقُبِّل من أحدهما و لم يُتَقبَل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين (*) لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك

إني أخاف الله رب العالمين (*) إني أريد أن تبوء بإثمي و إثمك فتكون من أصحاب النار و ذلك جزاء الظالمين (*) فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين (*) فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين (*) من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً و من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً و لقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون } .

يتحدث آنف الآيات القرآنية ، بحسب ما يبدو منها ، عن فترة بداية وجود الجنس البشري على وجه الأرض (ابني آدم) .. و يخبر الخطاب القرآني عن أن أحد ابني آدم كان فاسقاً عاصياً ، بدليل أن قربانه الذي قدّمه لم يتم قبوله ، فكان أن انتقل مباشرة نتيجة لذلك ، إلى ارتكاب جناية القتل من غير سبب موجب يُذكَر ، فكان أن صارت هذه الجناية جنايتين .. القتل و الظلم ، أي أن الرجل قد صار بموجب ذلك و بموجب الآيات السابقة .. فاسقاً عاصياً قاتلاً ظالماً ، من أصحاب النار .. و هو الابن الأول لآدم بحسب بعض روايات الأثر .

و تدل الآيات القرآنية تلك على أن هذا الشخص قد قام بارتكاب جناية القتل ، من تلقاء ذاته و نفسه (فطوعت له نفسه قتل أخيه) .. من دون أن يكون مضطراً لذلك و من دون أي سبب أو وازع خارجي .

لكن ما يبدو أيضاً و بحسب آنف الآيات القرآنية ، أنه قد ترَتّب على تلك الحادثة ، سَنّ أول قانون إلهي رباني حول جرائم القتل و منع ارتكاب قتل النفس من دون الأسباب و الشروط التي وضعها الرحمن رب العالمين لذلك الأمر .

يمكننا أيضاً استشراف حالة الفسوق و الكفر ، من الآية القرآنية التالية التي تبين لنا إعطاء الحرية الكاملة للإنسان في أن يكفر أو يؤمن بالرحمن رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إنا هديناه السبيل إما شاكراً و إما كفوراً } .

و مع ذلك ، و بالرغم مما سبق ، فإن القرآن الكريم قد أضاف أيضاً سبباً مهماً و عاملاً قوياً للدلالة على حتمية أو شبه حتمية الكفر عند بني البشر ، حتى من قبل نزولهم إلى الأرض .. و هو ما يبرز في تَعَهّد إبليس في إغواء البشر و حرفهم عن الصراط المستقيم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (*) قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار و خلقته من طين

(*) قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين (*) قال أنظرني إلى يوم يبعثون (*) قال إنك من المنظرين (*) قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم (*) ثم لآتينهم من بين أيديهم و من خلفهم و عن أيمانهم و عن شمائلهم و لا تجد أكثرهم شاكرين (*) قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين (*) فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (*) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (*) إلا إبليس استكبر و كان من الكافرين (*) قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (*) قال أنا خير منه خلقتني من نار و خلقته من طين (*) قال فاخرج منها فإنك رجيم (*) و إن عليك لعنتي إلى يوم الدين (*) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (*) قال فإنك من المنظرين (*) إلى يوم الوقت المعلوم (*) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (*) إلا عبادك منهم المخلصين (*) قال فالحق و الحق أقول (*) لأملأن جهنم منك و ممن تبعك منهم أجمعين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً (*) قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي

لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً (*) قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً (*) و استفزز من استطعت منهم بصوتك و أجلب عليهم بخيلك و رجلك و شاركهم في الأموال و الأولاد و عِدهم و ما يعدهم الشيطان إلا غروراً } .

إذن .. فإن الكفر بموجب القرآن الكريم ، هو نتيجة حتمية واقعة على بني البشر لا مناص منها ، و ذلك من حيثيات و موجبات توافر عواملها و مقوماتها السابقة .. عِلماً أن القرآن الكريم قد ذكر هذه القضية ، في مواضع عدة منه ، لا بل نهى الأنبياء و الرسل عن التشديد في جعل الناس مؤمنين ، معتبراً أن هذه قضية إلهية ربانية تختص بالرحمن رب العالمين ، و أن قضية الإيمان و الكفر ، هي قضية شخصية تخضع لقرار الشخص نفسه و لا يجوز أبداً إجباره أو إكراهه في غير ما يرغب و يهوى .. ذلك كله بالاستناد على ما سبق من عوامل و أحداث هيّئت للكفر أن يكون له موطئ قدم لدى البشر بل و حتى معشر الجن ، أو على الأقل أن لا يكون هنالك صَدّ له ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها و إن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب و ساءت مرتفقاً } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { إنك لا تهدي من أحببت و لكن الله يهدي من يشاء و هو أعلم بالمهتدين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها و الله سميع عليم } .

بسم الله الرحمن الرحيم { أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً } .

و بناء على ما سبق جميعاً ، فإن الكفر بالرحمن رب العالمين ، قد استفحل و ساد بين البشر جميعاً و ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمنظوماتهم الاجتماعية و السياسية بل و حتى الاقتصادية و غيرها .. فكان أن ظهرت أقوام و أمم و شعوب كافرة بالمجمل و الكلية ، لا تحيد عن كفرها قيد أنملة و لا ترضى عنه بديلاً و لا تقبل إلا به و تعدّه أساس عقائدها و مدماك شرائعها لا بل تعدّه أنه هو الحق و الصواب و غيره هو الباطل و الضلال المبينان ، و بناء على ذلك ، ترفض و تحارب كل عقائد التوحيد و الإيمان بالرحمن رب العالمين ، و كل من يدعو إليها .. حرب قد تصل في بعض مراحلها إلى حد التصفية و القتل ، و هو ما عَبّر عنه القرآن الكريم في بعض مواضعه ، حيث جاء ..

بسم الله الرحمن الرحيم { يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (*) ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون (*) و لقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين (*) و ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (*) كذلك نسلكه في قلوب المجرمين (*) لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { ثم أرسلنا رسلنا تترى كل ما جاء أمةً رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً و جعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و أنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً (*) قل إنما أدعو ربي و لا أشرك به أحداً (*) قل إني لا أملك لكم ضراً و لا رشداً } .

و لذلك و مما سبق .. فهذا كتاب (أقوام السوء في القرآن الكريم) يتناول أمر تلك الأقوام و الأمم و الشعوب السالفة التي كفرت بالرحمن رب العالمين و يبين أسلوب و طريقة و منهج كل منها في الكفر بالرحمن رب العالمين ، و ما انبثق عن ذلك من طغيان و ظلم و فساد في الأرض .. و سوف نتناول كل أمة و شعب مما ذُكِرَ في القرآن الكريم ، من حيث الأقدمية التاريخية القرآنية البيانية .

لقد كان لكل قوم من أقوام السوء في القرآن الكريم ، خاصية كفر معينة ، تختلف عن غيره من أقوام السوء .. و لم يقتصر ذلك على الكفر المحض وحده ، بل تعداه إلى حالات الشرك و الفسق و العصيان و الفساد و غيرها ، و هي حالات تختلف بعضها عن بعض باختلاف أقوام السوء المذكورين في القرآن الكريم .

كذلك أيضاً فقد كانت نتائج و نهايات السوء لأقوام السوء أولئك ، مختلفة بعضها عن بعض بالنسبة لكل قوم من الأقوام سالفة الذكر في القرآن الكريم .

نهاية المطاف .. تبقى الحكمة و الذكرى و الموعظة الحسنة ، الغاية الأساس التي أرادها الرحمن رب العالمين ، لنا ، من ذِكر أقوام السوء أولئك ، و أخبارهم و قصصهم في القرآن الكريم و تبيان عاقبة أمرهم و نهاية كل قوم منهم ، الوخيمة .. فالغاية الإلهية الربانية الرحمانية ، كانت الرحمة بنا و الرأفة ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و الله رءوف بالعباد } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و يستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات و إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم و إن ربك لشديد العقاب } .

ذلك كله كيلا نقع فيه من مهالك ما وقعت به أقوام و أمم و شعوب ، سابقة لنا في الزمن ، سالفة في الذِكر ، و هو أمر ذكره القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و قالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى (*) و لو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و ما كنت بجانب الطور إذ نادينا و لكن رحمةً من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون (*) و لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك و نكون من المؤمنين } .

لقد أراد الرحمن رب العالمين ، لنا كإنس و بشر ، أراد لنا طريق الخير و الهداية ، حتى من قبل أن يخلقنا أو يحيينا أمماً و شعوباً منتشرةً في الأرض ، مستعمِرةً لها .. ذلك كله كما ذكرنا من قبل ، رحمة بنا و رأفة .. فالغاية عند الرحمن رب العالمين ، هي المشروع الإلهي الرباني الكوني الذي أراده و هيأه الرحمن رب العالمين ، لمخلوقاته جميعاً ، إلا و هو العبادة .. نعم العبادة التي أرادها الرحمن رب العالمين ، سلوكاً و نهجاً لعباده و مخلوقاته العاقلة ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدونِ (*) ما أريد منهم من رزق و ما أريد أن يطعمونِ } .

فلنعد إلى أقوام السوء أولئك ، في القرآن الكريم و نرى كيف كانوا و كيف انقرضوا و دُثِروا ، و من لا زال منهم إلى الآن .

و يبقى أن ننوه إلى أمر جدير بالملاحظة و هو أن الأقوام التي يتناولها هذا الكتاب ، هي حصراً تلك الأقوام المذكورة في القرآن الكريم و لا علاقة لها بما هو خارج القرآن الكريم ، كيلا يُساء الفهم ، من سوء طوية و غيرها .. و هو ما يتضح من عنوان الكتاب نفسه (أقوام السوء في القرآن الكريم) لكننا آثرنا التبيان و التوضيح .

و الله المستعان ، له الحمد و له الشكر و المقصد .. كفى به وكيلاً ، إنه ولي الأمر و التدبير .

نزار يوسف .. ٢٠٢٤/٧/٢٤

الشجرة ... الأساس

يخبرنا القرآن الكريم في مضامينه المتعددة و قصصه الحق ، عن قضية الخلق جميعاً و كيفية بدء هذا الخلق ، من حيث أنه لم يكن يوجد شيء إلا الرحمن رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و هو الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيام و كان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً } .

بسم الله الرحمن الرحيم { الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور } .

آيتان قرآنيتان كريمتان توضحان لنا أن عملية الخلق التي قام بها الرحمن رب العالمين ، من حيث لم يكن يوجد شيء إلا الماء و العرش ، هي العملية التي تم بموجبها خلق السماوات و الأرض و من ثم خلق حالة الموت و حالة الحياة و من ثم بعد ذلك الكائنات العاقلة و غير العاقلة .. هي عملية كان أساسها الاختبار و الامتحان الإلهي الرباني لهذه المخلوقات .. هي في أساسها ، اختبار و امتحان الرحمن رب العالمين ، لمن خلق ..

لخلقه الذي خلقه و جعل فيه شيء منه و صبغة .. و لذلك كان لا بد من وجود الموت و الحياة لأجل مواد الاختبار .. أيكون هذا الخلق كما أراد له الرحمن رب العالمين ، أن يكون ؟؟!! أم أنه سوف يشذ عن المنظومة البرمجية التي وضعها الرحمن رب العالمين ، له ؟؟!! .

بسم الله الرحمن الرحيم { الحمد لله الذي خلق السماوات و الأرض و جعل الظلمات و النور } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و هو الذي خلق الليل و النهار و الشمس و القمر كل في فلك يسبحون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { إن ربكم الله الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً و الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق و الأمر تبارك الله رب العالمين } .

آيات قرآنية ثلاث ، تبين لنا عملية خلق الكون قبل وجود الكائنات العاقلة أو بالأحرى ربما ، قبل وجود الجن و الأنس .. هي إخبار و إعلام و تهيئة لما قبل وجود الحياة العاقلة التي لا بد لها من مواد تكون فيها و عليها كاستمرارية لبقائها و سيرورة حياتها ، و كاختبار متاع لها في الوقت نفسه ، و كدلائل و براهين لها (من حيث الدقة و القانون الثابت)

لتعرف أن لها خالقاً أحداً واحداً ، فهل تقوم بعبادته أم تعشو عنه و تفسق لغيره ؟؟!! مخلوقاً كان أم وهماً ؟؟!! حياً كان أم ميتاً ؟؟!! .

بسم الله الرحمن الرحيم { الله الذي خلق السماوات و الأرض و ما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي و لا شفيع أفلا تتذكرون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم } .

بسم الله الرحمن الرحيم { يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم و الذين من قبلكم لعلكم تتقون } .

أيضاً تلكم آيات ثلاث تدل الناس و ترشدهم إلى أن خلْقهم في هذه الحياة الدنيا هو خلقٌ حادثٌ طارئٌ .. لاحق لما قبله من مخلوقات ، و أن خلقهم الحادث الطارئ اللاحق ، هذا ، ما هو إلا مادة اختبار لهم و لوجودهم ، فهل يهتدون ؟؟!! .

بسم الله الرحمن الرحيم { هو الذي خلقكم فمنكم كافر و منكم مؤمن و الله بما تعملون بصير (*) خلق السماوات و الأرض بالحق و صَوّركم فأحسن صوركم و إليه المصير } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و ما خلقتُ الجن و الإنس إلا ليعبدونِ (*) ما أريدُ منهم من رزق و ما أريد أن يطعمونِ } .

توضح الآيات آنفة الذكر ، بشكل صريح ، الغاية الربانية الرحمانية من خلق الجن و الإنس .. ذلك لكي يتّبِعوا النهج الرباني الرحماني و يتقيدوا بأحكامه و شرعه .. و العبادة هنا ، تعني الخضوع لقوانين الرحمن رب العالمين ، و شرعه و أحكامه و أوامره و نواهيه .. لا خروج عنها و لا فسق و عصيان .

ثم كانت المرحلة اللاحقة من مراحل الخلق الرحماني ، ألا و هي خلق البشر أو الإنسان ، و هي حسب المنظور القرآني ، مرحلة لاحقة لمرحلة خلق الجان ، و هو ما عبرت عنه الآية القرآنية التالية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون (*) و الجان خلقناه من قبل من نار السموم } .

لقد كان إيذان خَلْق الكائن البشري من قِبَل الرحمن رب العالمين ، تأسيس لمرحلة جديدة و إعلان عن ظهور نظام كوني جديد أو تعديله ، على أقرب وجه .. إذ أن خلق الإنسان و نفخ شيء من الروح الرحمانية فيه ، و

استخلافه في الأرض ، بالرغم من اعتراض بعض الملائكة على ذلك ، ثم من بعدها ، تزويده بمعلومات لم تكن الملائكة لتعرفها ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفةً قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون (*) و علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (*) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (*) قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات و الأرض و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون } .

ثم بعد خلْقِه و تسويته ، يتم الطلب من الملائكة السجود له ، و هو دليل قوي واضح ، على ذلك الأمر ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين (*) فإذا سويته و نفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين (*) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (*) إلا إبليس استكبر و كان من الكافرين (*) قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (*) قال أنا خير منه خلقتني من نار و خلقته من طين } .

إن الآية القرآنية القائلة (فإذا سويته و نفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين) تدل تمام الدلالة على أن آدم ، قد تم خلقه في أحسن تقويم ،

لجهة العقل و الفكر و جهة الخصائص الخيّرة التامة .. و بالتالي لم تكن لتوجد فيه خصائص السوء من طمع و جشع و غرور ألا أن يأتي من يجره إليها جراً و يجعله يقع فيها وقوعاً لا قيام له من بعده .. و لا يستوي ذلك الأمر إلا أن يكون عن طريق الحيلة و عن طريق الولوج من سبل الخصائص الطيبة الحسنة في آدم ، كحسن النية و تصديق كل ما يقال له .. و كان هذا الأمر في حادثة الشجرة المحرمة التي أكل منها آدم ، فذاق وبال أمره بعد أن ذاق كل خصائصها السوء .

لقد كانت هذه الشجرة من إحدى أشجار الجنة ، و قد تم تحذير آدم و زوجه ، منها بل و من مجرد الاقتراب منها .. و تم تحذيرهما من أن هنالك من سيحاول إخراجهما من الجنة .. فعليهما ألا يستجيبان له بل يستجيبان للرحمن ربهما رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك و لزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (*) إن لك ألا تجوع فيها و لا تعرى (*) و أنك لا تظمأ فيها و لا تضحى } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و قلنا يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة و كلا منها رغداً حيث شئتما و لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين } .

لكن آدم و زوجه قد وقعا في المعصية بعد أن أغراهما الشيطان و خدعهما و زيّن لهما المعصية ، فكان أن خالفا أوامر الرحمن رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد و مُلْك لا يبلى (*) فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة و عصى آدم ربه فغوى (*) ثم اجتباه ربه فتاب عليه و هدى } .

بسم الله الرحمن الرحيم { فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه و قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو و لكم في الأرض مستقر و متاع إلى حين (*) فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم } .

إن ما يمكن الوصول إليه مما سبق ، هو أن آدم و زوجه ، كانا بمنزلة الإنسان المثالي الذي لا عيوب فيه و لا نقائص و لا زُلَل تعتريه فتحيده عن سبيل الحق و جادة الصواب ، و توقعه في المعاصي .

لكن الذي حصل هو تدَخّل طرف خارجي ، أو ما يسمى .. الطرف الثالث .. و هذا الطرف مارس عملية خداع و تمويه معتمداً فيها على الطمع .. الطمع الذي كان على ما يبدو قد وُجِدَ في النفس البشرية مذ خلْقِها .. فالشيطان قد اتّبَعَ أسلوب الإغراء و الخداع ، معتمداً في ذلك على صفة الطمع الخفية غير الظاهرة أو المعلنة ، في النفس البشرية .. و لربما كانت النقائص و العيوب النفسية البشرية ، موجودتان في آدم و زوجه

لكنهما كانتا كامنتين غير مفعلتين ، و هو ما تشير إليه عبارة (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما) .

إذن .. فإن تلك الشجرة المحرمة في الجنة ، كانت وظيفتها إظهار و تفعيل الخصائص السلبية للنفس البشرية من طمع و جشع و غرور و استكبار و شح و غل و بخل و كذب و نفاق و حسد .. و ما إلى ذلك من أمراض نفسية مستعصية لا زلنا نعاني منها إلى يومنا هذا .

لكن الشيطان و من سابق الآيات ، قد أثار في آدم و زوجه ، مكامن بعض خصال السوء فيهما ألا و هي الطمع و الغرور .. و ذلك عن طريق الخداع ، حين أقسم لهما أن هذه الشجرة تجعلهما ملكين أو خالِدَين لا يموتان .. و أقسم لهما إنه مخلص لهما و لا يريد إلا الخير ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد و مُلْك لا يبلى } .

بسم الله الرحمن الرحيم { فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما و قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (*) و قاسمهما إني لكما لمن الناصحين (*) فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة } .

لقد تلك كانت الشجرة المحرمة في الجنة ، أداة لتفعيل كل خصائص السوء في النفس البشرية ، و التي كانت على ما يبدو كامنة بطينة فيها .. مستترة خبيئة .. و كان لزاماً على ما يبدو وجود طرف ثالث يحرض و يحرك ، بعض خصال السوء المستترة ، عن طريق الخداع .. فكانت أحد أهم تلك الخصال ، هما .. الطمع و الغرور .. فآدم و زوجه طمعا أن يكونا مَلَكين أو يكون من الخالدين ، لكن لم تكن لديهما تلك الإرادة أو الرغبة ، لولا أن يقدمها لهما أحد من الخارج .. و لم يكونا لينفذا طلب الشيطان لولا أن حلف لهما بأغلظ الإيمان إنه صادق معهما و راغب في الخير لهما .. و لم يكونا ليصدقا قسم الشيطان لهما ، لولا أنهما اغترا بكلامه .. أي بالمختصر المفيد ، لولا صفة الغرور التي كانت على ما يبدو إحدى خصال نفسهما البشرية .. و هنا ، يتبدى لنا معنى العبارات الواردة في الآيات القرآنية (و قاسمهما إني لكما لمن الناصحين) .. (فدلاهما بغرور) .

و في عِبرة مُستخلَصَة مما سبق ، نرى أن صفتيَّ الطمع أو الجشع و الغرور ، هما أساس كل صفات السوء في النفس البشرية ، و منبت لكل صفة سوء منها .. و هو ما سوف نراه فيما بعد .. حين نزول آدم و زوجه من الجنة و إنجاب ذرية لهما .. و من بعد ذلك ، ظهور أقوام السوء الكافرة بالرحمن رب العالمين .. العاصية له الفاسقة عن أمره و شرعه .

لكن ما زاد في خطيئة آدم أو ذنبه إن صحت التسمية ، هو عصيانه المزدوج للرحمن رب العالمين .. ذلك أن الله سبحانه و تعالى ، قد حذره و نهاه عن أكل الشجرة ، أولاً .. و من ثم حذره من الشيطان نفسه و أنبأه إنه عدو له و لزوجه و إنه سيحاول إخراجهما من الجنة .

الأمر الثاني هو الشيطان نفسه الذي ، جر آدم و زوجه ، إلى الوقوف ضد الرحمن رب العالمين ، في عبارة (ما نهاكما ربكما) التي قالها لهما ، فهو قد جعلهما إضافة إلى موقف الطمع و الغرور ، في موقف الضد لله سبحانه و تعالى .. و هما بموافقتهما قول الشيطان لهما ، قد اعترضا أيضاً على مشيئة الله سبحانه و تعالى ، بأن لا يكونا خالدين .. عِلماً .. عِلماً .. و هنا الطامة الكبرى .. أن الرحمن رب العالمين ، لم يقل لهما إنهما سيموتان بعد فترة أو أن لهما عمراً محدداً .. لكن كل ما هنالك ، أن الطمع و الغرور يجرّان الإنسان إلى مهاوي الضياع و الوهم ، و يفعلان به و فيه ، فعلهما .

إن ما يزيد الأمر اتّضاحاً و إيضاحاً ، هو كلمة (الشجرة) الذي ذكرها القرآن الكريم .. فالجذر اللغوي (شجر) يعني الخروج من شيء و حيز محدَدَين ثم الانتشار و التوسع من بعد ذلك ، سواء بشكل عمودي أم أفقي أم كليهما معاً .. و لذلك و تبعاً مما سبق و لِما سبق ، فإن مغزى كلمة (الشجرة) قد يكون له وجهان .. أحدهما مادي ، أي شجرة

عادية افتراضية لها جذور و أغصان و ثمار .. و الآخر اعتباري ، أي شيء يتناوله الإنسان و يدخله إلى جوفه ، فيغير من منظومته العقلية و الفطرية أو النفسية و يضيف خصائص جديدة غير موجودة في النفس البشرية ، أو يفَعِّلها إن كانت موجودة مسبقاً لكنها كانت معطلة .. و بناء عليه ، سوف نرى بعد ذلك ، كيفية تطَوّر عملية و مراحل عصيان الرحمن رب العالمين ، من مرحلة الطمع و الجشع ، إلى مرحلة ارتكاب جريمة قتل بسبب الحسد و الغل ، لتتطور إلى الكفر بالرحمن رب العالمين ، و اتخاذ رموز دينية كآلهة باطلة زائفة ، من غير الرحمن رب العالمين (و العياذ بالله) و تصل مراحلها المتأخرة في الشرك و الشذوذ و الظلم و الفساد و الكفر و ما يتبع ذلك كله من خبائث و كبائر .

إذن .. فإن السوأة التي ذكرها القرآن الكريم ، و التي بدت لآدم و زوجه حين أكلا من الشجرة ، هي سوآتهما الخُلُقية أي مساوئهما و عيوبهما النفسية ، و ليس عورتهما أي أعضاءهما التناسلية ، كما ذهب البعض .

بالعودة إلى كلام الشيطان حينما خاطب آدم قائلاً .. يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد و مُلك لا يبلى ؟؟ فإذا نظرنا في هذه الكلمات و ما قاله الشيطان لآدم .. نرى أنها هي نفسها الشهوات الدنيوية اللاحقة التي سيتبعها أقوام السوء و أشخاصهم و أفرادهم .. فالطمع في الخلد و دوام البقاء ، هو من سمات النفس البشرية .. هو كما قال القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و من الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة و ما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر و الله بصير بما يعملون } .

كذلك المُلك الذي لا يبلى ، هو مطلب من مَطالب خصال السوء في النفس البشرية ، ذلك أن الطمع في دوام الخير و الرزق و المال و الاستكثار و الزيادة فيه .. هو رغبةٌ عموم عند بني البشر .. فالإنسان يتمنى لو تبقى أملاكه معه ، و يتمنى لو يزيدها فوق ما هي عليه و يراكمها جِبلّاً فوق جِبلّ .. هو كما أورده القرآن الكريم في مواضع عدة ، منها ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إن الإنسان لربه لكنود (*) و إنه على ذلك لشهيد (*) و إنه لحب الخير لشديد } .

بسم الله الرحمن الرحيم { زُيّنَ للناس حب الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الأنعام و الحرث ذلك متاع الحياة الدنيا و الله عنده حسن المآب } .

هذا هو بالضبط أيضاً ما كان حال الذي وهبه الله سبحانه و تعالى ، بستانين ، فطمع في دوامهما متناسياً حكم الرحمن رب العالمين ، في خلقه و قوانينه في السماوات و الأرض ، نافياً قيام الساعة ، مع أنه كان من المؤمنين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و دخل جنته و هو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً (*) و ما أظن الساعة قائمةً و لئن رددت إلى ربي لأجدن

خيراً منها منقلباً (*) قال له صاحبه و هو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً } .

و لذلك ، و بناء عليه ، أخرج الله سبحانه و تعالى ، آدم و زوجه من الجنة .. ذلك أن تكون في مكان مُوَفَّر لك فيه كل شيء ، و لستَ محاسَب فيه على شيء و أن ترى فيه كل احتياجاتك مؤَمَّنة ، ما لم تُظهِر طمعك و جشعك و اغترارك بفضل الرحمن رب العالمين ، و نِعَمِه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إن لك ألا تجوع فيها و لا تعرى (*) و أنك لا تظمأ فيها و لا تضحى } .

و هاتان الآيتان آنفتا الذكر قد شفعتهما الآيتان التاليتان ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد و مُلك لا يبلى (*) فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة و عصى آدم ربه فغوى } .

فعندما تتجاوز ذلك كله ، فإنك قد تجاوزت شرع الرحمن رب العالمين ، بارئك و خالقك ، و طغيتَ على نفسك و فسقت عن أمره و شرائعه عليك و قوانينك .

لقد استيقظت في آدم على ما يبدو ، طبائع السوء في النفس البشرية كالطمع ، و قادها إلى ذلك الغرور و الوهم .. ذاك كله ، أمر صائر في

الجنة .. بينما هو في الواقع لا ينبغي أن يكون فيها .. و هو كما ذكرنا من قبل ، كان له محرك أو دافع خارجي فيه .. فلولا الشيطان ، ما كان لآدم أن يدرك أو يطمع بالخلد أو المُلك الذي لا يبلى .. إذ أن ذلك كله ما كان داخلاً في قاموس آدم من الأساس .. فالجنة هي في الأساس ، مُلك لا يبلى .. لكن آدم اغتر و طمع و انقاد و من ثم هوى .

لكن الطامة الكبرى لم تكن هنا فقط .. ذلك أن آدم قد انجرَّ إلى قول الشيطان (ما نهاكما ربكما) .. أي أنه كان يعرف أن ربه قد نهاه ، لكنه قد عدا على أمر الله سبحانه و تعالى ، فأكل من الشجرة غير آبه و لا مبالٍ ، مع علمه أن الله سبحانه و تعالى ، قد منعه من ذلك فكانت الطامة الكبرى هنا هي ظن السوء بالرحمن رب العالمين ، لكن حاش لله ذلك .. فالرحمن رب العالمين هو الخير كله ، و هو الحافظ لعباده من كل سوء و أذى أو ضرر ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فالله خير حافظاً و هو أرحم الراحمين } .

فما يريد آدم بعد ذلك كله ؟؟!! .

إذن .. عندما أكل هو و زوجه من الشجرة ، استيقظت فيهما كل خصائص النفس السلبية و صارت مفعلة في داخلهما .. و هنا بدت لهما سوأتهما أي بدت لهما ميزات الطمع و الحسد و الجشع و الكذب و

النفاق .. و لذلك طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة و يحاولان التغطية على خصائص السوء هذه .. و عندما واجههما الرحمن ربهما بذلك ، أسلما له و طلبا الرحمة و الغفران ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة و ناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة و أقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين (*) قالا ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين } .

إن هذه الصفات السلبية للنفس البشرية ، التي تفعلت في آدم و زوجه ، قد شجرت فيهما من الداخل ، و استفحلت و نَمَت و تنامت و انتشرت في ذريتهما و تطورت .. الكفر تطور و الكذب تطور و النفاق و الطمع و الجشع .. ذلك كله تطور إلى حالة قد نتج عنها تلكم الحروب العالمية و المجازر و البلاء .. هذه هي الشجرة .. و لذلك سميت بالشجرة .. إنها شجرة الخصائص الخبيثة للنفس البشرية ، و التي لا يصح أن تكون مع الإنسان في الجنة .. و لذلك قال القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و على الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم و نادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها و هم يطمعون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { إن المتقين في جنات و عيون (*) ادخلوها بسلام آمنين (*) و نزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين } .

اذن .. الطمع هو الأساس و هو الذي يجعل الإنسان يهوي إلى مهاوي الهلاك و العصيان .

إنه و إذا أمعنا بشيء من النظر فيما يحصل اليوم ، من أهوال و مصائب ، يقع فيها البشر ، من حروب و ظلم و مجازر و غيرها .. نرى أن سببه جميعاً هو الطمع و الجشع و الغرور .. الطمع في هذه الدنيا .. و الجشع لمتاعها و زينتها .. و الغرور بدوامها و بقائها .

و إذا أمعنا النظر كرّة أخرى فيما مضى و بدأ من أحداث ، نرى أن السبب الأساس لذلك ، كان الخديعة التي كانت المحرك الأول لخاصية الطمع و الغرور ، و التي جرّت على بني البشر وبالاً كبيراً غير منقطع و لا يزال أثره المتزايد و المتنامي إلى الآن .. خديعة حرّكت طمعاً و غروراً قاد إلى معصية الرحمن رب العالمين الذي حذّرَ و نبّه و أعلَمَ و أنذر ، فكان العقاب الشديد و كان الاختبار القاسي الصعب الذي جثم على صدر البشرية جمعاء إلى الآن .

لكن هل ترك الرحمن رب العالمين ، عباده هملاً ؟؟!! كلا و هو الرحمن الرحيم الغفور الودود القريب المجيب ، ذو العرش المجيد .. ألم يَتُبْ الرحمن رب العالمين ، على عبده آدم و يجتبيه من بعدها ؟؟!! نعم و هو التواب الرحيم .. جاء في القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و عصى آدم ربه فغوى (*) ثم اجتباه ربه فتاب عليه و هدى } .

بسم الله الرحمن الرحيم { فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم } .

لكن الرحمن رب العالمين ، غافر الذنب و قابل التوب ، لم يترك آدم و ذريته ، هكذا هملاً ، حتى بعد أن أهبط آدم و زوجه إلى الأرض ، بل إنه قد تعهَّدَ لذريتهما بالهداية و الدلالة الحق للحق ، لكنه و في الآن نفسه قد ترك لهم حرية الاختيار بين الرفض و القبول .. و قد فعل ذلك مع معشر الجن أيضاً ، و لم يكتفِ بمعشر الأنس ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم (*) قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدًى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون (*) و الذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون } .

إن رحمة الرحمن الرحيم رب العالمين ، تلك ، بعباده ، قد تعطينا دلالة إضافية على خطورة مفهوم كلمة و مصطلح (الشجرة) الذي سيقَ آنفاً في الآيات القرآنية .. فالرحمن رب العالمين الحكيم الخبير العليم ، يعلم أن تناول آدم و زوجه لتلك الشجرة ، لن يقتصر أثره على الوقت الآني الذي أكلا فيه من تلك الشجرة ، بل سيمتد إلى ذريتهما و سيتنامى و يتضخّم

و يستفحل و يشجُر مع تراكم الزمن و يتخذ لنفسه فروعاً و جذوراً ، ليس من السهل الهين التعامل معها أو استئصالها ، و سوف يفرُع عنه أقوام سوء لداً .. عدواً للرحمن عصاة له .

و لذلك ، و من أجل ذلك جميعاً ، أنبأ الرحمن رب العالمين ، عباده أنه سيرسل لهم كتب و شرائع و رسل ، تنجيهم من الضلال المحيق بهم و الذي أودى بأبويهم من الجنة و أهبطهم إلى الأرض ، و تدلهم لطريق النجاة و الهداية .

لكن الرحمن رب العالمين ، و كما قد حذر آدم و زوجه من الشيطان و من إخراجه لهما من الجنة ، فإنه قد حذر أيضاً ذرية آدم من أن يكرروا نفس الخطيئة التي وقع بها أبويهم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو و قبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون } .

إذن .. لقد أكل آدم و زوجه من الشجرة .. و بمجرد فعلهما لذلك و دخول خصائص تلك الشجرة إلى جيناتهما البشرية .. انتقل الجنس البشري إلى مرحلة جديدة و خصائص مستجدة و عالم أرضي جديد و مرحلة بشرية جديدة ، بدأت بحياة آدم و زوجه ، في الأرض ، و بدء إنجاب الذرية البشرية .

فترة آدم

إن فترة آدم المقصود بها هنا في هذا المبحث ، هي الفترة المذكورة في القرآن الكريم و الممتدة فيما بين هبوط آدم و زوجه من الجنة التي أسكنهما الله سبحانه و تعالى ، فيها ، إلى فترة نوح الرسول و دعوته قومَه إلى عبادة الرحمن رب العالمين .

إن فترة آدم المذكورة في هذا المبحث ، و من خلال المنظور القرآني ، لم يُذكَر فيها أي إشارة لقوم سوء أو لحالات كفر أو شرك ، بل حتى لم يُذكَر فيها إشارة لأقوام و أمم أو أنبياء و رسل ، فهي على ما يبدو كانت فترة نظام اجتماعي مشاعي لا وجود لجماعة أو مجتمع فيه .. و الشكل الاجتماعي الأقرب إليه ، ربما كان الإنسان الذي يعيش على الثمار و الصيد و الرعي .

لكن هذه الفترة ذُكِرت فيها حادثة واحدة ، ربما قد تكون أسبابها مؤسِّسَة أو مؤهِّلة لما سيقع من أسباب و عوامل و مقوِّمات الكفر في فترات الأقوام و الشعوب اللاحقة لفترة آدم .

لقد تطرَّق القرآن الكريم إلى فترة آدم الأرضية ، في أول حادثة قتل تقع فيما بين البشر ، ألا و هي قصة ابني آدم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في موضع واحد فقط ، إذ جاء فيه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و اتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين (*) لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين (*) إني أريد أن تبوء بإثمي و إثمك فتكون من أصحاب النار و ذلك جزاء الظالمين (*) فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين (*) فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين } .

إن النظر في الآيات القرآنية آنفة الذكر ، يوضح لنا أنه لم يكن هناك نظام جماعة أو مجتمع بعد ، كما يوضح لنا عدم وجود ملأ و عدم وجود فكر ضلالي أو أساطير بشرية دنيوية وضعية ، بل اقتصر الأمر على مجرد شخصين أخوين هما ابنا آدم قام أحدهما بقتل أخيه بسبب خلاف على قربان .

و بالتدقيق أكثر في مضمون تلك الحادثة بين الأخوين ، لا نرى فيها أية إشارة لحالة كفر أو فسق أو عصيان ، بل على العكس ، نرى الإيمان و

الطاعة النسكية لله سبحانه و تعالى ، فيما بين الشابين من حيث أن كل منهما قد قرّب قرباناً لله سبحانه و تعالى ، و هذا دليل على حالة إيمانية ظاهرة .. لكن و لسبب من الأسباب ، تم رفض قربان أحدهما ، لوجود خلل ما في موضع ما ، ربما في نفس الشاب أو في بعض أعماله و تصرفاته أو أفعاله أو أقواله .. سبب ما ، لم يذكره القرآن الكريم ، أدى إلى عدم قبول قربان هذا الشخص .. و إن كان الراجح هو سبب داخلي مرَضي نفسي يتعلق بطبيعة هذا الشخص و هو ما تتابع إيضاحه و تبيانه الآيات القرآنية حين تقول (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله) .

إذن .. حيث لا كفر و لا ضلال أو تضليل و لا إغواء و لا ملأ قوم يضلون و لا أصنام ترتجى .. و لا آلهة تُعبَد غير الرحمن رب العالمين ، برزت أول عملية قتل في التاريخ البشري ، من دون أي سبب أو مبرر .. فقط ربما الحسد و الغيرة و النفس المريضة داخلاً .

إذن .. و من خلال ما سبق و تبَين ، يتضح لنا أن المرض النفسي الداخلي الكامن في النفس البشرية و أغوارها ، هو السبب الأول و الأساس في الانصياع للضلال و الغواية و التزيين الدنيوي في الأرض .. و هو السبب الأول الأساس الذي عليه البشرية الآن من كفر و إجرام و فساد و إفساد .. ذلك أن الإنسان السوي عقلياً ، و غير المعاق ذهنياً ، و الخالِ من أمراض النفس العاطفية كالحسد و الغيرة و الطمع و البخل و ما

شابه ذلك .. هو إنسان مستعد بالفطرة الإلهية الربانية الرحمانية ، الموضوعة في النفس البشرية ، أن يؤمن بالله سبحانه و تعالى ، و ينصاع مخلصاً لتعاليمه و شرائعه ، من أوامر و نواهٍ .. ذلك كله من خلال ما يراه من آيات و دلائل منطقية عقلانية محيطة به ، و من شرائع و كتب إلهية ، و هو ما أشار إليه القرآن الكريم في محكم آياته ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (*) أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل و كنا ذريةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون (*) و كذلك نفصل الآيات و لعلهم يرجعون } .

إذن .. الفطرة الإنسانية الأساس ، هي الإدراك الداخلي لدى المرء ، أن الرحمن رب العالمين هو إلهه الواحد الأحد الذي لا شريك له ، و هو خالقه و رازقه و الوكيل الأوحد عليه و الذي يحييه و يميته ثم يبعثه .. هي فطرة منطقية بَدْهية لا حاجة للتدليل عليها و الجهد في إثباتها .. ذلك أن الكون كله من سماوات و أرض و ما فيهن و من فيهن ، مرتبطاً ارتباطاً واحداً بالمكملات العقلية العلمية المنطقية التي تثني بعضها على بعض ، فأنّى المفر و الإفك (و العياذ بالله) بإله غير الرحمن رب العالمين ؟؟!! .

بسم الله الرحمن الرحيم { بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله و ما لهم من ناصرين (*) فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم و لكن أكثر الناس لا يعلمون (*) منيبين إليه و اتقوه و أقيموا الصلاة و لا تكونوا من المشركين } .

بمنطوق الآيات آنفة الذكر ، فإنه لا شيء يضير الفطرة الإنسانية السليمة ، سوى الأهواء المريضة من حسد و غل و طمع و جشع و بخل .. فهذه الأهواء هي التي تفتح الباب واسعاً لتقبل الضلالات و الغواية ، و اتِّباعها و التوهم بالاقتناع بها .. هي النفس المريضة التي طوعت لأحد ابني آدم أن يقتل أخيه في جريمة لا ذنب له فيها و لا يد ، مع العلم أن القتيل حاول تهدئة القاتل و عدم استفزازه ، لكن القاتل لم يأبه لكل ذلك بل تابع مخططه و أهواءه المريضة التي سيطرت عليه و أودت به إلى قتل أخيه ظلماً و عدواناً من دون أي سبب .

و بمنطوق تلك الآيات أيضاً ، فإن الفطرة الإنسانية السليمة ، هي التي تقود المرء إلى الدين الحنيف للرحمن رب العالمين .

لقد بيّن القرآن الكريم أن الأهواء المريضة ، تسيطر على النفس البشرية و لا تسمح لها بالتحرر منها أو تسمح لها بالاقتناع بالدلائل المنطقية الربانية العقلية العلمية ، مهما كانت ..

بسم الله الرحمن الرحيم { أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً (*) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً } .

هي دلالة قرآنية قوية جداً ، تدل على نتيجة منطقية تقول إن من يتّبع هواه الغرائزي ، يصير كمن هو أصم و كمن هو فاقد للأهلية العقلية ، و يكون مثله كمثل الحيوان ، بل هو أسوأ مرتبة منه .

بسم الله الرحمن الرحيم { و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين (*) و لو شئنا لرفعناه بها و لكنه أخلد إلى الأرض و اتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (*) ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا و أنفسهم كانوا يظلمون } .

إن الآيات الآنفة الذكر ، تدل دلالة قاطعة على أن من يتبع هواه الغرائزي و يختلق لنفسه أمراضاً نفسية ، إنما يكون ذلك بِحُرِّ إرادته و كامل رغبته ، و لا علاقة لله سبحانه و تعالى ، بذلك .. ذلك لأن الله سبحانه و تعالى رب العالمين ، لا يظلم أحداً في ذلك و لأنه سبحانه و تعالى ، قد هيأ لهذا الشخص كل الإمكانات و المسببات التي تجعل منه شخصاً سوياً صحيح العقل و الفكر و النفس ، و كُثُر هي الآيات التي تدعم ذلك ..

بسم الله الرحمن الرحيم { من عمل صالحاً فلنفسه و من أساء فعليها و ما ربك بظلام للعبيد } .

بسم الله الرحمن الرحيم { إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً (*) إنا هديناه السبيل إما شاكراً و إما كفوراً } .

إن عميلة القتل التي قام بها أحد ابني آدم ، لأخيه ، كان أساسها المخفي ، الدفاع عن أهواء النفس البشرية المريضة تجاه النفس السليمة المؤمنة حق الإيمان بالرحمن رب العالمين .. نعم .. لقد كان هنالك دافع لا شعوري عند القاتل الذي لم يُتَقَبَّل قربانه نتيجة لعدم إخلاصه الدين للرحمن رب العالمين ، للدفاع عن كفره و فسقه البطينين ، من تأثير الإيمان الصادق المخلص للرحمن رب العالمين .. فكان ما كان ، و وقع الذي وقع و أودى بحياة أحد الأخوين و مصير الآخر في النجاة .

قوم نوح

انتهى عصر آدم و وِلده ، في القرآن الكريم ، لِيَلِيه قوم نوح ، حيث ظهرت أول منظومة كفر ممنهجة قوية صارمة في كفرها ، عتيدة به .. كما ظهر لأول مرة ، نظام الأنبياء و الرسل من الله سبحانه و تعالى ، إلى أقوامهم ليهدونهم سواء السبيل .

هي منظومة إيمان بالرحمن رب العالمين ، تقابلها منظومة كفر عنيدة .. رافق ذلك كله ظهور نظام الجماعة و المجتمع و النخب العليا فيه .

لقد ورَدَ ذكر قوم نوح في القرآن الكريم ، كأول قوم كفروا بالرحمن رب العالمين و فسقوا عن أحكامه و شرائعه ، و بالتالي فإن نوح كان أول رسول مذكور في القرآن الكريم ، بعد آدم .

و قد جاءت سيرة قوم نوح في مواضع عدة من القرآن الكريم ، اختُصَّ كل موضع منها بذكر شيء من أمر قوم نوح و حال كفرهم ، و مما جاء في ذلك ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و أنه هو رب الشعرى (*) و أنه أهلك عاداً الأولى (*) و ثمود فما أبقى (*) و قوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم و أطغى } .

يثبت آنف الآيات أن قوم نوح قد تم إهلاكهم و لن يبقَ لهم باقية ، و ذلك بسبب من كفرهم بالرحمن رب العالمين ، و شدة ظلمهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا و قالوا مجنون و ازدجر (*) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (*) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (*) و فجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر (*) و حملناه على ذات ألواح و دسر (*) تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كفر (*) و لقد تركناها آيةً فهل من مدكر (*) فكيف كان عذابي و نذر } .

تتحدث الآيات آنفة الذكر عن أن قوم نوح قد انكروا دعوة نوح الرسول إليهم ، من الرحمن رب العالمين و أتهموه بالجنون و نقص في الأهلية العقلية و طردوه باحتقار و امتهان لكرامته .. فكان أن دعا نوح الرسول عليهم ، الرحمن رب العالمين ، و طلب العون و النصرة منه ، فاستجاب الله سبحانه و تعالى ، له و قام بعقابهم بواسطة طوفان هائل عن طريق الأمطار الغزيرة المتواصلة ، و عن طريق تفجير المياه الجوفية ، و أنجى نوحاً بواسطة سفينة ركبها و قد جعل هذا السفينة باقية كأثر و مَعْلَم يراه الناس كآية لهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (*) قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين (*) قال يا قوم ليس بي ضلالة و لكني رسول من رب العالمين (*) أبلغكم رسالات ربي و أنصح لكم و أعلم من الله ما لا تعلمون (*) أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم و لتتقوا و لعلكم تُرحمون (*) فكذبوه فأنجيناه و الذين معه في الفلك و أغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين } .

هنا في الآيات آنفة الذكر ، تتضح لنا أكثر ، مهمة الرسول نوح و الرسالة الريانة المكلف بها من قِبَل الرحمن رب العالمين .. كما يتضح لنا أكثر ، طريقة و كيفية تعامل الكفرة الملأ من قومه ، معه و ردهم عليه .

لقد طلب نوح الرسول من قومه ، طلب بسيط جداً لا يكلفهم شيء و لا يثقل على كاهلهم أو أرزاقهم ، من شيء ، ألا و هو عبادة الرحمن رب العالمين ، و إتمام توحيدهم له و إخلاصهم الدين له .. و أعلَمهم إنه لا يوجد إله غيره في هذا الكون كله .. كما إنه حذرهم من عقابه و شديد عذابه .. لكن كبار الكفرة من قومه ، سرعان ما اتهموه بالكذب و الضلال و الوهم ، فكان أن نفى نوح الرسول ذلك و رد عليهم بأنه ليس واهماً أو منحرفاً عن الحق ، بل هو بكل بساطة رسول من ربهم و إلههم الرحمن رب العالمين ، مطلوب منه فقط إيصال رسالة الرحمن رب العالمين ،

إليهم .. ثم أبلغهم استغرابه و تعجبه هو منهم لأنهم استغربوا أن يكون هنالك إله واحد للكون و أن يكون هو مرسل من قِبَله إليهم ، فالأمر طبيعي و اعتيادي جداً جداً و لا يخالف أبداً المنطق و العقل .

لكن قوم نوح و بالرغم من ذلك كله أنكروا كلامه و رسالته ، فكان أن أنجاه الله سبحانه و تعالى ، منهم و قام بإغراقهم بالطوفان جزاءً لهم و عقاباً على كفرهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { و قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم و جعلناهم للناس آيةً و أعتدنا للظالمين عذاباً أليماً } .

تتحدث الآية السابقة عن العقاب الذي حاق بقوم نوح نتيجة لتكذيبهم إياه و رفضهم لرسالته و لعبادة الرحمن رب العالمين ، فكان العقاب بالطوفان الذي أهلكهم جميعاً و لم يُبقِ لهم باقية ، بل و جعل مهلكهم برهاناً للناس من بعدهم و عبرة و عظة .

بسم الله الرحمن الرحيم { كذبت قوم نوح المرسلين (*) إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون (*) إني لكم رسول أمين (*) فاتقوا الله و أطيعون (*) و ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (*) فاتقوا الله و

أطيعون (*) قالوا أنؤمن لك و اتبعك الأرذلون (*) قال و ما علمي بما كانوا يعملون (*) إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون (*) و ما أنا بطارد المؤمنين (*) إن أنا إلا نذير مبين (*) قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين (*) قال رب إن قومي كذبون (*) فافتح بيني و بينهم فتحاً و نجني و من معي من المؤمنين (*) فأنجيناه و من معه في الفلك المشحون (*) ثم أغرقنا بعد الباقين (*) إن في ذلك لآيةً و ما كان أكثرهم مؤمنين } .

توضح الآيات آنفة الذكر أن قوم نوح قد أنكروا دعوة نوح الرسول إليهم من قِبل الرحمن رب العالمين .. ذلك أنه قال لهم أن يخافوا الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، و يتقوه حق تقاته و أن يتبعوا ما يقوله لهم .. و أخبرهم إنه لا يريد منهم مالاً و لا عطاءً مقابل ما يبلغهم به ، لأن الله سبحانه و تعالى ، هو الذي يعطيه ذلك كله .. لكن قومه رفضوا اتّباعه و دعوته بحجة داحضة واهية هي أن من يتبعه ، هم عوام الناس و بسطاؤهم و قواعد المجتمع الذين لا قيمة اجتماعية لهم .. فيجيبهم نوح إنه لا علاقة له بهم و لا وكالة له عليهم ، و إن ذلك أمر من اختصاص الرحمن رب العالمين ، هو الذي يعاقبهم على نواياهم و هو الذي يثيبهم عليها ، و أنه هو (أي نوح) مجرد رسول .. لكن قوم نوح هذه المرة و بموجب تلك الآيات ، قاموا و وجهوا إنذاراً و تهديداً له بالقتل الواضح الصريح إن لم يتراجع عما يقوم به من دعوة الناس إلى عبادة الرحمن الواحد الأحد رب

العالمين .. فما كان من نوح إلا أن دعا الرحمن ربه ، مضطراً و مبلّغاً إياه أن قومه قد كذبوه و أنكروا دعوته .. و طلب منه الخلاص منهم فراقاً غير وامق ، فكان أن استجاب الله سبحانه و تعالى ، له و أنجاه منهم بعد أن أغرقهم و جعلهم عبرة للناس من بعدهم .. لكن الناس و بحسب المنطوق القرآني ، لم يتعظوا من كل ما حصل .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين (*) أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم (*) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا و ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي و ما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين (*) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي و آتاني رحمةً من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها و أنتم لها كارهون (*) و يا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله و ما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم و لكني أراكم قوماً تجهلون (*) و يا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون (*) و لا أقول لكم عندي خزائن الله و لا أعلم الغيب و لا أقول إني ملك و لا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين (*) قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (*) قال إنما يأتيكم به الله إن شاء و

ما أنتم بمعجزين (*) و لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم و إليه ترجعون (*) أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي و أنا بريء مما تجرمون (*) و أوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون (*) و اصنع الفلك بأعيننا و وحينا و لا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (*) و يصنع الفلك و كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون (*) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يحل عليه عذاب مقيم (*) حتى إذا جاء أمرنا و فار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين و أهلك إلا من سبق عليه القول و من آمن و ما آمن معه إلا قليل (*) و قال اركبوا فيها بسم الله مجراها و مرساها إن ربي لغفور رحيم (*) و هي تجري بهم في موج كالجبال و نادى نوح ابنه و كان في معزل يا بني اركب معنا و لا تكن مع الكافرين (*) قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم و حال بينهما الموج فكان من المغرقين (*) و قيل يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء أقلعي و غيض الماء و قضي الأمر و استوت على الجودي و قيل بعداً للقوم الظالمين (*) و نادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي و إن وعدك الحق و أنت أحكم الحاكمين (*) قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين (*) قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم و

إلا تغفر لي و ترحمني أكن من الخاسرين (*) قيل يا نوح اهبط بسلام منا و بركات عليك و على أمم ممن معك و أمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم } .

يبرز آنف الآيات ، صورة أوضح و أعمق قليلاً ، عن كيفية تعاطي الرسول نوح مع قومه و كيفية ردهم عليه ، فهي تتعمق أكثر في طبيعة الجدال و الحوار بين نوح و بين قومه .. كما توضح أكثر ، كيفية الطوفان و طبيعة الأحداث التي حصلت أثناء وقوعه .. و هي في الواقع قد أعطت المزيد من الأبعاد لقراءة قضية نوح الرسول مع قومه ، فقد تناولت ذلك الأمر من البداية حيث الدعوة ، إلى النهاية حيث الطوفان .

تشرح تلك الآيات كيف أن نوحاً قد أُرسِل إلى قومه من الله سبحانه و تعالى ، و عرض عليهم عبادة الرحمن رب العالمين ، عبادة توحيدية لا شرك فيها مع غيره ، و اتّباع شرائعه و تنفيذ وصاياه ، ثم بعد ذلك حذرهم من عقاب الرحمن رب العالمين و غضبه ، مشيراً لهم إلى ضرورة اتقاء غضبه .. لكن قوم نوح رفضوا كلامه و دعوته لهم ، بحجة أنه بشر مثلهم و أن أتباعه هم من عوام المجتمع و ذوي المكانة الوضيعة .. فيرد عليهم نوح القول بأن هذا الأمر ليس له يد فيه و أنه من اختصاص الله سبحانه و تعالى ، و أنه لا علاقة له بإيمانهم من عدمه ، فكل امرؤ يحاسَب على إيمانه أو كفره ، فهذا أمر متعلق به وحده ، و أنه لا ذنب له إن كان قد

جاءه برهان و دلائل علمية و عقلية و منطقية من الله سبحانه و تعالى ، لكن ذلك كله لم يظهر لهم .. كما أخبرهم إنه لو طرد هؤلاء و منعهم من دعوته ، فسوف يعاقبه الله سبحانه و تعالى ، و لن يجد له نصيراً أو شفيعاً من دونه .

ثم يعود نوح و يُذَكِّر قومه إنه بشر مثلهم لا يعلم الغيب و لا يملك من إمكانات و مقدرات إلا استطاعته كبشر ، و أن ذلك لا يعني مطلقاً عدم صحة كلامه ، لأن دعوته إلى الرحمن رب العالمين ، متعلقة بالعقل و المنطق أكثر منها المعجزات و الخوارق الطبيعية .

لكن قوم نوح و بالرغم من كل الدلائل و المحاجّ العقلية و المنطقية التي ساقها لهم ، لم يرتدعوا عن طغيانهم و غيهم و اتهموا نوحاً بكثرة الجدال العقيم الذي لا طائل منه و طالبوه بإثبات كلامه بأن يأتيهم بعذاب الرحمن رب العالمين ، إن كان صادقاً حقاً في دعواه .. فأجابهم نوح إن الرحمن رب العالمين ، هو الذي يأتيهم بالعذاب إن شاء ، و إن نصائحه لهم لا تجدي نفعاً .

لقد كان من إثر ذلك أن أمره الله سبحانه و تعالى ، أن لا يلتفت إلى قومه و أن يقوم ببناء سفينة بحسب ما يشير إليه و يوحي ، بكيفية بناءها ، فكان أن نفذ نوح الأمر و باشر ببناء السفينة .. و كلما مر بجواره قومه ، سخروه و استهزأوا ، لبنائه السفينة في أرض برية بعيدة عن الماء .. و لم تمضي فترة من الزمن حتى جاء أمر الله سبحانه و تعالى ، بوقوع العذاب على قوم نوح و بدأ الماء بالانهمار من السماء و التفَجُّر من الأرض .. و صعد نوح و القلة القلية ممن آمنوا به ، و من جلبه من حيوان ، إلى السفينة .

تتحدث الآيات القرآنية في مجمل سياقها ، عن حالة ابن نوح الكافر الذي ناداه نوح و طلب منه أن يركب معهم في السفينة ، لكن الشاب رفض ذلك و قال إنه سيعتصم بجبل منيع يحميه من طوفان الماء ، بالرغم من تحذير نوح له إن أمر الرحمن رب العالمين ، لن يكون له مانع أو حائل و لن يقف بوجهه شيء ، فكان أن غرق الشاب .. و لما طلب نوح من ربه أن ينجي له ابنه ، أخبره الله سبحانه و تعالى إن هذا ليس بولد له من صلبه بل هو مجرد ابن زنا ، و أن لا يحزن عليه .

بعد زوال الطوفان و انحسار الماء عن اليابسة ، يطلب الله سبحانه و تعالى من نوح أن ينزل و من معه ، من السفينة بعد أن أهلك قوم الطغيان و الكفر .. لكن الله سبحانه و تعالى يخبر نوحاً بطريقة غير مباشرة أن هنالك مِن ذريته و ذرية مَن معه سيكفر فيما بعد .

بسم الله الرحمن الرحيم { و اتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي و تذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم و شركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمةً ثم اقضوا إلي و لا تُنظِرونِ (*) فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله و أُمِرت أن أكون من المسلمين (*) فكذبوه فنجيناه و من معه في الفلك و جعلناهم خلائف و أغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين } .

توضح الآيات آنفة الذكر ، صورة أخرى من محاولة نوح الرسول ، إقناع قومه بعبادة الرحمن رب العالمين و إعلامهم أنه لا يريد منهم أي مقابل لقاء ذلك و لا ثمن .. لكن القوم لم يقتنعوا و أصروا على رفضهم دعوة نوح و اتهامهم إياه بالكذب ، فكان أن أنجاه الرحمن رب العالمين و جعل من آمن به خلفاء من بعد من كفر ، بعد أن أغرقهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم (*) قال يا قوم إني لكم نذير مبين (*) أن اعبدوا الله و اتقوه و أطيعون (*) يغفر لكم من ذنوبكم و يؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (*) قال رب إني دعوت قومي ليلاً و نهاراً (*) فلم يزدهم دعائي إلا فراراً (*) و إني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم و استغشوا ثيابهم و أصروا و استكبروا استكباراً (*) ثم إني دعوتهم جهاراً (*) ثم إني أعلنت لهم و أسررت لهم إسراراً (*) فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً (*) يرسل السماء عليكم مدراراً (*) و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهاراً (*) ما لكم لا ترجون لله وقاراً (*) و قد خلقكم أطواراً (*) ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً (*) و جعل القمر فيهن نوراً و جعل الشمس سراجاً (*) و الله أنبتكم من الأرض نباتاً (*) ثم يعيدكم فيها و يخرجكم إخراجاً (*) و الله جعل لكم الأرض بساطاً (*) لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً (*) قال نوح رب إنهم عصوني و اتبعوا من لم يزده ماله و ولده إلا خساراً (*) و مكروا مكراً كباراً (*) و قالوا لا تذرن آلهتكم و لا تذرن وداً و لا سواعاً و لا يغوث و يعوق و نسراً (*) و قد أضلوا كثيراً و لا تزد الظالمين إلا ضلالاً (*) مما خطيئاتهم أُغرِقوا فأُدخِلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً (*) و قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً (*) إنك إن تذرهم يضلوا عبادك و لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً

(*) رب اغفر لي و لوالدي و لمن دخل بيتي مؤمناً و للمؤمنين و المؤمنات و لا تزد الظالمين إلا تباراً } .

شكّلت الآيات سابقة الذكر ، سورة قرآنية بحد ذاتها ، هي سورة نوح التي تناولت بشيء من تفصيل آخر غير ذي قبل ، قضية نوح الرسول ، دعوته لقومه .. و قد جاءت هذه المرة بكلام الله سبحانه و تعالى ، أو الملائكة الكرام إذ قالوا إن نوح هو رسول مرسَل من قِبَلِهم إلى قومه لكي يحذرهم من عذاب و عقاب الرحمن رب العالمين ، لهم حال تماديهم في كفرهم .. و تخبر الآيات إن نوح قد أخبر قومه إنه رسول من قِبَل الرحمن رب العالمين ، إليهم قد جاءهم برسالة تحذير و تنبيه لهم بأن يطبقوا شرع الله سبحانه و تعالى و يسيروا على منهجه و أن يتجنبوا كل ما يثير سخطه و غضبه عليهم ، و أن يطيعوه باعتباره رسول من قبل الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .

و أخبرهم نوح أيضاً أن الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، في حال عبدوه مخلصين له الدين ، و اتقوه و ما أشركوا به من أحد أو شيء ، فإنه سيغفر لهم كل خطاياهم السابقة و سوف يمنحهم فرصة زمنية محددة ،

لتدارك أخطاءهم ، لأن أمر الله سبحانه و تعالى ، و عقابه إذا جاءا ، فلن يكون هنالك مجال للتأخير أو التفادي .

لكن قوم نوح و على ما يظهر من الآيات القرآنية ، قد رفضوا دعوة نوح لهم لعبادة الرحمن رب العالمين ، و نفروا منها و رفضوها ، فكان أن توجَّه نوح للرحمن رب العالمين قائلاً له إنه قد قام بواجب دعوة قومه في آناء اليوم كلة و لم يألُ جهداً في ذلك ، لكن قومه ازدادوا رفضاً له و اشتدوا كفراً بدعوة الرحمن رب العالمين و هروباً منها .

و أخبر نوح ربه إنه كلما دعاهم و طلب منهم عبادة الرحمن رب العالمين لكي يغفر لهم ذنوبهم و آثامهم ، قاموا بصَمِّ آذانهم و تغطية رؤوسهم بثيابهم و أصروا بعناد على موقفهم الرافض ، مستكبرين على عبادة الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .

و يعود نوح و يخبر الرحمن ربه إنه لم يدخِر جهداً في دعوة قومه ، فقد دعاهم جماعةً و علانيةً في الشوارع و الميادين العامة ، و أيضاً دعاهم

فرادى في حوارات و نقاشات خاصة بينه و بينهم ، طالباً منهم أن يستغفروا الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، لأن من صفاته ، المغفرة و هو بالغ المغفرة لعباده .. قائلاُ لهم إن الرحمن رب العالمين يكافئ عباده المخلصين له الدين ، في الدنيا كما في الآخرة ، فيرسل لكم الخير و الرزق من السماء ، و يمدكم بمتاع الدنيا و زينتها الذي تحبون ، من مال و بنين و حرث و نحو ذلك .

ثم يضيق نوح ذرعاً بقومه أن لم يستجيبوا له ، فيقول لهم صائحاً غاضباً .. ويحكم ، لماذا لا تحترمون الله سبحانه و تعالى ، و تقدروا مكانته ؟؟!! فهو الذي صنعكم و اصطنعكم في مراحل متعددة من الخلق .. و لكم أن تنظروا إلى السماوات و كيفية خلقها و كيفية تموضع الكواكب بها ، و تنظروا إلى كيفية ظهور و نمو النبات فيها و تقارنوا ذلك بكيفية خلقكم و إنشائكم على الأرض ثم عودتكم إليها مماتاً ثم إخراجكم منها بعثاً .. هذه الأرض التي ذللها الله سبحانه و تعالى ، لكم لكي تسيروا فيها و تنتشروا في مناكبها .

بعد كل ذلك العناء من دعوة و كلام ، و بعدما يئسَ نوح من استجابة قومه ، توجه إلى الرحمن رب العالمين قائلاً .. ربِ إن قومي قد عصوني و اختاروا أن يكونوا مع أصحاب المال و القوة و المنعة بالولد و العدد و الذي لن يكون له خلاق عندك يوم القيامة بل سيكون سبباً للخسران المبين .. رب إنهم قد مكروا بي و قالوا فيما بينهم لا تتركوا آلهتكم فلان و فلان و فلان الذين أضلوا الكثير من الناس .. رب و لا تترك منهم أحداً لأنهم قوم كفر و لن يكونوا سوى قوم كفر ، ينشرون الكفر و لا يأتون إلا بذرية كافرة على شاكلتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون (*) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم و لو شاء الله لأنزل ملائكةً ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين (*) إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين (*) قال رب انصرني بما كذبون (*) فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا و وحينا فإذا جاء أمرنا و فار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين و أهلك إلا من سبق عليه القول منهم و لا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (*) فإذا استويت أنت و من معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين } .

أيضاً تُبرِز الآيات القرآنية الآنفة ، صورة جديدة عن كيفية تعاطي قوم نوح معه .. فبالإضافة إلى رفضهم دعوته لعبادة الرحمن رب العالمين ، و اتهامهم له بالجنون ، برزت لأول مرة قضية تآمرهم عليه لقتله بطريقة غير معلنة ، فكان أن دعا نوحٌ ربَه النجاة من هؤلاء القوم و النصرة عليهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { كذبت قبلهم قوم نوح و الأحزاب من بعدهم و همت كل أمة برسولهم ليأخذوه و جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب } .

أيضاً تبرز الآية آنفة الذكر ، قضية شروع قوم نوح و ما شابههم و شاكلهم من أقوام السوء ، بمحاولة قتل رسولهم الموفَد إليهم من الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .. و تبرز تلك الآية القرآنية ، أيضاً كيف أن الله سبحانه و تعالى ، قد عاقب هؤلاء القوم و دمر عليهم و أفناهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان و هم ظالمون (*) فأنجيناه و أصحاب السفينة و جعلناها آيةً للعالمين } .

القضية الجديدة التي تبرزها الآيتان السابقتان ، هي طول مدة بقاء نوح الرسول و سني حياته و عمره المديدة ، و بمدة خارقة لنطاق حياة البشر تماماً (حوالي العشرة من القرون) و مع ذلك لم يستجب له من قومه إلا القلة القليلة .

قوم نوح .. قراءة فكرية ..

في المنظور القرآني .. كان قوم نوح أول أقوام الكفر في التاريخ البشري ، من بعد هبوط آدم و زوجه إلى الأرض و إنشاء ذرية بشرية مستعمِرة منتشرة .

و كما ذكرنا ، فإن الذي يبدو من المضمون القرآني الصادق المصَدِّق لما بين يديه ، أن الناس كانت قبل ذلك ، إما على الهدى و إما على شيء من سُبحانية لا كفر بيّن صريح فيها ، فبدأوا بعد ذلك و بسبب من الأسباب ، بالانحراف عن الطريق القويم و الفطرة الإنسانية المنبثقة من الهداية الإلهية و الروح الرحمانية التي وضعها الرحمن رب العالمين ، في آدم بعد خلقه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون (*) فإذا سويته و نفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين } .

هذه الفطرة الرحمانية ، كانت على ما يبدو ذا أثر و تأثير في ولْدِ آدم من بعده .. لكن و بانتفائها أو بداية اضمحلالها نتيجة الضلال و التضليل الخارجي للإنسان ، بدأ الناس جماعةً ، بالخروج من حظيرة الإيمان و الهداية إلى ربقة الكفر بالرحمن رب العالمين ، و بدأ الخلاف و النزاع فيما بينهم ، و هو ربما ما عبّرت عنه الآية القرآنية التالية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { كان الناس أمةً واحدةً فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه و ما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه و الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم } .

توضح الآية الآنفة أن البشر كانوا فيما قبل (و الراجح هو فترة ما بعد آدم و قبل نوح الرسول) على قلب رجل واحد من الإيمان و التقوى ، أو في أدنى حالاتهم ، عدم كفر أو إشراك بالرحمن رب العالمين .. ثم بعد ذلك و

نتيجة لسبب ما (و الراجح هو الضلال و التضليل كما ذكرنا آنفاً) بدأت عقائد الكفر بسبب من شرك و نحوه تتسرب إلى عقول الناس ، نتيجة للضلال و نتيجة للأمراض النفسية من حسد و غُلّ و غيرة و نحو ذلك .. و ما تشير إليه الآيات ، هو أنه و بعد ظهور الاختلاف الفكري بين الناس ، أرسل الله سبحانه و تعالى ، الأنبياء و الرسل ، لهداية الناس و أرسل معهم الشرائع السماوية و الأحكام الربانية للحكم فيما بين الناس و إرجاعهم إلى حظيرة الحق و الصراط المستقيم ، لكن ذلك و على ما يبدو قد عجل في تفجر الخلاف و إظهار الباطل الكامن في بعض النفوس ، و تمايزه عن الحق و تبيانه على حقيقته .. و ربما قد تفسر لنا الآية سابقة الذكر ، كل أو معظم الآيات القرآنية الواردة في قوم نوح و السبب الأساس في طغيانهم و كفرهم و إصرارهم الشديد على ذلك .. بل و ربما تفسر أيضاً استمرارهم على ذلك الكفر و الطغيان فيه ، طيلة مدة بقاء نوح الرسول معهم و التي كانت فترة زمنية طويلة جداً و لا يستهان بها ، قياساً لفترة حياة البشر الافتراضية .

كذلك فإن الذي يبدو من المضمون القرآني الكريم ، أن قوم نوح لم يتمتعوا بأية خاصية تميزهم عن غيرهم من بقية الأقوام ، لناحية التجارة أو الصنعة أو تصرفات معينة أخرى .. و هو أمر ربما يعود مَرَدّه إلى حداثة قوم نوح

لجهة التكوين الجماعي و المجتمعي و ما يرتبط به ، فهم كما ذكر القرآن الكريم ، أول قوم بعد فترة آدم أي بعد فترة ظهور الجنس البشري على الأرض .

إن ما يتضح من الآيات القرآنية جميعاً ، التي تناولت قصة قوم نوح ، أول أقوام السوء في القرآن الكريم ، هو سمة الكفر بالرحمن رب العالمين و الاتجاه نحو عبادة أصنام (مِن حجارة على الغالب) بدلاً عنه و اتخاذ هذه الحجارة ، آلهة بديلة عن الرحمن رب العالمين (و العياذ بالله) .

كما يبدو من خلال تلك الآيات ، انتفاء عقيدة التوحيد تماماً لهؤلاء القوم و استبدالها بعقيدة الآلهة المتعددة ، من حيث الإشارة إليها و تسميتها و تحديدها و توصيفها بالآلهة (ود .. سواع .. يغوث .. يعوق .. نسر) و هو أمر يعطي دلالة قوية إلى الكفر بالرحمن ، أكثر منه الشرك به ، أي أن الحالة هنا في قوم نوح الأوائل ، هي حالة الانتقال المباشر إلى كفر البتة ، و ذلك من خلال ما يتبين لنا من دعوة نوح الرسول لهم إلى عبادة الله سبحانه و تعالى ، من دون أن يذكر قضية الشرك في هذه الدعوة ، بشكل واضح صريح .. لكن القوم و بالرغم من ذلك كله لم ينصاعوا لدعوة رسولهم نوح بل رفضوها تماماً .

و يتضح لنا أيضاً من خلال الآيات القرآنية التي تناولت قضية قوم نوح ، قوة مقدار هذا الكفر و التشبث به لدرجة مخيفة و بشكل قد لا يتناسب منطقياً مع حيثية أن هؤلاء القوم هم من أوائل أقوام السوء في القرآن و ربما في التاريخ البشري ، و بالتالي فلا تراكم زمني هناك لعقائد و أفكار الضلال و الباطل لكي تبرر هذا التشدد في الكفر و الدفاع و الذَود عنه لدرجة التهديد بالقتل أو الإيذاء الجسدي ، و بالرغم من كل الدلائل و البراهين العلمية و العقلية و المنطقية التي ساقها نوح الرسول لقومه (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً .. جعل القمر فيهن نوراً و جعل الشمس سراجاً .. الله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها و يخرجكم إخراجاً .. الله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً) .

و ما يثير الأمر استغراباً أكثر ، هو طول الفترة الزمنية التي قضاها نوح الرسول مع قومه ، يدعوهم إلى عبادة الرحمن رب العالمين ، و التي ناهزت الألف من السنين .. أي قرون عشرة طِباقاً ، مستخدماً كل الوسائل و كل الإمكانات مِن ترغيب و ترهيب ، في أن يقنع قومه بعبادة الرحمن رب العالمين ، لكنه لم يفلح في ذلك ، ما حداه للتوجه لله سبحانه و تعالى ، شاكياً متألماً (رب إني دعوت قومي ليلاً و نهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً .. إني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم و استغشوا ثيابهم

و أصروا و استكبروا استكباراً .. ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم و أسررت لهم إسراراً فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهاراً) .. فما كان من ذلك إلا الكفر الصلب الصلد المعَنِّد ؟؟!! و ما كان من نتيجة ذلك إلا أن توجه نوح الرسول للرحمن ربه ، بالدعاء على قومه لإبادتهم .. و هو الرسول الوحيد في القرآن الكريم الذي دعا على قومه بالإبادة و الفناء الكامل ؟؟!! و هذا ما يبرز لنا خطورة قضية الكفر و الشرك بالله سبحانه و تعالى ، و سرعة تغلغلها في الوجدان و العقول المريضة و النفوس العليلة و من ثم قوة ثباتها و تثبيتها ، و هو أمر قد بيّنه القرآن الكريم في البعض من مواضعه ، و منها ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و ما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم و لولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم و إن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب } .

بسم الله الرحمن الرحيم { إن الدين عند الله الإسلام و ما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم و من يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب } .

بسم الله الرحمن الرحيم { أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب و الحكمة و آتيناهم ملكاً عظيماً (*) فمنهم من آمن به و منهم من صد عنه و كفى بجهنم سعيراً } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و قالوا لولا نزل هذا القرءان على رجل من القريتين عظيم } .

بسم الله الرحمن الرحيم { ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق } .

أي أن ما سبق آنفاً من آيات قرآنية ، يلفت النظر إلى أن أحد أهم أسباب الضلال و الكفر عند الناس ، كان الحسد و الغيرة و النفوس المريضة ، إلى جانب التأثير الخارجي الذي وجد موطئ قدم له في تلك النفوس ، و بالتالي فلا تأثير ، و لو أدنى قيمة ، لعامل القدم الزمني أو حداثة وجود بني البشر على وجه الأرض .. فالنفس المريضة ، سواء أكانت حديث عهد أم قديمه ، سوف تتأثر بالمغريات و الضلالات الخارجية الوافدة إليها من جهة من الجهات أو شكل من الأشكال ، و من ثم تنقاد إلى الكفر بالرحمن رب العالمين ، متشبثة بكفرها لا ترى و لا تريد عنه بديلاً ، مهما كانت الدلائل المنطقية التي تعترضها أو تُواجَه بها (قالوا

يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) و مهما طال العهد في ذلك .

لقد كان الكفر بالرحمن رب العالمين ، المتجلي باتخاذ معبودات أخرى من دونه ، هو سمة قوم نوح ، الأساس .. و يبدو من ظاهر الآيات القرآنية التي تناولت نوح الرسول و قومه ، أنه لم يكن هنالك من سمة أخرى غير الكفر يُقاد بها هؤلاء القوم .. و الملفت للنظر و الانتباه أيضاً في ذلك ، هو كثرة الكفر و قلة الإيمان .. إذ أنه من خلال القراءة القرآنية ، يتضح لنا طغيان الكفر بشكل مرعب ، مع قلة المؤمنين بنوح (و قد أضلوا كثيراً و لا تزد الظالمين إلا ضلالاً .. و أوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون .. حتى إذا جاء أمرنا و فار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين و أهلك إلا من سبق عليه القول و من آمن و ما آمن معه إلا قليل) .

و لقد بلغ من شدة كفر قوم نوح ، و قوة سطوته و تأثيره ، أن كان عقابهم هو الطوفان الذي دمر و أزال كل نفسٍ منفوسَةٍ .. يضاف إلى ذلك دعاء نوح الرسول على قومه و طلبه من الرحمن رب العالمين ، أن لا يُبقي على الكفار أحد لأنه لن يأتي إلى هذه الدنيا ، بسببهم ، إلا الكافر (و قال

نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً (*) إنك إن تذرهم يضلوا عبادك و لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) .

مما سبق و ذُكِرَ ، يبرز سؤال مُلِحّ جداً و هو .. ما هي الآلية المنطقية و الحيثية الفكرية الدافعة لكل هذا الكفر الرهيب المعانِد المعنِّد ؟؟!! و ما هي الحاضنة الأساس له ؟؟!! .

إن الجواب على تلك المعضلة الفكرية المنطقية ، يكمن في العودة إلى التاريخ الزمني لتلك الفترة ، و الحيز الجغرافي للمنطقة التي تواجد فيها هؤلاء القوم ، فمنها تكون البداية .. بداية تشكل أقوام السوء في القرآن الكريم .

إن الثابت أو شبه المؤكد الذي اتفقت عليه المرويات و الآثار التاريخية المتوافقة مع الإخبار القرآني ، هو أن المنطقة التي عاش فيها قوم نوح ، كانت في منطقة ما عُرِف ببلاد الرافدين (العراق حالياً) .. و بالعودة إلى التاريخ الأنثروبولوجي و الأركيولوجي لهذه المنطقة نرى أن هنالك إجماعاً قوياً بين علماء التاريخ و الآثار ، على أن تلك المنطقة كانت من أوائل الحضارات البشرية في التاريخ ، و فيها نشأت الأساطير الوضعية المفسِّرة

لنشأة الحياة و الكون و الآلهة و البشر .. و هي ليست أساطير إلهية ربانية سماوية حقيقية بل هي في واقع الأمر من تخيلات و إرهاصات بني البشر أو غيرهم ، و هي تخالف تماماً القرآن الكريم ، ذِكر الرحمن رب العالمين ، و السرد القرآني الحكيم و أحكامه و شرعه .. ذلك أنه بوضعها تحت مجهر المقارنة معه ، فإنها تتجلى بكفر واضح صريح لا مجال لتأويله و مناقشته أو صرفِه في غير مصرف الكفر بالرحمن رب العالمين ، و ذِكْر القرآن الحكيم العزيز العظيم الكريم المجيد .

و هي أساطير كثيرة متعددة ، منها و أشهرها أسطورة (إينوما إيليش) و أسطورة أو ملحمة جلجامش و وأسطورة الطوفان و غيرها .. و جميع هذه الأساطير ، ركّزت بشكل أساس على قضية تعدد الآلهة و اختصاص كل منها بأمر معين و حالة محددة .. فكان هنالك (و العياذ بالله) آلهة[1] للمطر و الشمس و الحرب و الحب و الدعارة و الجنس و الموت و الحصاد و .. و .. الخ من آلهة لا تُعَدّ و لا تُحصى .. و هذه الأساطير كلها كانت تأخذ الجانب و المنحى الديني حصراً ، ثم تُسقِط عليه (حسب الحاجة و الظرف) العامل السياسي أو الاقتصادي أو الحربي أو غير ذلك .

[1] نلفت نظر القارئ إلى أن كل كلمة (آلهة) تأتي في هذا الكتاب ، لغير الله سبحانه و تعالى ، هي كلمة باطلة و غير معتبَرة لدينا لكن تم إيرادها لضرورة توثيق السياق التاريخي و السرد البحثي .. فقط لا غير .

إذن فهي أساطير دينية في المضمون و المظهر ، و تعطي صورة واضحة عن الديانات في بلاد الرافدين بمختلف فتراتها التاريخية و توزعها الجغرافي أو الجيوسياسي إن صحّت التسمية .. الأكادي .. الشوري .. البابلي .. السومري .. الخ . و هذه الكيانات أو الممالك ، كانت تبدو بمظاهر سياسية مختلفة لكنها في المضمون كانت تتبع متن عقيدة دينية واحدة ، حتى و إن اختلفت في ظاهر عقائدها الدينية أو تسميات الآلهة المناطقية لديها .. أيضاً و إن اختلفت في ظاهر الأمر السياسي لديها من حروب و نزاعات و مناوشات ، لكن أساس العقيدة لديها هو العقيدة الدينية التي أنتجتها تلك الأساطير المذكورة و التي كانت تدعو إلى الإيمان المطلق بتعدد الآلهة و تعدد اختصاصاتها و مراتبها و مكانتها ، و تؤسس لذلك كله ، من حيث أنه كان لكل إله اسم مختص به و وظيفة مرتبطة به .. كما كان هنالك آلهة كبرى و آلهة عامة .. و كان هنالك آلهة شاملة و آلهة فرعية .. آلهة إقليمية أو عالمية و أخرى محلية مناطقية .

و السؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن القارئ هنا ، هو .. ألم تكن هنالك أساطير أو عبادات أو عقائد دينية فكرية ، تحدثت عن مفهوم التوحيد أو الإله الواحد ؟؟!! .

و الجواب هو .. نعم ، لقد كانت هنالك أساطير تحدثت عن ذلك ، بل هي من نفس تلك الأساطير المذكورة سابقاً ، لكنها لم تكن مخلصة الدين تماماً لفكرة الإله الواحد ، فهي قد رفعت بعض الآلهة إلى مراتب عليا و وضعتها في موضع كليات القدرة و المشيئة و الأمر ، لكنها (و بشكل تمويهي خداعي) وضعت معها آلهة أخرى في مرتبة أدنى منها و أسندت إليها وظائف أقل اشتمالاً و توسِعَةً ، و بالتالي فإن قضية تعدد الآلهة ، الشركية في أساسها ، كانت هي المتن و المحور دائماً في كل عقائد هذه البلاد ، المستندة إلى أساطيرها المذكورة المزعومة .. و هو ما تناوله القرآن الكريم فيما تناوله من قصة قوم نوح ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و مكروا مكراً كباراً (*) و قالوا لا تذرن آلهتكم و لا تذرن وداً و لا سواعاً و لا يغوث و يعوق و نسراً (*) و قد أضلوا كثيراً و لا تزد الظالمين إلا ضلالاً } .

تورد الآيات القرآنية آنفة الذكر ، صورة جلّية واضحة عن مفهوم الأساطير المذكورة سابقاً و مدى تأثيرها في الناس ، و كذا الأمر فكرة تعدد الآلهة المزعومة ، ذات الاسم و التخصص الوظيفي .. كما أن العبارة (و مكروا مكراً كباراً) تشير إلى وجود من يدير اللعبة بشكل غير ظاهري و غير مباشر لكن له تأثير قوي كبير جداً .

و إذا عدنا ، في حقيقة الأمر إلى الأساطير القديمة في بلاد ما بين النهرين ، لوجدنا عدد الآلهة في تلك المناطق كان عدداً كبيراً لا يُستهان به أبداً .. و لقد أسبغت تلك الأساطير ، الصورة البشرية على هذه الآلهة ، و كانت إلى درجة كبيرة تشبها بالبشر من حيث الشكل و الصورة و الصفات لكنها و في الوقت عينه ، ميّزتها عن البشر من حيث الإرادة و التصرف و الحجم و العقل و القوة و المشيئة .

على أن تلك الأساطير ، لم تقتصر فقط على الصفات البشرية الحميدة و الإيجابية التي ألصقتها بتلك الآلهة بل شمّلتها أيضاً بعض الصفات القبيحة أو السلبية أيضاً ، كسوء التدبير و الغضب غير المبرر و الظلم من دون وجه حق و ما إلى هنالك .

و مع كل ما سبق ، يبرز السؤال مرة أخرى .. ما هو سر قوة هذه الأساطير في تأثيرها على البشر في بداياتهم الأولى على الأرض ، من حيث أنها جعلتهم يتّبعونها بشكل أعمى كلي و يرفضون أية عقائد أخرى غيرها (باعتبار هذه الأساطير هي عقائد أيضاً) ؟؟!! .

يكمن الجواب في أن بعض هذه الأساطير ، قد تناولت قضية و موضوع الآلهة (طبعاً بحسب منظورها هي) من بدايتها إلى نهايتها ، فكانت بذلك مشتملة على تفسيرها لنشأة الكون و ظهور الآلهة و آلية عملها و خلقها للكون و عناصره و موجوداته و من ثم تكاثرها و خلقها للإنسان و ما استتبع ذلك مِن سنّها للقوانين و الشرائع .

و السبب الآخر و الذي هو سبب قوي جداً جداً ، فإنه يبدو و للأسف ظهور هذه الأساطير في وقت لم تكن هنالك شرائع إلهية ربانية مكتوبة .. إذ أن أول نص شرائعي مكتوب ، جاء في القرآن الكريم ، هو (صحف إبراهيم) و إبراهيم قد جاء بعد فترة نوح .. كذا الأمر في قوم عاد و ثمود .. من حيث أنه لم يكن هنالك شرائع إلهية ربانية مكتوبة ، و التي يبدو أنها جاءت كَرَدّ على هذه الأساطير الزائفة المختَلَقة المصطَنعَة .

و لعل أشهر أسطورة في هذا المضمار ، هي أسطورة (إينوما إيليش)[1] التي تناولت بشيء من الإسهاب و التفصيل ، هذه القضايا جميعاً .

[1] لمزيد من التفاصيل حول هذه الأسطورة ، راجع كتابنا (الحكمة بين الإله و السلطان) .

لقد تحدثت هذه الأسطورة المزعومة ، في بدايتها عن كيفية ظهور و نشأة الآلهة الأولى التي خلقت الكون من سماوات و أرض ، و من ثم تكاثر هذه الآلهة فيما بينهما و تعددها ، لتأتي بعد ذلك مرحلة الصراع فيما بينها و الاقتتال على الزعامة الكونية ، لينتهي الأمر بعدها بانتصار أحدها و اسمه مردوخ ، على الآلهة الأم و اسمها تعامة أو تيامات .. هذا الأمر أدى في أحد نتائجه إلى إعدام الآلهة أتباع تيامات ، من قِبَل مردوخ و أتباعه من الآلهة المنتصرة ، لتبدأ بعد ذلك عملية خلق الإنسان لكي يكون في خدمة هذه الآلهة المتعددة المتشعّبة إلى ألوان و أشكال و وظائف عدة .

طبعاً إن أسطورة الإينوما إيليش ، هي أسطورة طويلة كبيرة ، لكن تأثيرها في إنسان تلك الفترة القديمة ، لم يكن بسبب طول سردها و كثرة وقائعها و أحداثها ، بل كان بالدرجة الأولى عائداً إلى عوامل عدة ، أهمها ..

أولاً .. كونها أسطورة دينية عقائدية ذات شرائع دينية كانت ظاهرة بشكل مباشر أو غير مباشر .

ثانياً .. كونها تناولت مفهوم الآلهة و شرحت لظهورها و فسّرت له و من ثم ربطت بينه و بين الإنسان من حيث جعلته خاضعاً لتلك الآلهة المزعومة راضخاً لها و لمشيئتها غير المقَنْوَنة و المضبوطة .. إن جازت التسمية .

ثالثاً .. لم تُحَمِّل هذه الأسطورة ، النفس البشرية أعباء مضادات الأهواء و الشهوات و الميول السلبية .. كمنع الظلم و السرقة و الجنس المنفلت من عقاله و عقال الأخلاق و الآداب الاجتماعية .. بل يبدو أنها لم تأبه لذلك كله ، إذ كان جلّ همها و مجال اهتمامها ، هو خضوع الإنسان لرغبات الآلة المتعددة المزعومة ، و إرضائها بالأمور المادية و العينية ، من أموال و غلال و ذهب و فضة و غيرها ، بالإضافة إلى بناء المعابد لها و الانخراط ضمن نظام عبودي هرمي .

رابعاً .. ركزت هذه الأسطورة و غيرها من الأساطير ، بشكل كبير ملفت للنظر ، على قضية التشخيص و الأشخاص[١] و أسماء العَلَم .. سواء من آلهة أو بشر .. و أهملت بشكل عام جانب العمل و التشريع و الفضائل ، فبدت في وجه من وجوهها و كأنها سيرة ذاتية أكثر منها شرائع وأحكام دينية .

خامساً .. حرصت هذه الأساطير بشكل عام ، على إدراج وكلاء و وسطاء بين الناس و بين الآلهة المزعومة تلك ، كالكهان و رجال الدين و السحرة ، و لم تتطرق أبداً إلى قضية إرسال رسل أو أنبياء لتعليم الناس الدين و الشرائع و الأحكام الدينية ، لا بل لم تتطرق حتى إلى موضوع

---

[١] في هذا الشأن ، راجع كتابنا (الأشخاص و التشخيص في القرآن الكريم) .

هذه الشرائع و الأحكام و القوانين الإلهية ، بالرغم من كونها ذات طابع ديني في أساسها .

من خلال ما تقدم ، يمكن ببساطة ، الاستنتاج أن مثل هكذا أساطير ، كانت تعمل على إرضاء النخب الاجتماعية القيادية العليا من حكام و رجال دين و تجار ، في المجتمع و الدولة ، على حساب الطبقات الدنيا و الفقيرة في المجتمع ، بل و حتى المتوسطة منها ، و بالتالي فتحْ باب الظلم و الاستبداد و الاستعباد ، إلى جانب الكفر البحت إذ لا داعي للتنويه إلى عدد الآلهة الكبير الضخم ، من حيث عجّت هذه الأسطورة بآلاف مؤلّفة من هذه الآلهة ، شكّلت أساس و عماد متنها ، من بدايتها إلى نهايتها .

بناء على ما سبق جميعاً ، و إذا نظرنا في مجمل أساطير بلاد ما بين النهرين و ما اتصفت به من السمات المذكورة آنفاً ، ثم ربطنا ذلك كله مع الآية القرآنية التي تحدثت عن عوامل الحسد و البغي و مرض الأنفس ، في شق صف الإيمان بين البشر قديماً ، لتَبَدّت لنا الصورة جلّية واضحة في حقيقة كفر البشر آنذاك و فسقهم عن شرع الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .. إنه الأمر ذاته الذي يقدم لنا التفسير الكامل الواضح حول تشبث قوم نوح بكفرهم

و ثباتهم عليه و توعدهم نوحاً بالقتل أو الأذى حال لم يكف دعوته إلى الرحمن رب العالمين ، فيما بين ظهرانيهم .. كما يقدم لنا التفسير حول كثرة الكفار بشكل مرعب مشتمل على كل نواحي الحياة و الطبقات ، مع قلة من آمن بنوح و دعوته ، إلى كَمٍ لم يتجاوز البضع من الأشخاص أو الشرذمة القليلة من حيث اتسعت لهم سفينة واحدة .

إن ما سبق ، قد يقدم لنا أيضاً ، صورة عن أحد أهم الأسباب الأخرى في انتشار الكفر بالرحمن رب العالمين ، ألا و هي المتاع الدنيوي الزائف الزائل العاجل ، و هو ما ساقه إبليس في معرض رده على رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { قال رب بما أغويتني لأزَيّنن لهم في الأرض و لأغوينهم أجمعين (*) إلا عبادك منهم المخلصين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم (*) ثم لآتينهم من بين أيديهم و من خلفهم و عن أيمانهم و عن شمائلهم و لا تجد أكثرهم شاكرين } .

و أمام تلك الحقائق ، يبرز سببان أو عاملان أساسان لبداية حالة الكفر بالرحمن رب العالمين ، منذ تاريخ البشرية ، أسّسا لكل حالات الكفر فيما

بعد و ما تَفَرّع عنها من شرك و فساد و فسق و عصيان و ظلم و غير ذلك .. و هما .. الأمراض النفسية و المتاع الدنيوي الزائل .

لقد وصّف القرآن الكريم في مواضع عدة منه ، صفات الكافر و جعل من إحداها .. المرض النفسي ..

بسم الله الرحمن الرحيم { يخادعون الله و الذين آمنوا و ما يخدعون إلا أنفسهم و ما يشعرون (*) في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً و لهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (*) و إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون (*) ألا إنهم هم المفسدون و لكن لا يشعرون (*) و إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء و لكن لا يعلمون (*) و إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون (*) الله يستهزئ بهم و يمدهم في طغيانهم يعمهون (*) أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين } .

يتضح من الآيات آنفة الذكر صورة الأمراض النفسية التي يعيشها هؤلاء الكفار و التي ساقتهم إلى الكفر بالرحمن رب العالمين .. كما يتضح

اعتمادهم على الأساطير المنسوجة لهم ضلالاً و تضليلاً ، كتلك التي سادت و شاعت في بلاد الرافدين قديماً و تمسّكهم بها ، مع تركهم لعبادة الرحمن رب العالمين (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين) .

أيضاً يتضح من القرآن الكريم ، أن هذا الكفر و العداء الذي واجه به قوم نوح ، رسولهم ، بشكله الواسع ، قد اشتمل على خصال و حالات نفسية و عقلية و فكرية عدة ، منها الحسد و منها النفاق و منها الجهل ..

بسم الله الرحمن الرحيم { أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة و آتيناهم ملكاً عظيماً (*) فمنهم من آمن به و منهم من صد عنه و كفى بجهنم سعيراً } .

بسم الله الرحمن الرحيم { ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت و قد أمروا أن يكفروا به و يريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً (*) و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و نقلب أفئدتهم و أبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة و نذَرَهم في طغيانهم يعمهون (*) و لو أننا نزلنا إليهم الملائكة و كلمهم الموتى و حشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله و لكن أكثرهم يجهلون (*) و كذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين

الإنس و الجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً و لو شاء ربك ما فعلوه فذرهم و ما يفترون } .

ربما تفسر الآيات السابقة ، شيئاً من صلب ما نتكلم عنه و نورده من نتائج للكفر عند الأقوام القديمة البائدة و أولهم قوم نوح .. فتبين لنا عامل الجهل و الحسد و من ثم تأليف الأساطير المذكورة التي تخالف بالكلية و المطلق ، شرائع و أحكام الرحمن رب العالمين ، و هي (زخرف القول) الذي يوحونه بعضهم لبعض ، و من ثم يعتمدونه و يتمسّكون به جهلاً من عندهم و مرضاً ، و يحاربون كل من يأتيهم بخلافه ، حتى و لو كان من عند الله سبحانه و تعالى ، و يتوعدونه الأذى و الضرر .

و ما يدعم هذا الكلام القرآني نفسه و يكون مصداقاً عليه و شهيداً ، هو موضع آخر من القرآن الكريم جاء فيه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و هذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه و لتنذر أم القرى و من حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به و هم على صلاتهم يحافظون (*) و من أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي و لم يوح إليه شيء و من قال سأنزل مثل ما أنزل الله و لو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت و الملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم

اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق و كنتم عن آياته تستكبرون } .

إذن .. هنالك من يفتري تلك الأساطير التي تتحدث عن الآلهة و علاقتها مع الإنسان ، و ينسب ذلك إلى الله سبحانه و تعالى ، زوراً و بهتاناً ، و يحارب بها ما أنزل الله سبحانه و تعالى ، و من جاء بما أنزل الله سبحانه و تعالى .

و بالرغم من أن أسطورة الإينوما إيليش و مثيلاتها من أساطير بلاد ما بين النهرين ، لم تَعِد الإنسان بالجنة بعد الممات و لم تعِدَه بالخير و الثواب و الجزاء الطيب حال كان محسناً في أعماله و طاعته للآلهة الكثيرة المتعددة .. و بالرغم من أنها أوكلته في الخدمة و الإجهاد و التعب ، إلى الكثير الكثير من الآلهة التي تسومه الإذلال و سوء العذاب و المهانة من دون أدنى مبرر و من دون أدنى مكافأة ، فإنه رفض عبادة الرحمن رب العالمين الواحد الأحد الذي لا شريك له .. الرحمن الرحيم الغفور الشكور الرزاق ذو العطاء و الفضل الكبير ، و استكان لتلك الأساطير الضالة المضللة ، و هو ما يشهد عليه كلام نوح الرسول لقومه حين جادلهم مبشراً لهم من

الرحمن رب العالمين ، و في الوقت نفسه محذراً إياهم من شديد عذابه و بطشه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم (*) قال يا قوم إني لكم نذير مبين (*) أن اعبدوا الله و اتقوه وأطيعون (*) يغفر لكم من ذنوبكم و يؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { ثم إني أعلنت لهم و أسررت لهم إسراراً (*) فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً (*) يرسل السماء عليكم مدراراً (*) و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهاراً (*) ما لكم لا ترجون لله وقاراً (*) و قد خلقكم أطواراً } .

بسم الله الرحمن الرحيم { لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } .

إن هذه المقارنة الدينية الفكرية ، و حتى التاريخية ، تُظهِر لنا مفارقة غريبة ربما قد لا يكون لها من تفسير منطقي مبرِّر .. لكن و بالعودة إلى سياق ما تم ذكره سابقاً ، نجد أن لا مبرر سوى ما ساقة القرآن الكريم من عامل الجهل و عامل المرض النفسي .

لكن قد يبرز لنا أيضاً سبب آخر خفي يكون داعماً للسببين الأولين ، ألا و هو طلب رؤية الله سبحانه و تعالى ، من قبل البشر ، أو من وجه آخر مقابل ، هو عدم إمكانية رؤية الله سبحانه و تعالى .. و هي قضية قد تطرق إليها القرآن الكريم ، إذ جاء فيه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و أزلفت الجنة للمتقين غير بعيد (*) هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ (*) من خشي الرحمن بالغيب و جاء بقلب منيب (٣٣) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود } .

بسم الله الرحمن الرحيم { الذين يخشون ربهم بالغيب و هم من الساعة مشفقون (*) و هذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب و أقاموا الصلاة و من تزكى فإنما يتزكى لنفسه و إلى الله المصير } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصاعقة و أنتم تنظرون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرةً فأخذتهم

الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك و آتينا موسى سلطاناً مبيناً } .

يتبين لنا من سابق الآيات آنفة الذكر أن أحد أهم أسباب و عوامل دخول الجنة هو الإيمان بالله سبحانه و تعالى ، و تقواه ، من دون رؤيته عياناً ، فهذا بدوره أحد أهم عوامل الإيمان بالله سبحانه و تعالى .. كما يتبين لنا أحد أهم أسباب الكفر بالله سبحانه و تعالى ، هو عدم رؤيته عياناً .. و أحد أهم الأسباب التي تستوجب عقاب الله سبحانه و تعالى ، العاجل الفوري ، طلب رؤيته عياناً .. و لعل الآيتين التاليتين تبينان لنا أيضاً مصداق محجّة هذا الأمر ..

بسم الله الرحمن الرحيم { كلا إن الإنسان ليطغى (*) أن رآه استغنى } .

إن حضور الله سبحانه و تعالى ، عند الجاهل ، هو أمر حيوي ظاهرياً ليحسم أمره من الإيمان به و تقواه ، أم عدم الإيمان به و الانفلات على هواه .. و لهذه الأسباب كلها مجتمعة ، كانت الأساطير ذات الآلهة الكثيرة المتعددة المهملة لأمر الإنسان الحاضرة عياناً أمامه بواسطة الأصنام التي يعبدها ، هي البديل الأفضل بالنسبة له ، و هو ما يثبت مقولة القرآن الكريم في قوم نوح ..

بسم الله الرحمن الرحيم { قال نوح رب إنهم عصوني و اتبعوا من لم يزده ماله و ولده إلا خساراً (*) و مكروا مكراً كباراً (*) و قالوا لا تذرن آلهتكم و لا تذرن وداً و لا سواعاً و لا يغوث و يعوق و نسراً (*) و قد أضلوا كثيراً و لا تزد الظالمين إلا ضلالاً } .

لقد أدرك نوح الرسول هذا الأمر تماماً و وعاه خير وعي من حيث أنه بقي في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فخاطب ربه مشيراً إلى أساس و منبع الضلال و الكفر لديهم ، و من هنا أيضاً ، طالب نوحٌ ربَه أن يبيد الكفار عن بكرة أبيهم و لا يبقي على أحد منهم .. و لا تتضح خطورة هذا الكفر المرتبط بتلك الأساطير التي ذكرناها إلا عندما قال نوح لربه إنه إن ترك واحداً فقط من هؤلاء الكفار فإنه سيعيد الكفر كله من جديد كما كان ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دَيّاراً (*) إنك إن تذرهم يضلوا عبادك و لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً } .

في الواقع هي حقيقة مرعبة و ربما مؤلمة في آن معاً .. أن يكون الكفر منذ آلاف السنين ، على هذه الدرجة من الثبات و الشمول و القوة ؟؟؟!!! و أن يصل أمره إلى حالة من الاستفحال و الطغيان بحيث لا ينفع معه نصح الناصحين و لا وعظ الواعظين ؟؟؟!!! و أن يطلب رسول الله سبحانه و

تعالى ، من الله سبحانه و تعالى ، أن يبيد هؤلاء القوم و يستأصلهم عن بكرة أبيهم .. كيف لا ؟؟!! و قد آمنوا و استكانوا و ركنوا إلى أساطير عرضت عليهم آلافاً مؤلفة من الآلهة ذات الأهواء و الميول المتنازعة المختلفة و ذات الصفات البشعة القبيحة من قتل و غدر و خبث و خيانة و نفاق فيما بين بعضها البعض .. و السبب في ذلك كله ، هو الأمراض النفسية و الجهل و الضلال الأسطوري المؤسس للقهر و الظلم و الاستعباد ، ناهيك عن الكفر أصلاً .. كيف لا ؟؟!! و عبادة الإله الأحد الواحد الرحمن رب العالمين ، التي جاء بها الرسول نوح إليهم و دعاهم إليها ، تنفي كل تلك الأساطير الكاذبة الضالة المضللة و تلغي كل أشكال المنفعة المادية الفردية البحتة ، و التسلط و الظلم و الاستعباد و أكل الحقوق و اغتصابها ، و تزيل كل أشكال التفاوت الطبقي الاجتماعي و الديني .

رفض الملأ من قوم نوح ، دعوته إلى عبادة الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، لأنها تزيل سلطتهم على الشعب و عوام جمهوره ، و تزيل نظام كهانتهم و منظومته كافة ، القائم على القهر و الظلم .

في عودة ذِكرٍ و تمحيص ، نرى أن القرآن الكريم قد ذَكر كلمة (الملأ) حين تناول قوم نوح في آياته .. و كلمة الملأ تعني ، عَلّية القوم و وجهائهم و أصحاب الرياسة فيهم ، من مال و دين و حكم و قول .. أي باختصار ، هم أصحاب المراكز العليا في الدولة و المجتمع .. و هؤلاء الفئة ، في المنطوق القرآني ، ليس لديهم أدنى استعداد للتنازل عن امتيازاتهم الطبقية و النخبوية ، و هم على استعداد لمحاربة أي فكر كان ، يهدد امتيازاتهم المالية و مراكزهم الاجتماعية و الدينية ، حتى و لو كان من الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .

إن الذي يثبت فكرة الملأ في القرآن الكريم و تشبثهم بمواضعهم تلك ، هو مقارنتهم بمن هم دونهم في المجتمع أو في المكانة الاجتماعية و الدينية و المالية ، و هو أمر عَبّر عنه القرآن الكريم في كلمة (أراذلنا) ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين (*) أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم (*) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا و ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي و ما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين } .

لقد قرن الملأ من قوم نوح أنفسهم ، بالنقيض من أراذل المجتمع و اعتبروا أن مجرد وجودهم معهم و مساواتهم بهم ، هو أمر كاف للإطاحة بكل امتيازاتهم و مكاسبهم ، فكيف إذا اجتمع ذلك مع نقض كل أساطيرهم المختلَقَة المفتراة ظلماَ و زوراً و بهتاناً و التي تهيّئ لهم كل مكاسبهم تلك ، شرط أن يكفروا بالرحمن رب العالمين ؟؟!! .

إن كل ما سبق و سِيقَ ، كان هو النواة الصلبة القوية التي شكلت الكفر و الإلحاد في العالم جميعاً و الذي ما زال مستمراً إلى يومنا هذا ، قوياً مستفحلاً بوتيرة متواترة متراكمة .

أتى أمر الرحمن رب العالمين ، بالبطش و العذاب و العقاب ، فجاء الطوفان و أباد القوم جميعاً و لم ينج منهم إلا مَن ركب السفينة مع نوح و هم الذين آمنوا به و بدعوته و صدّقوه .

إذن .. فإن قوم نوح و بموجب ما ذكره القرآن الكريم ، هم من أقوام السوء البائدة .. و هم أول من أسس للكفر بالرحمن رب العالمين ، و جعل

العماد للفسق عن أوامره و نواهيه ، و كان البداية و المعدن الأساس لكل من تلاهم و جاء بعدهم من أقوام سوء .

و تأتي الآية القرآنية التالية ، لتبرز لنا شيئاً مما يدعم مقولة ، العامل النفسي المريض ، الذي كان له دور كبير فعال في الكفر بالرحمن رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و نفس و ما سواها (*) فألهمها فجورها و تقواها (*) قد أفلح من زكاها (*) و قد خاب من دساها } .

و إلا .. فما الذي يجعل الإنسان ينقاد إلى أساطير ذات أفكار شاذة عن الطبيعة الإنسانية و الفطرة البشرية ، و يتمسك بها و يدعو إليها و يدافع عنها مستقتِلاً و ينافح عقائدياً عنها بالذَودِ و المُهَجْ ، إلا أن يكون هو نفسه شاذ عقلياً معاق ذهنياً ؟؟!! .

قوم عاد

ورَدَ ذكر قوم عاد في القرآن الكريم ، كثاني قوم كفروا بالرحمن رب العالمين ، من بعد قوم نوح ، و فسقوا عن أحكامه و شرائعه ، و كان رسولهم هو هود الذي ذكره القرآن الكريم و قومه ، في مواضع عدة منه ، و بَيّنَ طريقة كفرهم و أسلوب فسقهم و عوارهم .

و قبل أن نتكلم عن قوم هود أو عاد ، لا بد لنا من أن نبين أن القرآن الكريم قد أنبأ إنه بعد هلاك قوم نوح و زوالهم تماماً ، سوف يأتي من بعدهم أقوام كُفْرٍ آخرين ، مِن نفس سلالة مَن آمن مع نوح و ركب سفينته ، و أن هذا سوف يكون من إنباء الله سبحانه و تعالى ، لنوح بذلك ..

بسم الله الرحمن الرحيم { قيل يا نوح اهبط بسلام منا و بركات عليك و على أمم ممن معك و أمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم (*) تلك

من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت و لا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين } .

تخبر الآيتان آنفتا الذكر أن هنالك ذرية ممن آمن بنوح و كانوا معه في الفُلك ، سوف يكفرون بالرحمن رب العالمين ، و يكونون لدّاً عليه ، و هي نتيجة تقود منطقاً ، إلى أن عامل الكفر بالرحمن رب العالمين ، و الفسق عن شرائعه مرهونان كما ذكر سابقاً ، بالنفس البشرية و أمراضها ، و بالحياة الدنيا و إغرائها و متاعها ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و نفس و ما سَوّاها (*) فألهمها فجورها و تقواها (*) قد أفلح من زكاها (*) و قد خاب من دساها } .

بسم الله الرحمن الرحيم { قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض و لأغوينهم أجمعين (*) إلا عبادك منهم المخلصين (*) قال هذا صراط علي مستقيم (*) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين } .

إن ما سبق من الآيات ، ينذر بأنه حتى و لو تم إبادة قوم فسق و كفر ، و إهلاكهم جميعاً ، فإن هذا لا يعني بالضرورة أن من سيأتي بعدهم ، سوف

يكون على أحسن حال من الإيمان و أصلَحُ هيئة من تقوى الله سبحانه و تعالى . بل ربما يكون على هيئة أسوأ ممن كان قبلهم من أقوام سوء .

لقد ورد ذكر هود و قومه في القرآن الكريم في مواضع عدة ، هي ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و إلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون (*) قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة و إنا لنظنك من الكاذبين (*) قال يا قوم ليس بي سفاهة و لكني رسول من رب العالمين (*) أبلغكم رسالات ربي و أنا لكم ناصح أمين (*) أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم و اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح و زادكم في الخلق بسطةً فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (*) قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده و نذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (*) قال قد وقع عليكم من ربكم رجس و غضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين (*) فأنجيناه و الذين معه برحمة منا و قطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا و ما كانوا مؤمنين } .

تتحدث الآيات آنفة الذكر ، عن إرسال الله سبحانه و تعالى ، رسوله هود إلى قومه (عاد) الذين استشرى الكفر فيهم .. فيقوم هود الرسول بدعوة قومه إلى عبادة الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده

لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .. لكن النخبة و الرياسة من قوم هود ، شأنهم شأن قوم نوح ، يرفضون دعوة هود الرسول لهم و يرمونه بالكذب و الجنون .. فيرد عليهم هود بالحجج العقلية و الدلائل المنطقية و يبرهن لهم وجود الله سبحانه و تعالى ، إلهاً واحداً أوحداً أحداً ليس له شريك و لا يقبل له بشريك ، و يتوجب عليهم عبادته و تقواه و تطبيق جميع تعاليمه بحذافيرها .. و يخبرهم هود إنه لا يعدو كونه مجرد رسول إليهم من الرحمن رب العالمين ، و واجبه هو فقط إيصال الرسالة إليهم ، ثم يستهجن منهم استغرابهم من كونه رسول إليهم يدلي لهم بالحجج و البراهين .

هنا تبرز إشارة قوية إلى حضور قوم نوح و تأثير بقايا عقائدهم الكفرية ليعاد استنباتها لدى قوم هود ، من حيث يقوم هود الرسول بتذكير قومه تلميحاً و بشكل غير مباشر ، إلى عاقبة قوم نوح و نتيجة كفرهم بالرحمن رب العالمين .. إذن فالعبرة كانت موجودة و كذلك الأفعال و الأعمال و عواقبها ، كله كان مُستحضَراً أمام عاد قوم هود .

هنا أيضاً تبرز قضية على جانب كبير من الأهمية و هي .. قوم يكفرون بالرحمن رب العالمين و يفسقون عن أوامره و نواهيه و شرائعه ، بالرغم من

علمهم بكفر القوم الذين كانوا قبلهم ، و بالرغم من وجود رسول إليهم من قِبَل الرحمن رب العالمين ، يبشرهم و يحذرهم .

و هنا أيضاً تبرز قضية جديدة بالملاحظة ، و هي رد الملأ من قوم هود ، عليه إذ قالوا (أجئتنا لنعبد الله وحده و نذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) .. و هذا الكلام يبين أن عاداً قوم هود ، كانوا يعرفون الله سبحانه و تعالى كإله (كونهم ذرية من آمن مع نوح) ، لكنهم كانوا مشركون به آلهة أخرى (دخول عقائد ضلال إليهم) ، و أنهم لم يعترضوا على عبادة الله سبحانه و تعالى ، لكنهم رفضوا إخلاص الدين له ، و ذلك على خلاف قوم نوح الذين رفضوا عبادة الله سبحانه و تعالى ، البتة و أصروا على آلهتهم المزعومة ، بديلاً عنه .. و ما يُستنتَج من هذا الكلام ، هو ظهور مفهوم الشرك لأول مرة .

بسم الله الرحمن الرحيم { كذبت عاد المرسلين (*) إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون (*) إني لكم رسول أمين (*) فاتقوا الله و أطيعون (*) و ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (*) أتبنون بكل ريع آيةً تعبثون (*) و تتخذون مصانع لعلكم تخلدون (*) و إذا بطشتم بطشتم جبارين (*) فاتقوا الله و أطيعون (*) و اتقوا الذي أمدكم بما

تعلمون (*) أمدكم بأنعام و بنين (*) و جنات و عيون (*) إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (*) قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين (*) إن هذا إلا خلق الأولين (*) و ما نحن بمعذبين (*) فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآيةً و ما كان أكثرهم مؤمنين (*) و إن ربك لهو العزيز الرحيم } .

يُبرز آنف الآيات ، قضية اختصاص قوم هود ، بصنعة معينة و هي البناء أي أنهم كانوا بنّائين ، و ذلك أيضاً على خلاف قوم نوح الذين لم يُذكر لهم اختصاص أو صنعة .. كما تُبرِز تلك الآيات أن عاداً قوم هود كان لهم جيش و نظام جند ، و كانوا يمارسون عمليات الغزو و احتلال مناطق مجاورة لهم ، على ما يبدو .. كذلك الأمر كان خلافاً لما هو الحال عليه عند قوم نوح الذين لم يُذكَر لهم شيء من هذا أبداً .

و تدل الآيات أيضاً على تمسك قوم هود بشركهم بالرحمن رب العالمين ، و رفضهم أي نقاش حول ذلك الأمر ، فكان أن عاجلهم الله سبحانه و تعالى ، بالعقاب الذي أفناهم و لم تقم لهم قائمة بعدها .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون (*) يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن

أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون (*) و يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً و يزدكم قوةً إلى قوتكم و لا تتولوا مجرمين (*) قالوا يا هود ما جئتنا ببينة و ما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك و ما نحن لك بمؤمنين (*) إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله و اشهدوا أني بريء مما تشركون (*) من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون (*) إني توكلت على الله ربي و ربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم (*) فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم و يستخلف ربي قوماً غيركم و لا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ (*) و لما جاء أمرنا نجينا هوداً و الذين آمنوا معه برحمة منا و نجيناهم من عذاب غليظ (*) و تلك عاد جحدوا بآيات ربهم و عصوا رسله و اتبعوا أمر كل جبار عنيد (*) و أتبعوا في هذه الدنيا لعنةً و يوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود } .

ما يبدو من آنف الآيات ، أن قوم هود ، كان لديهم شيء من المنطق في التعاطي مع رسولهم هود ، بالرغم من أنه منطق أعوج غير سليم ، إذ أنهم جادلوا هوداً بمعجزة أو برهان يريهم إياه ، يثبت لهم فيه أنه لا إله إلا الله سبحانه و تعالى ، و جادلوه بأنه يمكن أن تكون بعض آلهتهم المزعومة قد تسببت بإيذائه ، و لهذا فإنه يريد لهم أن يكفروا بها و يهجروها إلى عبادة الرحمن رب العالمين .. فالقضية هنا هي قضية شرك أكثر منه كفر بتّة .

بسم الله الرحمن الرحيم { فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق و قالوا من أشد منا قوةً أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوةً و كانوا بآياتنا يجحدون (*) فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا و لعذاب الآخرة أخزى و هم لا ينصرون } .

تبرز الآيتان السابقتان ، قضية جديدة في عاد قوم هود ، و هي التكبر و التجبر في الأرض من دون وجه حق .. و قد عزَوا ذلك إلى كونهم أقوياء ، ففسقوا بذلك عن أمر الله سبحانه و تعالى ، فما كان من نتيجة ذلك إلا أن عاجلهم الله سبحانه و تعالى ، بالعقاب المهلك ، و هو هنا الريح العاصفة القوية أو الإعصار المدمر .

بسم الله الرحمن الرحيم { و اذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه و من خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (*) قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (*) قال إنما العلم عند الله و أبلغكم ما أرسلت به و لكني أراكم قوماً تجهلون (*) فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم (*) تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين (*) و لقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه و جعلنا لهم سمعاً و أبصاراً و أفئدةً فما

أغنى عنهم سمعهم و لا أبصارهم و لا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله و حاق بهم ما كانوا به يستهزئون } .

في الآيات آنفة الذكر ، هود الرسول ينذر قومه و ينهاهم عن الإشراك بالرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، و يطلب منهم ألا يعبدوا إلا إياه وحده لا شريك له أو معه في شيء ، لكنهم يرفضون فكرة التوحيد الإلهي تماماً و يصرون على التمسك برموزهم الشركية مع الله سبحانه و تعالى ، فكان أن عاجلهم الله سبحانه و تعالى ، بالإعصار المدمر الذي أهلكهم و أفناهم عن آخرهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { و أما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية (*) سخرها عليهم سبع ليال و ثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (*) فهل ترى لهم من باقية } .

هذا تصريح قرآني واضح على فناء قوم هود و عدم استمرار وجودهم بعد العقاب الرباني المهلك .

يُظهِر سابق الآيات في هذا المبحث ، صورة نمطية مشابهة تقريباً لصورة قوم نوح .. فقوم عاد كفروا بالله سبحانه و تعالى ، لكن كفرهم كان عبارة عن الشرك بالله سبحانه و تعالى ، و هو مفهوم جديد لم يكن موجوداً في عهد قوم نوح .. فقوم هود كانوا يعرفون الله سبحانه و تعالى و يعبدونه ، لكنهم كانوا يشركون به رموزاً دينية أخرى .

و قوم هود قد تميزوا عن قوم نوح أيضاً بأن لهم صفة أو لقب أو ربما اسم قبلي ، و هو (عاد) في حين لم يًذكر لقوم نوح أي اسم أو صفة أو لقب في القرآن الكريم .

كما اتصف عاد قوم هود ، بصفة القوة و المنعة اللتين لم تُذكرا لقوم نوح في القرآن الكريم ، و هذا لا يعني بالضرورة أن قوم نوح كانوا ضعفاءً ، لكن هو دلالة على أن قوم عاد قد اختُصّوا بالقوة و المنعة (يرسل السماء عليكم مدراراً و يزدكم قوةً إلى قوتكم) و ذلك بسبب عوامل جديدة هي عوامل الصناعة و الحرفة و البناء ، إلى جانب عاملي الزراعة و الأرض

الخصبة .. و تلك العوامل جميعاً ، قادتهم إلى مفهوم كفري جديد لم يكن موجوداً من قبل في الأقوام التي سبقتهم ، ألا و هو الاستكبار .

يدل القصص القرآني الذي تناول عاداً قوم هود ، على قضايا عدة ذات دلالات تاريخية و دينية عقائدية في الوقت نفسه ..

القضية الأولى .. تطوُّرُ الكفر أو حالات الفسق و عصيان الرحمن رب العالمين ، قديماً ، من الأمراض النفسية التي كانت هي الأساس و الداء العضال من حيث نتج عنها الكفر البحت ، و من ثم تطورَ الكفر البحت إلى الشرك أو انبثق عنه الشرك بطريقة من الطرق و من ثم شكّلا فيما بينهما ثنائياً منفصلاً و ثنائياً مُدمجاً .. أُضيفَ إليهما عاملاً جديداً هو الاستكبار .

القضية الثانية .. إن الظاهر من سياق الآيات القرآنية ، هو أن تطور الكفر البشري من حالة المرض النفسي إلى حالة الشرك ، كان مترافقاً مع تطور المجتمعات و الأقوام .. بدءاً من حالة المشاعة مروراً بنظام الجماعة و المجتمع الزراعي البسيط نوعاً ما ، إلى حالة بداية المجتمع ذي الدولة و التنظيم الإداري و ذي الصناعة و الزراعة .

القضية الثالثة .. دوام حالة الكفر بأنواعها المتعددة .. أمراض و عقد نفسية .. كفر بتة .. شرك .. و السبب الذي عزّزَ ذلك الكفر ، هو مفهوم الاستكبار الذي كان مفهوماً جديداً ارتبط ظهوره و وجوده ، بالتطور الحضاري و الفكري الزمني لدى تلكم الأقوام .

إن مفهوم الاستكبار الذي ظهر لأول مرة عند قوم هود ، يعني في حيثياته و مضمونه ، الخداع و الغرور .. و قد تزامن مع ظهور عامل القوة و المنعة أيضاً لأول مرة عند قوم هود .. فوَهم القوة ، و الغرور بمداهما الخادع ، هما اللذان يقودان المرء و المجتمع إلى الاستكبار بغير الحق و التوهم بأنه لا يمكن هزيمتهم و لا يمكن أن ينال منهم أحد ، و هو ما عبّر عنه القرآن الكريم في مواضع عدة منه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و كانوا أشد منهم قوةً و ما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات و لا في الأرض إنه كان عليماً قديراً } .

بسم الله الرحمن الرحيم { أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوةً و آثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم و ما كان لهم من الله من واق (*) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب } .

تتحدث الآيات السابقة عن أقوام لاحقة ، غَرّتهم أنفسهم و ظنوا غروراً القوة بها .. تلك القوة التي توهموا أنها تغنيهم عن الله سبحانه و تعالى ، فأنبأهم الله سبحانه و تعالى ، إنه كان هناك من هو أقوى منهم و أشد منعة ، فأهلكهم الله سبحانه و تعالى بالعقاب العاجل الذي أفناهم عن آخرهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا و لا يغرنكم بالله الغَرور } .

هي أية تحذيرية شديدة اللهجة ، تحذر الناس من وهم القوة و العلم و التصرف من دون أمر الرحمن رب العالمين ، و من دون مشيئته و شرائعه ، و أن هنالك من سيعمل على إفشاء الغرور و الوهم فيهم ، عن طريق متاع الحياة الدنيا الذي سيظنون أنهم هم من خلقه و سيطر عليه من دون الله سبحانه و تعالى . تماماً كما يحصل اليوم مِن ظن الناس أن هذا التقدم العلمي الهائل إنما هو من الإنسان نفسه و ليس من الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .. و هو ما قادهم اليوم إلى الكفر و الإلحاد .. تماماً كما حصل في الماضي مع الأقوام السالفة .

و هذا الاستكبار سببه الغرور الذي منشأه هو الأمراض النفسية التي ذكرناها سابقاً و التي كانت السبب في كل ما حصل من قبل و ما يحصل الآن من تخريب و شرك و فساد و فسق و كفر و غيره .. كيف لا و هي السبب في أن يقتل أخُ أخيه من دون مبرر و من دون وجه حق ، سوى أن الله سبحانه و تعالى ، قد تقَبّل قربان هذا الأخ و لم يتقبل قربان الآخر ؟؟؟!!! علماً أن المقتول لا علاقة له و لا ذنب في ذلك أبداً ..كيف لا و قد كان الغرور هو الأداة الأولى التي استخدمها الشيطان في جعل آدم و زوجه يعصيان الله سبحانه و تعالى ، بالأكل من الشجرة المحرمة ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما و قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (*) و قاسمهما إني لكما لمن الناصحين (*) فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة و ناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة و أقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين (*) قالا ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين } .

إن الاستكبار الناتج عن الغرور ، قد يفسر لنا آلية الكفر أو الشرك لدى أقوام السوء في القرآن الكريم .. فالاستكبار هو ظن السوء و الوهم في

النفس ، أنها قادرة على العمل و الفعل المرتبطان بالمشيئة البشرية ، من دون الحاجة إلى الرحمن رب العالمين ، يصل فيها حال المرء إلى الكفر بالرحمن رب العالمين أو الشرك به ، تماماً كما هو آدم حينما عصى الرحمن ربه و أكل من الشجرة المحرمة عليه ، ظانّاً في نفسه ظن السوء و الوهم لكنه لم يصل إلى درجة الكفر أو الشرك ، بل أقرَ هو و زوجه بذنبهما فوراً و استغفرا ربهما فكان أن تاب عليهما الرحمن رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد و ملك لا يبلى (*) فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة و عصى آدم ربه فغوى (*) ثم اجتباه ربه فتاب عليه و هدى } .

و تبعاً لذلك كله فإن الاستكبار الناتج عن الغرور الناتج بدوره عن المرض النفسي الكامن ، يجعل من المرء يظن أنه بمعزل عن الرحمن رب العالمين و أنه لا ضير في التصرف كما يحلو له .. يختلق آلهة من عنده يعبدها من دون الرحمن رب العالمين (و العياذ بالله) .. يختلق آلهة من عنده يشركها مع الرحمن رب العالمين .. يفسق عن أمر الرحمن رب العالمين .. الخ .

هذه الحالات آنفة الذكر ، تسمى في القرآن الكريم .. الطغيان .. و هي أيضاً ناتجة في منتهاها عن المرض النفسي الكامن في النفس البشرية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { كلا إن الإنسان ليطغى (*) أن رآه استغنى } .

و **السؤال** المُلِحّ الذي يطرح نفسه هنا ، هو .. هل كان آدم أبو البشر طاغياً أو مريض نفسياً عندما أكل من الشجرة المحرمة ؟؟؟!!! .

الجواب هو .. كلا لم يكون أبونا آدم كذلك ، لأن هنالك حالة استثنائية كانت موجودة في تلك الحادثة ، ألا و هي حالة الخداع من قبل الشيطان حين أقسم لهما أنه صادق في كلامه معهما و أنه ناصح لهما و يريد الخير (و قاسمهما إني لكما لمن الناصحين) فآدم و زوجه تعرّضا لعملية خداع كبيرة و لم تكن فيهما خصال النفس المريضة قبل أن يأكلا من الشجرة ، و لكن بعد الأكل من الشجرة المحرمة ، ربما دخل إليهما شيء من ذلك و منهما انتقل إلى ذريتهما و كان هذا بداية العلل و الأمراض النفسية التي تفشت فيما بعد في العنصر البشري جميعاً ، و ربما كان هذا هو السبب الذي جعل الرحمن رب العالمين ، يمنع آدم و زوجه من الأكل من تلك الشجرة ، ثم بعد ذلك يقوم بإخراجهما من الجنة لأنه لا يجوز أن يكون في الجنة مرضى نفسانيين و معاقين ذهنياً ، و هو ما دلّل عليه القرآن الكريم في مواضع عدة منه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون (*) و نزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار و قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا و ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق و نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { ادخلوها بسلام آمنين (*) و نزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين } .

الغل هو الحقد و الحسد المكبوت المكتوم ، و هو كذلك النقمة من المظلوم على الظالم ، لكن حتى هذه النقمة لا يقبل بها الله سبحانه و تعالى ، في الجنة بل ينزعها من قلوب المؤمنين ، حتى و إن كانوا على حق بها .

بسم الله الرحمن الرحيم { إن للمتقين مفازاً (*) حدائق و أعناباً (*) و كواعب أتراباً (*) و كأساً دهاقاً (*) لا يسمعون فيها لغواً و لا كذاباً (*) جزاءً من ربك عطاءً حساباً } .

بسم الله الرحمن الرحيم { جزاءً بما كانوا يعملون (*) لا يسمعون فيها لغواً و لا تأثيماً (*) إلا قيلاً سلاماً سلاماً } .

اللغو و الكذب هما من نتاج الأمراض النفسية و بالتالي لا يجوز لمن اتصف بهما أن يكون موجوداً في الجنة .

بسم الله الرحمن الرحيم { و نادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها و هم يطمعون } .

الطمع هو من أشد الأمراض النفسية عتوّاً ، و هو سبب كل فسق و شرك و حتى كفر صريح بواح ، بل هو سبب الفساد .. و ما من سبب للحروب و الفساد في الأرض و التخريب إلا و كان أساسه الطمع في متاع الدنيا .

و لذلك ، و بناءً على ما سبق ، فإن عاداً قوم هود ، كان أساس كفرهم بالرحمن رب العالمين ، القائم على شركهم به آلهة زائفة مختلقَة من عندهم ، كان اغترارهم بقوتهم و تكلّفَهم إياها من حيث ظنوا جهلاً و ضلالاً أنها مانعتهم من الله سبحانه و تعالى ، فساروا على هواهم الظني المريض نفسياً باختلاقهم آلهة على هواهم تحل لهم ما يشاؤون من دون الرجوع إلى شريعة الرحمن رب العالمين التي تمنعهم من أن يسيروا على هواهم القائم على ظلم الناس ، فكانوا بذلك ، في حالٍ يشابه حال قوم نوح من حيث التشبث بالآلهة المزعومة إذ قالوا (لا تذرن آلهتكم و لا تذرن وداً و لا سواعاً و لا

يغوث و يعوق و نسراً) و كذا الحال مع عادٍ قوم هود إذ قالوا (يا هود ما جئتنا ببينة و ما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك و ما نحن لك بمؤمنين) و قالوا (أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) .

هذا الأمر بدوره يقودنا إلى قضية خطيرة جداً ، و هي أن الإنسان إن توهم في نفسه القوة الزائفة ، فإنه باللاشعور يبحث لنفسه عن آلهة أخرى من دون الرحمن رب العالمين ، تكون طوع أمره هو ، فهو باللاشعور الواعي ، يريد أن يتفوق على الإله (و العياذ بالله) .. يريد أن يثبت لنفسه أنه أقوى من الإله و أن لا علاقة للإله بكل ما تَحَصَّل عليه هذا الإنسان من مكامن القوة و العلم .. هذا هو لب و أُسّ القضية للأسف الشديد .. و هذه القضية كلها ، مصداقها الآية القرآنية التالية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { أفرأيت من اتخذ إلهه هواه و أضله الله على علم و ختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوةً فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين (*) و لو شئنا لرفعناه بها و لكنه أخلد إلى الأرض و اتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه

يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون } .

هذه الآية تعود بنا مرة أخرى إلى عامل المرض النفسي و الذهنية المريضة المعاقة .. فالشخص الذي يختلق آلهة من عقله ، من دون الرحمن رب العالمين ، هو مختوم على عقله و على أذنيه و عينيه ، و مَثله أسوأ من مَثل الكلب .. إذ أنه و بعد كل هذه الدلائل و البراهين العقلية و العلمية و المنطقية الدالة دلائل مباشرة على وجود الرحمن رب العالمين ، إلهاً أحداً أوحداً واحداً لا شريك له في شيء أو من شيء ، يأتي من يختلق آلهة زائفة مزعومة من عنده ليصل بها إلى مراده في هذه الدنيا الزائلة العاجلة الفانية ، فما يكون هذا ؟؟!! .

بالعودة إلى سياق الآيات القرآنية التي تناولت حال قوم نوح و قوم هود ، يتضح لنا أن اختلاق الآلهة المزعومة و التشبث بها و الذَود عنها بالأرواح و المُهَج ، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمتاع الحياة الدنيا و مرتبط بالفكر الضلالي الزائف .. فقوم نوح لم يكن لديهم تلك الصناعات و الحِرف و القوة التي كانت لدى قوم هود ، لكن كان لديهم أساطير قوية ذات تأثير عاطفي نفعي متوافق مع متاع الحياة الدنيا ، بينما قوم هود لم يُذكَر لهم أساطير

عقائدية زائفة تقودهم نحو الضلال و الفسق عن شرع الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، لكن كان لهم تلك القوة العسكرية أو الجمعية و لهم مقدرات الصنعة و الحرفة التي بدورها تقودهم نحو متاع الحياة الدنيا و تغريهم به ، و هو بدوره يقودهم نحو الضلال و الفسق عن شرع الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .. و لا أدَلُّ على هذا الأمر ، من الآية القرآنية التي تصف قوم عاداً هود و هم في أوج قوتهم ، بمشهد رهيب مهيب ..

بسم الله الرحمن الرحيم { ألم تر كيف فعل ربك بعاد (*) إرمَ ذات العماد (*) التي لم يخلق مثلها في البلاد } .

هو الغرور القاتل الذي يقود إنسان ضعيف مخلوق من قِبَل الرحمن رب العالمين ، يصل إلى مراتب من العلم و القوة و الإبداع ، بما آتاه إياه الرحمن رب العالمين ، إلهه و ربه و خالقه الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، فينسى الرحمن رب العالمين و يظن في نفسه ظنون الهوى و الوهم ، الغرّارة الغوّالة القاتلة .

و لا يكمل هذا الكلام إلا الآية القرآنية التالية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق و قالوا من أشد منا قوةً أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوةً و كانوا بآياتنا يجحدون } .

إذن .. فالاستكبار من دون خشية الرحمن رب العالمين ، و تقواه ، هو الجهل و المرض النفسي و الغباء بعينه .

كذا الأمر ، يتضح لنا مما سبق ، علاقة جدلية ذات صفة تبادلية أو عكسية ، أي أن الطمع في هذه الحياة الدنيا و طلب متاعها ، لا بد له من مبرر شرعي بديل عن شرع الرحمن رب العالمين ، الذي يأمر بالعدل و المساواة و عدم الظلم و كنز المال و غيره ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و نزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء و هدًى و رحمةً و بشرى للمسلمين (*) إن الله يأمر بالعدل و الإحسان و إيتاء ذي القربى و ينهى عن الفحشاء و المنكر و البغي يعظكم لعلكم تذكرون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و الذين يكنزون الذهب والفضة و لا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم (*) يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى

بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون } .

جاء أمر الرحمن رب العالمين ، و وقع العذاب و العقاب على قوم هود بإعصار هائل مدمِّر أفناهم عن آخرهم فكانوا من الأقوام البائدة الهالكة .

ثمود

ثمود هم من أقوام السوء الذين جاءوا في المرتبة الثالثة بعد قوم نوح ، و بعد عاد .. أما رسولهم من الرحمن رب العالمين ، فكان اسمه صالح .

و قد تميزت ثمود عن غيرها ممن سبقها من أقوام السوء ، بأنهم أول قوم سوءٍ تأتيهم معجزة من الله سبحانه و تعالى ، لكنهم كفروا بها بل و أساؤوا التصرف معها ، فكان أن عاجلهم الله سبحانه و تعالى ، العقاب و العذاب و أفناهم عن آخرهم ، فهم إذن من الأقوام البائدة الذين انقطع دابرهم و لم يعد لهم وجود و امتداد ، شأنهم شأن عاد قوم هود ، و من قبلهم قوم نوح .

لقد ورد ذِكر ثمود ، قوم صالح ، في مواضع عدة متفرقة في القرآن الكريم و هي ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و أنه أهلك عاداً الأولى (*) و ثمود فما أبقى } .

هي دلالة على فناء عاد و ثمود و انقراضهما .

بسم الله الرحمن الرحيم { كذبت ثمود بطغواها (*) إذ انبعث أشقاها (*) فقال لهم رسول الله ناقة الله و سقياها (*) فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها (*) و لا يخاف عقباها } .

تشير الآيات إلى أول معجزة إلهية ربانية لأقوام السوء في القرآن الكريم ، و إلى أن ثمود قد أساءوا التصرف مع هذه المعجزة الربانية ، فكان أن أهلكهم الله سبحانه و تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم { كذبت ثمود بالنذر (*) فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال و سعر (*) أؤلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر (*) سيعلمون غداً من الكذاب الأشر (*) إنا مرسلو الناقة فتنةً لهم فارتقبهم و اصطبر (*) و نبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (*) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (*) فكيف كان عذابي و نذر (*) إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كهشيم المحتظر } .

هنا في آنف الآيات يظهر حدث جديد عما سبق من أقوام السوء ، إذ يستنكر قوم صالح أن يأتيهم شخص بشري مثلهم تماماً ليدعوهم إلى عبادة

الرحمن رب العالمين ، و استنكروا أيضاً أن يكونوا أتباعاً لشخص واحد مثلهم ، متسائلين لماذا اختُصَّ هو وحده بالرسالة و لم يُختص بها أحداً منهم باعتبارهم أكابر القوم و ملأهم ؟؟!! .. و بناءً عليه ، يتهمون رسولهم بالكذب الوقح .

و هنا يقوم الرحمن رب العالمين ، بإرسال أول معجزة لهم و هي الناقة (قيل في بعض المرويات إنها كانت حجر فتحولت إلى ناقة حية) و ذلك لكي يدحض ادعاءهم و استنكارهم أن تأتيهم رسالة الله سبحانه و تعالى ، عن طريق بشر مثلهم .. و يطلب الله سبحانه و تعالى ، من رسوله صالح أن يخبرهم أن الماء مقسوم بينهم و بين تلك الناقة ، و أن يراقبهم في تصرفاتهم و ردة أفعالهم .. لكن ثمود ما لبثوا أن كلفوا أحد رجالهم بقتل الناقة ، فكان أن صب الله سبحانه و تعالى ، عليهم العقاب المدمِر المهلِك .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آيةً فذروها تأكل في أرض الله و لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم (*) و اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد و بوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً و تنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله و لا تعثوا في الأرض

مفسدين (*) قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون (*) قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون (*) فعقروا الناقة و عتوا عن أمر ربهم و قالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين (*) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (*) فتولى عنهم و قال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي و نصحت لكم و لكن لا تحبون الناصحين } .

تبين الآيات السابقة ، منحىً جديداً في العلاقة بين صالح و قومه ، ألا و هي تذكير صالح لقومه بقوم عاد الذين سبقوهم ، و تحذيره لهم من عقاب إلهي رباني مشابه للعقاب الذي وقع بقوم عاد و أبادهم عن بكرة أبيهم بحيث لم تقم لهم قائمة بعدها .

و القضية الثانية المستجِدّة في ثمود قوم صالح ، هي قضية الفساد و التخريب التي ظهرت إلى جانب الكفر بالرحمن رب العالمين ، فهي و بحسب ظاهر آنف الآيات ، لم تكن موجودة في الأقوام التي سبقت ثمود قوم صالح .

إن المقصود بالفساد هنا ، هو الفساد الكبير الواسع الممنهج المنظم و المنتشر .. ذلك أمر لا يمكن إدراكه إلا من عبارة (تعثوا في الأرض

مفسدين) فالفساد قد وُجِد على الأرض منذ بدء الخليقة البشرية ، ذلك كطبيعة إنسانية .. لكن كان على ما يبدو ذا حالات فردية أو جماعية بسيطة مرتبطة بحيّز جغرافي بسيط .. و لم يأخذ ذلك البعد الجغرافي و الاجتماعية البعيد و المترامي ، إلا في عهد ثمود قوم صالح ، فكان ثمرة تطور الكفر و الخلل النفسي الأول .

أما القضية الثالثة المستجدة في ذلك ، فهي مخاطبة الكفار أو الملأ منهم ، للقواعد الشعبية أو بسطاء المجتمع ممن آمنوا مع صالح و صدّقوه و اتّبعوه ، إذ درجت العادة قبل ذلك ، أن يكون الحوار و النقاش و الجدال ، فيما بين الملأ الكافر أو علية القوم و بين الرسول المرسَل إليهم من الرحمن رب العالمين .. هذا الأمر فيه دلالة قوية على تشعب مفهوم الإيمان و تطوره لدى المجتمعات البشرية بالتزامن مع التطور الزمني البشري .

كما يبدو أن قضية الجدال بين فئتين أو فريقين متضادين ، حول قضية الإيمان و الكفر ، قد جاء بالتزامن أيضاً من ظهور أول معجزة إلهية ربانية مادية حاضرة ، و هي الناقة .

إنه في قراءة أولية لهذا الأمر ، نرى أن هذه المعجزة المادية الظاهرة ، ربما كانت السبب في اتّباع فريق من بسطاء المجتمع و قواعده ، لصالح الرسول من قِبَل الرحمن رب العالمين ، من حيث أنه قد صار أمراً محتوماً وجود إلهاً أحداً واحداً .

و نرى أيضاً في هذه القضية أن المعجزة الإلهية الربانية المادية الظاهرة ، هي تدَخّل إلهي رباني من الرحمن رب العالمين ، لحسم قضية الإيمان و الكفر و تقوية كفة الرسول و رجحانها في الصراع مع أئمة الكفر من حيث أنه لا يعد هنالك مجال للشك في وجود الرحمن رب العالمين .

لكن في الوقت نفسه ، نرى أيضاً تدَخّل آخر من الملأ من أقوام السوء لمواجهة ذلك الطارئ الجديد المتمثل في معجزة إلهية ربانية ظاهرة لعموم الناس على عيانهم ، و التي تشَكّل خطراً كبيراً عليهم و على معبوداتهم الزائفة و على كفرهم و فسقهم و فسادهم و إفسادهم ، فكان أن اضطروا للنزول إلى الساحة بأنفسهم و محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، و تدارُكْ ما يمكن تداركه من وضعهم المأزوم ، فكان أن لجأوا إلى الخطاب المباشر مع عوام الشعب و أسافله (بنظرهم) و الحوار معهم علّهم ربما يعدلون كفة الميزان .

و لكن و على ما يبدو أيضاً فإن ذلك لم يجديهم نفعاً ، فالآية الباهرة القاهرة المبصِرة ، واضحة تماماً و لا يمكن دحضها أو تكذيبها ، فكان أن لجأ قوم السوء هؤلاء ، إلى قتل الناقة كحل أخير لإقناع الناس أن صالح كاذب ، لكنهم لم يكونوا يدركون أنهم بذلك ، قد ارتكبوا خطأً قاتلاً سيودي بهم إلى الهلاك و الفناء ، إذ عاجلهم الرحمن رب العالمين المَلك القدوس المهيمن العزيز الجبار المتكبر ذو الانتقام ، بصاعقة مدمرة أفنتهم عن آخرهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { كذبت ثمود المرسلين (*) إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون (*) إني لكم رسول أمين (*) فاتقوا الله و أطيعون (*) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (*) أتُترَكون في ما هاهنا آمنين (*) في جنات و عيون (*) و زروع و نخل طلعها هضيم (*) و تنحتون من الجبال بيوتاً فارهين (*) فاتقوا الله و أطيعون (*) و لا تطيعوا أمر المسرفين (*) الذين يفسدون في الأرض و لا يصلحون (*) قالوا إنما أنت من المسحرين (*) ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين (*) قال هذه ناقة لها شرب و لكم شرب يوم معلوم (*) و لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم (*) فعقروها فأصبحوا نادمين (*) فأخذهم العذاب إن في ذلك لآيةً و ما كان أكثرهم مؤمنين } .

أيضاً هنا في آنف الآيات يتبدى لنا جوانب جديدة في ما اختُصَّت به ثمود قوم صالح .. و يتجلى ذلك الأمر في تحذير صالح الرسول ، لقومه من أنهم لن يُتركوا هكذا سدى ، فيما هم عليه من نِعَمٍ ظاهرة مُسبغة عليهم من قِبَل الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .. و في هذا ، تذكير لهم بعادٍ قوم هود و ما كانوا عليه من مزايا و نِعَم من الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .. لكنه دمرهم و أبادهم و أهلكهم بعد أن فسقوا عن أمره و شرعه و أحكامه .

كذلك يظهر جانب جديد في قضية العلاقة بين صالح الرسول و ملأ السوء من قومه ، يبين لنا صفة جديدة اختُصَّ بها قوم السوء هؤلاء ، لم تكن موجودة عند من سبقهم من أقوام ، ألا و هي صفة الإسراف .. و الإسراف لغةً ، هو مجاوزة الحد الافتراضي أو الطبيعي لشيء ما ، إلى حد أعلى منه ، لا أدنى .. أو هو الزيادة غير المقبولة أو غير المبرَرة ، في فعل أو تصرّف أو عمل ، من حيث يكون من نتائجها وقوع ضرر أو أذى .

و الإسراف فيما سبق آنفاً من آيات ، هو مقدمة للفساد و الإفساد .. و هو ضد الإصلاح و الصلاح ، و نقيضهما معاً .. فنرى أن صالحاً الرسول

قد نهى قومه أن ينقادوا و يطيعوا أمر المسرفين ، لأن هؤلاء مآلهم الفساد و الإفساد في الأرض .

لكن ثمود قوم صالح ، يرفضون دعوة صالح لهم ، و يطالبونه بإظهار معجزة أو برهان مادي ملموس لكي يصدقونه .. و هم في قرارة ظنهم أنه لن يستطيع ذلك لأنه (بحسب ظنهم) لا يوجد إله يمكن أن يصنع هذه المعجزات ، أي أنهم لم يطالبوا ببرهان مادي ملموس لأنهم يريدون أن يُصَدّقوا صالح الرسول ، بل لأنهم يريدون أن يتهربوا منه و من دعوته إلى عبادة الرحمن رب العالمين ، وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .

لكن الرحمن رب العالمين ، يفاجئ قوم السوء هؤلاء ، بمعجزة باهرة قاهرة مبصرة ، ألا و هي تحوّل حجر إلى ناقة حية تسعى ، و هي معجزة لا مجال لإنكارها و لا مناص من الرضوخ لها و القبول بها .. و يخبرهم الرسول صالح إن الماء مقسوم بينهم و بين تلك الناقة ، في مواقيت محددة من حيث لا يُظلم أحد .. و حذرهم من أن يتعرضوا لتلك الناقة بأي أذى أو سوء .

لكنه الكفر .. الكفر و الفسوق و العصيان الذي قد صار متجذِّراً في العقول و النفوس .. تلك العقول و النفوس المريضة التي بدأت مع ابن آدم الذي قتل أخيه ، من منطلق نفس مريضة .. سبب ذلك كله هو تلك الشجرة التي نهى الرحمن رب العالمين ، آدم و زوجه أن يأكلا منها ، فلما أكلا منها ، دخلت إليهما كل الأمراض و العيوب النفسية ، من جشع و طمع و حسد و غرور و استكبار و ما إلى ذلك من أمراض نفسية قاتلة ، فقاما بتوريث ذلك إلى ذريتهما من بعدهما فصار الذي صار و حصل الذي حصل مما نحن عليه الآن .

قام ثمود بقتل الناقة بعد كل ما رأوه من آيات و براهين و دلائل ، استكباراً و طغياناً و علوّاً ، و الأدق من ذلك كله .. تمسكاً بكفرهم و إصرارهم على الفسق عن الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .. و هو نفس ما حصل مع من قبلهم و ما سوف يحصل مع من بعدهم .. قتلوا الناقة و عقروها فكان أن عاجلهم الرحمن الملك القدوس العزيز الجبار المتكبر ، البطش و العقاب الذي أفناهم و أبادهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون (*) قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم تُرحمون (*) قالوا اطيرنا بك و بمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون (*) و كان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض و لا يصلحون (*) قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه و أهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله و إنا لصادقون (*) و مكروا مكراً و مكرنا مكراً و هم لا يشعرون (*) فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم و قومهم أجمعين (*) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآيةً لقوم يعلمون (*) و أنجينا الذين آمنوا و كانوا يتقون } .

يظهر آنف الآيات ، مُستجِدّ آخر و هو ظهور فريق من المؤمنين في مواجهة فريق الكفار من ملأ قوم السوء و أتباعهم ، و هو دلالة قوية على نمو الوعي الإيماني المتزايد لدى شرائح و فئات المجتمع .. هذا الوعي الذي كان نتاج البراهين و الدلائل العقلية المنطقية ، و المادية المبصَرة .. فطريقة جدال الرسول صالح مع قومه و استفساره منهم عن مسارعتهم إلى الكفر و ارتكاب الموبقات و العاصي و أعمال السوء ، بدلاً من الإيمان بالرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، و إتيان صالح الأعمال و الفعال ، كان بحسب ما يبدو ، ذا أثر كبير جداً في إقناع بعض الناس بدعوته .. يضاف إلى ذلك المعجزة الإلهية الربانية التي آتاها الرحمن رب العالمين ، للرسول صالح ،

متمثلة بالناقة ، قد آتت أثراً قوياً و لعبت دوراً كبيراً في إقناع الناس ، بوجود إله أحد واحد قاهر فوق عباده لا شريك له أو معه ، في شيء أو من شيء .

لكن و بالرغم من كل تلك الدلائل و البراهين و المقومات المستجدة الداعمة للإيمان بالرحمن رب العالمين و اتّباع رسوله صالحاً ، فإن فريق الكفر بالرحمن رب العالمين ، و عصيانه و الفسوق عن أمره ، ما لبث أن انقلب على كل تلك الآيات و البراهين و استكبر عليها و عنها و قال الملأ منهم لصالح الرسول إنهم قد تشاءموا منه و من معه من فريق المؤمنين .. فردّ عليهم صالح بأن تشاؤمهم الكاذب المزعوم ، هو منهم و أنهم قد اغترّوا بأنفسهم التي سولت لهم الكذب على أنفسهم .. فكان أن دبّر المجلس الأعلى لهؤلاء ، خطة لقتل الرسول صالح و عائلته .. و هنا تبرز صفة جديدة في ثمود قوم صالح ، ألا و هي وجود مجلس أعلى ، سرّي أو غير ذلك ، هو من يقوم بإدارة المجتمع و الدولة ، و هو من يؤثر على القرارات التي تصدر من أعلى هرم الإدارة و السلطة .. ذلك أنه في سابق أقوام السوء لثمود ، لم يوجد مثل هكذا مجلس أو إدارة ، يبدو راجحاً أنها تشكلت رداً على تشكل جماعة الإيمان التي كانت تتبع صالحاً الرسول ، و ذلك من مبدأ استشعار الخطر .

إذن و لأول مرة ، يتم ظهور فريق و جماعة مؤمنة بالرحمن رب العالمين ، يقابلها مجلس ملّي مضاد لها .

لكن ذلك الأمر أدى أيضاً و لأول مرة ، أن يظهر تدبير و تخطيط لعملية تصفية و قتل للرسول المرسل من قِبَل الرحمن رب العالمين ، لكن بالخفاء و ليس بالعلن ، بل و الخشية من إعلان قتله ، و التهرب من هذه الفعلة علناً ثم الاستعاضة عنها و لأسباب غير معلنة ، بقتل الناقة المرسَلة إليهم ، فكان أن جاءهم عقاب الرحمن رب العالمين ، الذي أهلكهم جميعاً و ما أبقى على أحد منهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب (*) قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا و إننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب (*) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي و آتاني منه رحمةً فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير (*) و يا قوم هذه ناقة الله لكم آيةً فذروها تأكل في أرض الله و لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب (*) فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب

(*) فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً و الذين آمنوا معه برحمة منا و من خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (*) و أخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (*) كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود } .

كذا الأمر يُظهِر آنف الآيات قضية جديدة مستحدَثَة ، و هي أن الرسول صالح ، كان في ثمود قومه ، من عَليّتهم و كان من الذين يُقصَدون لطلب النصيحة أو العون و ما شابه .. و لذلك فهو لم يكن غريباً عن الملأ بل كان على ما يبدو فيما مضى ، منهم ، ثم هداه الله رب العالمين ، و اجتباه إليه و جعله من المرسَلين .. ربما هي حالة مشابهة لحالة موسى الرسول ..

بسم الله الرحمن الرحيم { قال ألم نُرَبِّك فينا وليداً و لبثت فينا من عمرك سنين (*) و فعلت فعلتك التي فعلت و أنت من الكافرين (*) قال فعلتها إذاً و أنا من الضالين (*) ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً و جعلني من المرسلين } .

أو هي حالة مشابهة لحالة يوسف النبي ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله و هم بالآخرة هم كافرون (*) و اتبعت ملة آبائي إبراهيم و إسحاق و يعقوب ما كان لنا

أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا و على الناس و لكن أكثر الناس لا يشكرون } .

هذا الأمر ربما يفسر لماذا تم تشكيل مجلس ملّي خاص يقود و يتحكم بمجريات الأحداث و إصدار القرارات .. ذلك لأن صالح الرسول كان من ضمن التشكيلة أو النخبة الإدارية ، و بالتالي فهو كان مطلعاً على أسرار معينة ، فكان لا بد من تشكيل مجلس آخر سري ، لا يعلم صالح عنه شيئاً و لا عن آلية و كيفية عمله .. و هذا الأمر أيضاً يقودنا إلى أن عملية الكفر بالرحمن رب العالمين ، قد صارت أكثر تنظيماً و أكثر منهجية و ربما سرّية ، بالتزامن مع تطور الوعي البشري و تراكم شدة الكفر بالرحمن رب العالمين ، و الإصرار على هذا الكفر و الذوذ عنه ، و بالتزامن مع بداية ظهور المعجزات المادية .

كذا الأمر ، تُظهر هذه الآيات ، عدم جدوى النقاش و الجدال مع ملأ الكفر و الفسق و العصيان و الفساد .

بسم الله الرحمن الرحيم { و أما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون (*) و نجينا الذين آمنوا و كانوا يتقون } .

تورد الآيتان السابقتان ، مستجداً هاماً جداً ، إلا و هو قضية الهداية من الرحمن رب العالمين ، للناس .. و هي قضية تبرز لأول مرة و يتضح منها أن ثموداً قد عرفوا الحق ، حق معرفته و دروا به حق درايته ، فهم لم ينكرونه البتة ، لجهلهم به أو كونه كان جديداً عليهم ، بل على ما يظهر ، كانوا على شيء من الإيمان لكن طرأ عليهم طارئ خارجي مؤثِّر ، فعل فعله فيهم و أزاحهم عن جادة الحق و الصواب و صرَفهم عن قبلة الصراط المستقيم ، فكان أن استطعموا الكفر بالرحمن رب العالمين ، و استحبوه و اختاروه على الإيمان بالرحمن رب العالمين ، فكان أيضاً أن عاقبهم الرحمن رب العالمين ، لأجل ذلك ، و دمرهم و أفناهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { و عاداً و ثمود و قد تبين لكم من مساكنهم و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل و كانوا مستبصرين } .

هذه الآية السابقة تثني على الآيتان قبلها و تشرح و تفسر حال ثمود و لما و من فعل فعله بهم .. فعبارة (مستبصرين) تعني المعرفة الحقيقة و الاطِّلاع الواسع و الإيمان الحق أيضاً .. لكن جاء الشيطان و أغراهم

بأعمالهم و ما يحيط بهم من متاع الدنيا ، و هو ما يعود بنا كرّة أخرى إلى النفس المريضة أو الأمراض النفسية التي كان منشأها جميعاً ، تلك الشجرة التي حرّمها الرحمن رب العالمين ، على آدم و زوجه لكنهما أكلا منها ، فكان أن انتقلت إليهما و من ثم ذريتهما ، كل خصائص النفس السلبية .

هو الاستكبار أحد أسباب الكفر و رفض الإيمان بالله سبحانه و تعالى ، و أسبابه رفض الرسول المرسل من الرحمن رب العالمين ، أي هو في أساسه استكبار على الرسول أيضاً .. هو استكبار يعود بجذوره إلى الاستكبار الأول لدى ابن آدم قاتل أخيه حينما لم يتم تقَبُّل قربانه ، فاستكبر على أخيه مستنكراً قبول قربانه من دونه .. استكبار يعود في خصائصه إلى الشجرة التي حرمها الله سبحانه و تعالى على آدم و زوجه ، فأكلا منها .

يتضح من استبيان و قراءة ثمود قوم صالح ، أن التراكم في الكفر و الطغيان و الفساد و الفسوق ، على مدار الزمن و الحقب التاريخية البشرية ، كان أساسه في تلك الشجرة الخبيثة التي نهى الرحمن رب العالمين ، آدم و زوجه عنها .. ذلك أن الحسد و الجشع و الطمع و النفس المريضة التي تسول قتل إنسان بريء لا ذنب له و لا جريرة ، هي نفس زائغة لا تسول لصاحبها و لنفسها إلا ما هو هوىً لها حصراً ، و لو كان ذلك وبالاً وبيلاً عليه .. هي تعميه عن كل حق و عدل و منطق و عقل ، فيصير مصداقه كمصداق ما قاله الله سبحانه و تعالى ، لموسى الرسول عن قوم السوء في زمنه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها و إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً و إن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا و كانوا عنها غافلين } .

و سبيل هذه النفس المريضة الذليلة لهواها و غرائزها ، هو سيبيل الرفض للعقل و المنطق و الحق ، و سبيل العناد الذي مصداقة القرآني هو ..

بسم الله الرحمن الرحيم { قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و قالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين } .

هي نفس مريضة تنزل بصاحبها إلى درك أدنى من درك الحيوان ، و هو ما مصداقه في القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون (*) و لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم و لو أسمعهم لتولوا و هم معرضون } .

ذلك كله ، ما يبين أسباب الكفر بالرحمن رب العالمين و يبين أسباب التمسك بهذا الكفر و الذود عنه بالنفوس و المُهَج و محاولة قتل كل من يسعى إلى إلغائه و إحلال عبادة الرحمن رب العالمين ، مكانه .. تماماً كما قتل أحد أبناء آدم ، أخيه .

كذا الأمر يبين الطمع و الجشع ، أحد خصال النفس المريضة التي خُيّرت بين الحياة الدنيا الزائلة العاجلة الفانية ، و بين الدار الآخرة ذات الحيوان ،

لكنها اختارت الحياة الدنيا (فاستحبوا العمى على الهدى) ، علماً أنهم لم يكونوا غريبين عن الإيمان الحق بالرحمن رب العالمين بل كانوا يعرفونه حق المعرفة .. و كانوا يعرفون أيضاً في قرارة أنفسهم الداخلية أنهم في دائرة الضلال (و كانوا مستبصرين) .

هو الطمع و الجشع الذي يجعل هؤلاء القوم يجادلون أتباع الرسول صالح ، و هو الذي يجعلهم يشكلون المجالس الخفية و يمكرون لعملية قتل و اغتيال صالح الرسول ، تماماً مثلما قَتَلَ ابنُ آدم أخيه .

لقد وصل ثمود إلى درجة من القوة و المنعة ، ذكّرَهم بها رسولهم صالح .. كذلك الأمر توافرت لديهم و دلائل و براهين و مقومات الإيمان بالرحمن رب العالمين و عبادته أتَمّ عبادة و أخلصها ، لكن النكوص عندهم و الانقلاب عقباً ، كان هو القرار نهاية الأمر ، و لا يُدرى و يُعرَف السبب المنطقي الوجيه ، إلا أن يكون هو النفس المريضة الأمارة بالسوء ، والطمع و الجشع و الغرور النفس و توهم القوة و المنعة .

إن ما يمكن استنباطه في حال ثمود قوم صالح ، هو أن تراكم العلم و خبرات المعرفية ، نتيجة لعوامل الزمن و نتيجة لميراث العلوم و الخبرات السابقة ، ليس بالضرورة أن يكون عاملاً من عوامل و مقومات زيادة الإيمان بالرحمن رب العالمين ، لدى الجنس البشري ، بل إن العكس قد يكون هو الصحيح .. ذلك أيضاً لا يمكن استنباطه إلا من خلال الآيات القرآنية السابقة التي قد أوردت عاملين أساس في هذا الشأن ، و هما ..

العامل الأول .. و هو العامل الخارجي المتمثل بالشيطان و قبيله .. و الذي يحرك الأهواء و الغرائز ، و الذي يورد الإنسان موارد الضلال بعيد المدى من حيث لا يمكن للمرء العودة للوراء إلا بصعوبة بالغة قد يصل مستواها إلى شبه المستحيل .. ذلك أن معالم الإيمان و شاخِصاته ، يكون قد تم إزالتها أو طمسها في أرجح تقدير ، و حل محلها معالم و شاخِصات أخرى مغايرة لها من حيث الدلالة و الهداية ، و هو ما كان يحصل و ما يحصل و ما سيحصل فيما بعد ، مع الجنس البشري عموماً ، و مع أقوام السوء خصوصاً .. فيظن هؤلاء ظن الوهم الصواب في عقائدهم البالية الضالة المضللة .. و ظن الوهم السوء في شرع الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .. و لذلك كله ، كانوا يجادلون أنبياءهم و رسلهم في دين الرحمن رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و قالوا لا تذرن آلهتكم و لا تذرن وداً و لا سواعاً و لا يغوث و يعوق و نسراً (*) و قد أضلوا كثيراً و لا تزد الظالمين إلا ضلالاً } .

هؤلاء قوم نوح يصرون مستكبرين على رموزهم الدينية الزائفة الوهمية التي منشأها الأساطير الأولى الكاذبة .. لأنهم رأوا فيها ما تم إيهامهم به أنه هو الحق ، بالرغم من قول نوح الرسول أن هذه الآلهة الوهمية الكاذبة قد أضلت الكثير من جمهور الناس ، و أن قوم نوح بسبب من ظلمهم لأنفسهم و ظلمهم لغيرهم من الناس ، بسَوق تلك الرموز الدينية الوهمية الكاذبة ، لهم ليعبدوها ، فإن الله سبحانه و تعالى ، قد زادهم ضلالاً .

بسم الله الرحمن الرحيم { قالوا يا هود ما جئتنا ببينة و ما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك و ما نحن لك بمؤمنين (*) إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله و اشهدوا أني بريء مما تشركون } .

هؤلاء الكفرة الفجرة ، الظانين بالرحمن رب العالمين فاطر السماوات و الأرض و خالق الخلق و مالك الملك ، ظن السوء ، يطلبون برهان و دليلاً

على وجوده ، بالرغم من كل الدلائل و البراهين العلمية و المنطقية على وجود الله سبحانه و تعالى .. لكنهم لا يفعلون ذلك مع رموزهم الدينية الزائفة الباطلة و التي ما أنزل الله سبحانه و تعالى ، بها من سلطان .. فيخبرون هوداً رسولهم إنهم لن يتخلوا عن آلهتهم الوهمية في عقولهم المريضة .. و يخبرونه إنه ربما فعل ذلك لأن بعض من آلهتهم الوهمية قد تسبب له بالإزعاج أو الضرر ، فكان أن وصل بهم الضلال و الوهم إلى تخيل أشياء لا أساس لها على أرض الواقع ، بل هي ناتجة عن خيالات مريضة .. و ما كان من هود الرسول إلا أن سلّم أمره لله سبحانه و تعالى ، لأن مثل هكذا عقليات مريضة ، لا ينفع معها علاج و لا يصح فيها شفاء .

بسم الله الرحمن الرحيم { إنا كذلك نفعل بالمجرمين (*) إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون (*) و يقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون (*) بل جاء بالحق و صدّق المرسلين } .

هو الضلال و التضليل الناتجان عن التأثير الخارجي و اللذين يصلان بالمرء إلى درجة يرى فيها الحقائق و الدلائل العقلية العلمية المنطقية المغايرة لمنطقهم و تفكيرهم الضال الأعوج ، ضرباً من الجنون فيصلون بذلك إلى مرتبة الإجرام عند الله سبحانه و تعالى ، و هي أعلى مراتب الكفر و الفساد و العصيان .

بسم الله الرحمن الرحيم { قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (*) قال إنما العلم عند الله و أبلغكم ما أرسلت به و لكني أراكم قوماً تجهلون } .

الإنسان الضال المضلَّل ، يصل إلى درجة من الوهم و التوهم ، أن يطلب العقاب من الله سبحانه و تعالى ، لظنه الخاطئ أن رموزه الدينية الكاذبة الوهمية ، هي الحق و أنها هي التي سوف تحميه من العقاب .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً (*) إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها و سوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً (*) أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً } .

إن قوة الضلال و خطورته في القرآن الكريم ، لا ينحصران فقط في جدلية و قضية المكان الخاطئ ، بل يقعان أيضاً في الوهم و الاعتقاد الخاطئ .. ذلك أن الإنسان الضالّ المضلَّل قد يصل إلى مرحلة من مراحل الضلال ، لا يرى فيه ضلاله ضلالاً ، بل يراه صواباً و حقيقة سليمة صحيحة .. و يرى نقيضه من الصواب و الحقيقة الصحيحة البينة ، هو الضلال بعينه .

بسم الله الرحمن الرحيم { و انطلق الملأ منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد (*) ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق (*) أؤنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب } .

أيضاً إن من أهم خصائل و صفات الضلال ، صفة قلب الحقائق أو عكسها ، و هي قضية مشابهة لما أوردناه آنفاً عن قوة الضلال و خطورته و ذلك من حيث أن الشخص الضال ، يرى الباطل حقاً مقدساً و يرى الحق باطلاً مُمَحَّقاً ، فيقاتل سعياً دؤوباً في سبيل باطله ، حق قتاله و كذا الأمر يقاتل ضد الحق ، فكيف السبيل لإقناع أو هداية مثل هكذا أشخاص ؟؟!! أشخاص صدق فيهم قول الرحمن رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون (*) و لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم و لو أسمعهم لتولوا و هم معرضون } .

العامل الثاني .. هو العامل الداخلي النفسي الذي ارتبط أساساً بالمرض النفسي الذي انتقل إلى جينات النفس البشرية من الشجرة الخبيثة التي حرمها الرحمن رب العالمين ، على آدم و زوجه و حذرهما منها ، فظهرت

لهما كل مساوئ النفس البشرية حين أكلا منها .. الجشع .. الحسد .. الطمع .. الغرور .. الغل .. الكِبَر .. الخ .

هذه العوامل جميعاً بالعموم ، تمنع الإنسان من اتّباع منهج الرحمن الحق .. لكن عاملي الطمع و الغرور ، بالأخص ، يجعلان الإنسان ينقاد إلى زينة الحياة الدنيا و متاعها و تفضيلها على شرع الرحمن الحق حين أول اعتراض و تعارض فيما بينهما ، و هو أمر قد أشار إليه القرآن الكريم في مواضع عدة ، منها ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و أما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة و أن الله لا يهدي القوم الكافرين } .

في الآيتان السابقتان يبرز العامل الداخلي البحت و تأثيره على النفس البشرية التي انتقلت إليها خصائص تلك الشجرة الخبيثة ، فمنعتها من تقَبّل الحق الذي يمنع النفس عن الهوى ، و سولت لها الكفر و الفسوق و عصيان الرحمن رب العالمين ، المقترن بمتاع الحياة الدنيا الزائل العاجل .

لكن في الآية التالية يبرز ذلك كله مقترناً مع الإغراء و التضليل الخارجي الذي يؤثر النفس البشرية و يدفع بها دفعاً إلى العصيان و الفسوق و اتباع منهج الحياة الدنيا ، بالرغم من معرفتها المسبقة بدلائل الحق الرحماني ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و عاداً و ثمود و قد تبين لكم من مساكنهم و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل و كانوا مستبصرين } .

و ما يزيد الطين بلة في معايير الكفر و الفسوق و العصيان ، هو الغرور المرتبط بالمقدرات الذاتية و تراكم المعارف و الخبرات التي أعطاها الرحمن رب العالمين للإنسان و ميّزه بها عن بقية مخلوقاته ، هي نفسها المعارف و الخبرات التي ظنها هذا الإنسان غروراً و وهماً ، أنها من لدن علمه الخاص به الذي اكتسبه من دون عون أحد ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمةً منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة و لكن أكثرهم لا يعلمون (*) قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (*) فأصابهم سيئات ما كسبوا و الذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا و ما هم بمعجزين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً و أكثر جمعاً و لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم و حاق بهم ما كانوا به يستهزئون } .

إن ظن السوء هذا ، هو ظن مقترن بما صنعه الإنسان بيديه و نسبه إلى نفسه من دون الرحمن رب العالمين ، و في هذا ظلم كبير و معصية و فسوق بل كفر بالرحمن رب العالمين الذي هو من عَلّم الإنسان كل شيء و أعطاه من لدنه علماً لم يكن يعلمه و ما كان ليعلمه لولا الرحمن رب العالمين ، المعلم الأول و الأكبر ..

بسم الله الرحمن الرحيم { اقرأ و ربك الأكرم (*) الذي علم بالقلم (*) علم الإنسان ما لم يعلم (*) كلا إن الإنسان ليطغى (*) أن رآه استغنى } .

عندما يغترّ الإنسان بنفسه و يظن أنه هو من اكتشف المعلوم بعقله و صنع المصنوع بيديه ، من دون الرحمن رب العالمين ، يدخل مباشرة في دائرة الطغيان و الفجور .

بسم الله الرحمن الرحيم { و علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (*) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم } .

لقد علّم الرحمن رب العالمين ، آدم ، علوماً لم يعلمها حتى للملائكة .. و بالرغم من ذلك فإن الإنسان أنكر و جحد و اغتر و توهم في نفسه العلم و القوة و المنعة .

بسم الله الرحمن الرحيم { الرحمن (*) عَلّم القرآن (*) خلق الإنسان (*) عَلّمه البيان } .

كل علم يَعلَمه الإنسان أو عَلِمه من قبل ، هو من الرحمن رب العالمين لا من غيره ، فغيره لا علم له إلا ما علّمه إياه الرحمن رب العالمين .

هي حالات الغرور و الوهم التي كان أساسه تلك الشجرة الخبيثة ، و التي ذكرها القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { ألم تر كيف فعل ربك بعاد (*) إرم ذات العماد (*) التي لم يخلق مثلها في البلاد (*) و ثمود الذين جابوا الصخر بالواد } .

هي الحالات التي كان الأنبياء و الرسل و صالح الناس ، يحذرون الملأ من أقوامهم ، منها و ينهونهم عنها ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد و بوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً و تنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله و لا تعثوا في الأرض مفسدين } .

إن جدلية الإيمان و الكفر ، قد اقتضت فيها الحكمة الإلهية الرحمانية الربانية ، أن يتلازم مع تراكم الكفر و الفسوق و تراكم عواملهما من مغريات و غرور بقوة أو منعة ، أن يكون هنالك تحذير و تنبيه من الرحمن رب العالمين ، بواسطة رسله ، لأقوام السوء ، من مغبة ذلك الأمر .. فما بدا من الآيات السابقة ، أن الرسل كانوا يحذرون أقوامهم من الاستكبار بغير الحق و الافتتان بما استحصلوه من حضارة و علوم ، و يقومون بتذكيرهم بمحصل حصل مع الأقوام الذين سبقوهم و الذين كانوا على شاكلتهم من القوة و المنعة .

كذلك فإن القرآن الكريم ما فتئ يُذَكّر الأقوام و الناس ، بهذه الظاهرة الخطرة أيما خطر على عقل الإنسان و جاذبته لفتنة كبيرة تضله و تطيح به نهاية الأمر ، و يحذرهم منها ..

بسم الله الرحمن الرحيم { أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم و أشد قوةً و آثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (*) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم و حاق بهم ما كانوا به يستهزئون (*) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده و كفرنا بما كنا به مشركين (*) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده و خسر هنالك الكافرون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و كأين من قرية هي أشد قوةً من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم (*) أفمن كان على بينة من ربه كمن زُيّن له سوء عمله و اتبعوا أهواءهم } .

كذلك الأمر ، يبين لنا القصص القرآني الحق ، كيف أن الفاسق الكافر العاصِ للرحمن رب العالمين ، يراكم غروره و استكباره ، من غرور و استكبار من سبقه من قوم سوء ، بالرغم من معرفته بالعذاب الذي وقع عليه من مغبة ذلك الاستكبار و الغرور ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق و قالوا من أشد منا قوةً أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوةً وكانوا بآياتنا يجحدون (*) فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا و لعذاب الآخرة أخزى و هم لا يُنصَرون (*) و أما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون (*) و نجينا الذين آمنوا و كانوا يتقون } .

مما سبق جميعاً ، نستخلص أنه لا يوجد تحذير رباني رحماني ، في القرآن الكريم ، من شيء إلا و كان هذا الشيء على درجة كبيرة من الخطورة على عقل الإنسان و تفكيره و نفسه .. و نستخلص كذا الأمر أن كل تحذير رباني رحماني ، للإنسان ، في القرآن الكريم ، هو رحمة من الرحمن رب العالمين ، للإنسان و تجنيباً له من سوء المهالك و مهالك السوء .

و لذلك فإنه عوداً على ذي بدء ، و في كل مرحلة قوم سوء في القرآن الكريم ، نرى أن الآيات القرآنية الكريمة ، تعود بنا دائماً في بعض حيثياتها و دلالاتها ، إلى منبت السوء الأول و شَجْرَه .. تلك الشجرة الخبيثة الملعونة التي نهى الرحمن رب العالمين ، عبده و مخلوقه البشري الأول ، آدم و زوجه ، عنها .

أولئك الأقوام ، لم يستكبروا في الأرض بغير الحق إلا بسبب الطمع و الغرور .. و لم يأفكوا آلهة كاذبة مفتراة على الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، و هم يعلمون ، إلا بسبب الطمع في متاع الحياة الدنيا الفانية الزائلة ، و الذين هم عن فنائها و زوالها غافلون .

قوم إبراهيم

جاء ذكر قوم إبراهيم في القرآن الكريم ، في الترتيب الرابع تاريخياً لأقوام السوء المذكورة في القرآن الكريم .. و قد تميز قوم إبراهيم عما سبقهم من أقوام السوء في القرآن الكريم ، بأمور عدة مستجدة .. كنزول شرائع مكتوبة ، من الرحمن رب العالمين ، و هو أمر ما حصل قبلاً في أقوام السوء السابقة .. كذلك ظهور نظام المُلك و السياسة و التدبير .. يضاف إلى ذلك أيضاً ، وجود قومي سوء متزامنين في الفترة ذاتها و هما قوم إبراهيم و قوم لوط .. كذلك الأمر ، ظهور الملائكة و لقاءها و اجتماعها مع كل من إبراهيم و لوط ، و إيقاع العذاب و الهلاك في أقوام السوء ، بواسطة الملائكة الرسل .. كذلك إظهار المعجزات الإلهية الربانية في الأشخاص ، و إظهار الخلاف العقائدي الديني ضمن نطاق الأسرة الواحدة .

و ما يبدو كمستجِدٍّ جديد في دور إبراهيم النبي ، هو ظهور البلاء و الابتلاء الواقع من الله سبحانه و تعالى ، على الأنبياء و الرسل ، حصراً .

أيضاً فإن ما استجد في قضية قوم إبراهيم ، هو المبادرة الفردية بالهجوم و تكسير الأصنام ، و هو أمر لم يحصل من قبل و لا ربما من بعد ، في حالة تُعَد من أندر الحالات في سِيَر و قصص الأنبياء و الرسل .

على أنه ، ما يميز عهد قوم إبراهيم عما سبقه و ربما عما تلاه من أقوام السوء في القرآن الكريم ، هو أن إبراهيم لم يكن رسولاً مرسلاً من قِبل الرحمن رب العالمين ، إلى قومه ، و لا نبياً يعظهم في رسالةٍ لمن سبقه ، بل نبياً من خلال ما هداه إليه الرحمن رب العالمين .. فهو كان باحثاً جاداً دؤوباً كادحاً إلى معرفة الله رب العالمين ، فأولاه الرحمن رب العالمين ، الهداية له ، و أرشده إلى الصراط المستقيم ، فهو و تبعاً لذلك .. أول نبي في الإسلام أو الدين الحنيف ، و كان أن حاجّ قومه فيما أتاه الرحمن رب العالمين ، من براهين و حِجَج منطقية عقلية علمية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهةً إني أراك و قومك في ضلال مبين (*) و كذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات و الأرض و ليكون من الموقنين (*) فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين (*) فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين (*) فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت

قال يا قوم إني بريء مما تشركون (*) إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات و الأرض حنيفاً و ما أنا من المشركين (*) و حاجه قومه قال أتحاجوني في الله و قد هدان و لا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون (*) و كيف أخاف ما أشركتم و لا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون (*) الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن و هم مهتدون (*) و تلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم } .

و ربما كان إبراهيم يتبع ملة قومه بدايةً أو كان في وسط تقاليدها و ممارساتها لكنه شيئاً فشيئاً انفصل عنها منشقاً بعد أن لم يرَ فيها ما يكفي تساؤلاته و قناعاته .

و لعل ما رآه إبراهيم من بعض آيات و براهين الرحمن رب العالمين ، قد يكون هو السبب الأساس ، في شديد إيمانه الذي قارب اليقين ، و في دفاعه عنه و جداله قومه ، و هو ربما ما يكون قد تجلى في الآية التالية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى و لكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعةً من الطير فصرهن

إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً و اعلم أن الله عزيز حكيم } .

فهذه الحادثة و هذا المشهد القائم المبصِر ، لَهما كافيان لكي يؤمن المرء بالرحمن رب العالمين ، و يجادل و يحاجّ الغير في وجود الله سبحانه و تعالى و توحيده و أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له .. و يستميت في ذلك و يقاتل لأجله ، و هو ما سوف يفعله إبراهيم بالضبط .

و مما جاء ذكره في قوم السوء هؤلاء ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إن هذا لفي الصحف الأولى (*) صحف إبراهيم و موسى } .

إشارة إلى أن أول تشريع مكتوب من الرحمن رب العالمين ، كان لإبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم { أم لم ينبأ بما في صحف موسى (*) و إبراهيم الذي وفى (*) ألا تزر وازرة وزر أخرى (*) و أن ليس للإنسان إلا ما سعى

(*) و أن سعيه سوف يُرى (*) ثم يجزاه الجزاء الأوفى (*) و أن إلى ربك المنتهى (*) و أنه هو أضحك و أبكى (*) و أنه هو أمات و أحيا (*) و أنه خلق الزوجين الذكر و الأنثى (*) من نطفة إذا تمنى (*) و أن عليه النشأة الأخرى (*) و أنه هو أغنى و أقنى (*) و أنه هو رب الشعرى (*) و أنه أهلك عاداً الأولى (*) و ثمود فما أبقى (*) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم و أطغى } .

الآيات آنفة الذكر توضح ماهية تلك الشرائع التي جاءت إلى إبراهيم ، و من بعده موسى ، من حيث علاقة الإنسان بربه الرحمن رب العالمين ، و عدل الرحمن رب العالمين ، مع هذا الإنسان و عمله و تعبه و جهده في الكدح إليه و إخلاص الدين و العبادة له ، و عدم ظلمه له بأي شكل من الأشكال ، و سوف يوفيه الرحمن ، حقه كاملاً غير منقوص .

و تخبر تلك الشرائع عن قضية المعاد للرحمن رب العالمين و الحتمية المنطقية لذلك ، ثم إنها تتحدث عن الرحمن رب العالمين ، و عن أعماله و قدرته و ثوابه و عقابه و عن ربوبيته على خلقه جميعاً .. و من ثم تعرج على ذكر الأقوام الذين سبقوا قوم إبراهيم في فسقهم و عتوهم ، و ما صنع الرحمن رب العالمين ، فيهم من عذاب و عقاب و ما أنزله فيهم من بطش و هلاك .. إذن فهي شرائع ذات قوانين إنسانية ناظمة ، تحمل سمة العدالة و

صفة الحق .. و هي ذات شآبيب رحمة تصف الرحمن رب العالمين ، كي لا يضل عباده عنه .. و هي قصص ذات موعظة حق تصف حال ما سبق من قوم سوء و ما حاق بهم من مآل و مصير .

بسم الله الرحمن الرحيم { و اذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صِدّيقاً نبياً (*) إذ قال لأبيه يا أبتِ لِمَ تعبد ما لا يسمع و لا يبصر و لا يغني عنك شيئاً (*) يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً (*) يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً (*) يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً (*) قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك و اهجرني ملياً (*) قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً (*) و أعتزلكم و ما تدعون من دون الله و أدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً } .

تُظهر الآيات آنفة الذكر ، أن إبراهيم قد تميز عن غيره من بقية الأنبياء و الرسل ، بأنه قد تصرّف بمفرده في الدعوة لله سبحانه و تعالى .. و ذلك بما وصل إليه من حق و يقين ، بموجب هداية الرحمن رب العالمين ، له .. فكان هو المبادر فردياً بالنقاش و الجدال و المحاجّة المنطقية ، و من دون تكليف إلهي رباني له ، إذ أنه لم يثبت في القرآن الكريم ، الطلب صراحة ، من إبراهيم القيام بمهمة و أعباء الدعوة لله رب العالمين .

و حسبما يظهر ، فإن إبراهيم قد ابتدأ أول أمره الدعوي ، بالنقاش و الجدال مع أهل بيته و أولهم ، أبيه آزر .. و كان إبراهيم في دعوته تلك ، يجادل و يناقش في قضية عبادة الأصنام أو المنحوتات الحجرية .

كذا الأمر فإن إبراهيم لم يكتَفِ بالجدال و النقاش مع أفراد عائلته و أباطح قومه أو عَليّتهم ، بل إنه قد جادل بالرحمن رب العالمين ، أعلى هيئة سياسية حاكمة في المنطقة .

بسم الله الرحمن الرحيم { ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله المُلك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي و يميت قال أنا أحيي و أميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر و الله لا يهدي القوم الظالمين } .

إن تطور النقاش و الجدال و الحوار حول قضية الدين و حول مفهوم وجود الله سبحانه و تعالى ، من عدمه (و العياذ بالله) ، و حول توحيده حال وجوده ، أو الشرك به (و العياذ بالله) .. في عهد إبراهيم النبي .. هذا التطور في الجدال ، قد صار إلى نظام المُلك نفسه ، و يقدم دلائل على أمور عدة منها .. التمسك الشديد لهؤلاء القوم بكفرهم و فسقهم عن أمر الرحمن رب العالمين .

الأمر الثاني .. هو قوة و جدلية حجة ابراهيم النبي ، في النقاش مع قومه ومحاجّتهم ، و هو ما يشير إلى الهداية التي منحه إياها الرحمن رب العالمين لأنه قد اجتهد و كدح إلى ربه كدحاً فاجتباه و هداه .

إن قوة حجة المنطق و الهداية التي آتاها الرحمن رب العالمين ، عبده ابراهيم هي التي جعلت في نهاية المطاف أن يقوم الحاكم الأعلى الذي هو الملك نفسه ، أن يحاجّ و يناقش ابراهيم و هو ما ذكره القرآن الكريم في تلك المحادثة و المجادلة التي حصلت فيما بين الرجلين .. هذه المحاورة سوف تتكرر فيما بعد في الحوار بين فرعون و موسى و التي بدورها ستشتمل على محاجّة متبادلة فيما بين الرجلين .. و لم يذكر القرآن الكريم مجادلة و مناظرة فيما بين رسول أو نبي من الله سبحانه و تعالى ، و فيما بين الحاكم الأعلى للبلاد ، سوى في قومَيّ السوء هذين ، و هو ما يبين القواسم المشتركة بين قوم فرعون و قوم إبراهيم و التي ستظهر في مظهر آخر نورده في حينه .

لقد أثبت القرآن الكريم و أبان و أوضح قوة كلام إبراهيم و منطقية نقاشه مع الملك الذي كان يجادله في أمر الله سبحانه و تعالى .. و لكن القرآن الكريم لم يوضح إن كان هذا الملك قد اهتدى أو آمن كما فعلت ملكة

سبأ مثلاً ، بل ما يظهر ، هو أن الرجل قد بقي على كفره .. و هذا دليل على شدة الكفر عند قوم ابراهيم .. تماماً على الذي شاكل و وافق الذين سبقوهم من أقوام سوء .. ذلك أن الطمع الذي تحدثنا عنه في بداية هذا الكتاب و الذي هو أساس تلك الشجرة الخبيثة .. هو الطمع الذي يجرف الإنسان ، كالسيل الجاري فيقوده الى مهاوي و مهالك لا مرد له منها و لا عودة له عنها .. هو الذي يفعل فعله في الإنسان و يستحوذ عليه .

لكن الأهم من ذلك كله ، هو أن إبراهيم ، كان أول من ذكر الشيطان صراحة و بالاسم ، و كان أول من نهى عن عبادته و اتّباعه .. و ربما كان الوحيد الذي فعل ذلك من بين الأنبياء و الرسل ، أو من القلائل منهم .. و أول ما فعل ذلك ، مع أبيه .. و كان من نتيجة ذلك أن تلقى التهديد بالطرد و القتل ، من أبيه نفسه ، لكنه و بالرغم من ذلك ، كان يشعر بعاطفة اتجاه أبيه ، فدعا ربه أن يغفر له .

بسم الله الرحمن الرحيم { و اتل عليهم نبأ إبراهيم (*) إذ قال لأبيه و قومه ما تعبدون (*) قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين (*) قال هل يسمعونكم إذ تدعون (*) أو ينفعونكم أو يضرون (*) قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون (*) قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون (*) أنتم و آباؤكم

الأقدمون (*) فإنهم عدو لي إلا رب العالمين (*) الذي خلقني فهو يهدين (*) و الذي هو يطعمني و يسقين (*) و إذا مرضت فهو يشفين (*) و الذي يميتني ثم يحيين (*) و الذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (*) رب هب لي حكماً و ألحقني بالصالحين (*) و اجعل لي لسان صدق في الآخرين (*) و اجعلني من ورثة جنة النعيم (*) و اغفر لأبي إنه كان من الضالين (*) و لا تخزني يوم يبعثون (*) يوم لا ينفع مال و لا بنون (*) إلا من أتى الله بقلب سليم } .

يبين آنف الآيات انتقال دعوة إبراهيم النبي ، إلى الرحمن رب العالمين ، من الدعوة الفردية العائلية إلى الدعوة الجماعية .. لكن ما توضِحَه الآيات ، هو أن إبراهيم قد اعتمد مع قومه السوء هؤلاء ، أسلوب الجدال و الحوار العقلاني المنطقي القائم على الأسئلة المنطقية ذات الأحاجي التي تقود أجوبتها إلى إعمال التفكير و العقل ، لعل المتلقي يهتدي أو يقع في الحيرة التي تقوده إلى الهداية .. لكن هيهات هيهات ، فالكفر قد ضرب أطنابه في العقول و سرى في الأنفس مسرى الدم في الشرايين .. فقد أجاب إبراهيمَ قومُه ، على أسئلته المنطقية تلك لكنهم اختلقوا منطقاً بهتاناً زوراً وهماً لكي يبقوا على ما هم عليه من ضلال و كفر .. فادّعوا أن آباءهم كانوا يفعلون ذلك .. و في هذا هروب من الحق الواقع .

لكن إبراهيم قد دخل في صدام مباشر مع أكابر قومه و أخبرهم إنه حرب على هذه الأصنام و العبادات القائمة عليها ، و إنه حرب على كل ما يعبدونه ، إلا الرحمن رب العالمين .. و هذا دليل على أن قوم السوء هؤلاء كانوا مشركين أكثر منه كافرين البتة .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد آتينا إبراهيم رشده من قبل و كنا به عالمين (*) إذ قال لأبيه و قومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون (*) قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين (*) قال لقد كنتم أنتم و آباؤكم في ضلال مبين (*) قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين (*) قال بل ربكم رب السماوات و الأرض الذي فطرهن و أنا على ذلكم من الشاهدين (*) و تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين (*) فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون (*) قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين (*) قالوا سمعنا فتًى يذكرهم يقال له إبراهيم (*) قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون (*) قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم (*) قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون (*) فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون (*) ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (*) قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً و لا يضركم (*) أف لكم و لما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون (*) قالوا حرقوه و

انصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين (*) قلنا يا نار كوني برداً و سلاماً على إبراهيم (*) و أرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين (*) و نجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين } .

يبرز آنف الآيات ، منحى خطير جداً في تطور العلاقة و الأحداث فيما بين إبراهيم و أكابر قومه ، من حيث يبادر إبراهيم إلى عملية تحطيم و تكسير للأصنام التي اتخذها قومه ، آلهة لهم و عكفوا عليها عابدين .

لكن إبراهيم كان قبل ذلك قد جادل قومه في قضية تلك الأصنام و نهاهم عن عبادتها ، و ذلك من خلال جدال عقلاني منطقي .. و لما لم يلقَ آذاناً صاغية ، قام بإنذارهم و تهديدهم بأنه سيقوم بالإساءة إلى هذه الأصنام ، بطريقة من الطرق .

و فعلاً يقوم إبراهيم بتنفيذ وعيده ، لكنه يعتمد أسلوباً ذكياً ، ينطلق من مبدأ كفر قومه أنفسهم ، و شركهم بالرحمن رب العالمين .. فيقوم بتحطيم الأصنام كلها ما عدا أكبرها شأناً و قيمة لدى قوم السوء هؤلاء .

إن مبادرة إبراهيم النبي ، الجريئة النادرة ، ربما كانت نابعة من مبادرته هو بالبحث عن الرحمن رب العالمين ، و كدحه إليه كدحاً ، بالتأمل و التدبّر و التفكر ، فكان أن هداه الرحمن رب العالمين إلى الحق المبين و الصراط المستقيم و أراه ملكوت السماوات و من ثم أراه كيف يحيي الموتى ، فلم يعد إبراهيم بعدها يخشى خاشية و يخاف مخيفة ، فكان أن تشجَّع و قام بفعلته الكبرى تلك و التي كان من أثرها ، الحكم عليه بالإعدام من قِبل كبار قومه ، عن طريق الموت حرقاً ، لكن الرحمن رب العالمين ، قد أنجاه من النار و أنزل معجزة كبرى مبصِرة رآها الشهود و الحضور عياناً .

و ليس أبلغ من قوة جرأة إبراهيم النبي في تحديه لكبار قومه و عدم خشيته منهم .. تلك الجرأة المرتبطة بقوة إيمانه بالرحمن رب العالمين ، سوى ثباته و رباط جأشه حين حُكِمَ عليه بالموت ، و طُلِب منه أن يعود لملة قومه مقابل العفو عنه ، فأبى إلا التسليم للرحمن رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين } .

هي رباطة جأش و قوة إيمان ، جعلت إبراهيم النبي ، يعلن حتى عداءه الواضح و الصريح لأبيه و قومه و يتبرأ منهم ، بعدما رأى ما رآه من الحق الصريح المبين ، من آي الرحمن ربه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ قال إبراهيم لأبيه و قومه إنني براء مما تعبدون (*) إلا الذي فطرني فإنه سيهدين (*) و جعلها كلمةً باقيةً في عقبه لعلهم يرجعون } .

هو منهج البراء و العداء لكل ما هو شرك بالرحمن رب العالمين ، سببه ذلك الإيمان الكبير و القناعة الراسخة عند إبراهيم ، فكان أن قاده ذلك كله إلى تعميم ذلك العداء و البراء ، و جعله قانوناً في إخلاص الدين للرحمن رب العالمين ، و هو ما أخبرَت عنه و ثبتته الآيات القرآنية التالية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم و الذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم و مما تعبدون من دون الله كفرنا بكم و بدا بيننا و بينكم العداوة و البغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك و ما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا و إليك أنبنا و إليك المصير (*) ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا و اغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم (*) لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر و من يتول فإن الله هو الغني الحميد } .

إذن .. فقد جعل الله سبحانه و تعالى ، عمل إبراهيم هذا ، و أسلوبه ، أسوة حسنة لمن أراد الاقتداء بملة إبراهيم .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله و اتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (*) إنما تعبدون من دون الله أوثاناً و تخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق و اعبدوه و اشكروا له إليه ترجعون (*) و إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم و ما على الرسول إلا البلاغ المبين (*) أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير (*) قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير (*) يعذب من يشاء و يرحم من يشاء و إليه تقلبون (*) و ما أنتم بمعجزين في الأرض و لا في السماء و ما لكم من دون الله من ولي و لا نصير (*) و الذين كفروا بآيات الله و لقائه أولئك يئسوا من رحمتي و أولئك لهم عذاب أليم (*) فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (*) و قال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضاً و مأواكم النار و ما لكم من ناصرين (*) فآمن له لوط و قال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم } .

يبين آنف الآيات ، صورة نمطية أخرى لأسلوب آخر في جدال إبراهيم مع قومه ، إذ يحدثهم عن الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، و كيف يعبدون من دونه آلهة افتروها و اختلقوها اختلاقاً و أنها لا تملك لهم شيئاً .. إما لأنها

غير موجودة بالأساس و إما لأنها أشخاص مخلوقين مثلهم ، هم بحاجة إلى رحمة الله سبحانه و تعالى ، و إما لأنها أشخاص ماتوا و هلكوا من أمد .

و قد جادل إبراهيم قومه بالحسنى التي أخبرهم فيها عن اليوم الآخر و كيف أنهم عندما يحضرون العذاب الحق و مصير السوء الحق ، سوف ينكرون بعضهم البعض و يسبّون بعضهم بعضاً .. فكان لهذا الأسلوب على ما يبدو ، شيئاً من تأثير ، فكان أن آمن بإبراهيم ، بعض قومه ، و منهم لوط الذي تبعه و هاجر معه .

هنا تبرز أول إشارة ، ربما تكون غريبة بعض الشيء ، و هي أنه و بعد أن نصر الله سبحانه و تعالى ، عبده إبراهيم على قومه و أخزاهم ، لم يوقع بهم العذاب المدمر كما فعل مع أسلافهم السوء ، لا بل أنه أمر إبراهيم بترك هذه المنطقة التي هو فيها و هجر من فيها ، و الانتقال إلى منطقة أخرى ؟؟؟!!! .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إن من شيعته لإبراهيم (*) إذ جاء ربه بقلب سليم (*) إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون (*) أئفكاً آلهةً دون الله تريدون

(*) فما ظنكم برب العالمين (*) فنظر نظرةً في النجوم (*) فقال إني سقيم (*) فتولوا عنه مدبرين (*) فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون (*) ما لكم لا تنطقون (*) فراغ عليهم ضرباً باليمين (*) فأقبلوا إليه يزفون (*) قال أتعبدون ما تنحتون (*) و الله خلقكم و ما تعملون (*) قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم (*) فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين (*) و قال إني ذاهب إلى ربي سيهدين (*) رب هب لي من الصالحين (*) فبشرناه بغلام حليم (*) فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين (*) فلما أسلما و تله للجبين (*) و ناديناه أن يا إبراهيم (*) قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين (*) إن هذا لهو البلاء المبين (*) و فديناه بذبح عظيم (*) و تركنا عليه في الآخرين (*) سلام على إبراهيم (*) كذلك نجزي المحسنين (*) إنه من عبادنا المؤمنين } .

يبين آنف الآيات ، صورة مختلفة عن دعوة إبراهيم ، قومه إلى الرحمن رب العالمين ، كما يبين حالة جديدة من حالات التعامل الرباني مع الأنبياء و الرسل ، ألا و هي الابتلاء الصارم الصعب الذي ربما لم يسبق له مثيل من قبل ، من حيث يظن إبراهيم أنه يتوجب عليه أن يذبح ابنه الوحيد ، إسماعيل قرباناً لله سبحانه و تعالى ، فيؤكد له ابنه إسماعيل ذلك و يطلب منه تنفيذ الأمر . لكن الله سبحانه و تعالى ، يفتدي اسماعيل و ينهى إبراهيم عن فعل ذلك .

لقد جاءت حادثة الذبح ، بعد النجاة من القوم السوء ، و هي ربما تكون تعبيراً عن الامتحان و الاختبار الشديدين القاسيين ، و اختبار صلابة الإيمان الحق .. و لا يُعرف بالضبط ما إذا كانت مرتبطة بحادثة طلب إبراهيم من الرحمن رب العالمين ، أن يريه كيفية إحياء الموتى .

بسم الله الرحمن الرحيم { قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين } .

لكل ما سبق من أحداث و اختبارات و شدائد ، جعل الله سبحانه و تعالى ، إيمان إبراهيم ، مثلاً أعلى للناس ، يُحتذى .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (*) فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم و أوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط (*) و امرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب (*) قالت يا ويلتى أألد و أنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب (*) قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد (*) فلما ذهب عن إبراهيم الروع و جاءته البشرى يجادلنا في

قوم لوط (*) إن إبراهيم لحليم أواه منيب (*) يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك و إنهم آتيهم عذاب غير مردود } .

تبدأ المرحلة الثالثة من حياة النبي إبراهيم ، و هي ظهور الملائكة الكرام ، له و نقل البشرى له و لامرأته ، بطفل هو إسحاق .. كذلك تتخلل المرحلة الثالثة من حياة إبراهيم النبي ، ظهور قوم لوط و هلاكهم تدميراً على يد الملائكة الكرام ، من قِبَل الرحمن رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم { و نبئهم عن ضيف إبراهيم (*) إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون (*) قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم (*) قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون (*) قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين (*) قال و من يقنط من رحمة ربه إلا الضالون (*) قال فما خطبكم أيها المرسلون (*) قالوا إنا أُرسِلنا إلى قوم مجرمين (*) إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين (*) إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين (*) إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون (*) فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين (*) فقربه إليهم قال ألا تأكلون (*) فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف و بشروه بغلام عليم (*) فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها و قالت عجوز عقيم (*) قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم (*)

قال فما خطبكم أيها المرسلون (*) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (*) لنرسل عليهم حجارةً من طين (*) مسومةً عند ربك للمسرفين } .

لقد ظهر في الآيات آنفة الذكر ، اقتران البشارة مع الوعيد بالعذاب و الهلاك .. و قد كان ذلك ، و لأول مرة ، عن طريق الملائكة الكرام .. إذ أنه لأول مرة يظهر دور للملائكة الكرام ، و وظيفة و مهمات تكليف .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً و اجنبني و بني أن نعبد الأصنام (*) رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني و من عصاني فإنك غفور رحيم (*) ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم و ارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال و من ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين (*) و إذ جعلنا البيت مثابةً للناس و أمناً و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى و عهدنا إلى إبراهيم و إسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين و العاكفين و الركع السجود (*) و إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً و ارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله و اليوم الآخر قال و من كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار و بئس المصير (*) و إذ يرفع إبراهيم القواعد من

البيت و إسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (*) ربنا و اجعلنا مسلمين لك و من ذريتنا أمةً مسلمةً لك و أرنا مناسكنا و تب علينا إنك أنت التواب الرحيم (*) ربنا و ابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة و يزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم (*) و من يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه و لقد اصطفيناه في الدنيا و إنه في الآخرة لمن الصالحين (*) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين (*) و وصى بها إبراهيم بنيه و يعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا و أنتم مسلمون } .

في الآيات آنفة الذكر ، ربما تتجلى نهاية المرحلة الثالثة و الأخيرة من حياة النبي إبراهيم ، من حيث تم تكليفه و ولده إسماعيل ، ببناء الكعبة ، بيت الله الحرام ، و هو أمر كبير التشريف لهما ، عظيمه .. أيضاً ربما كان ذلك مكافأة لهما على قبولهما بلاء الذبح .

على أنه ما يلفت النظر و الانتباه في هذه القضية ، هو شدة قوة و تأثير عامليّ الشرك و الكفر الصريحين البواح ، من حيث أن النبي إبراهيم ، قد طلب من الرحمن رب العالمين ، و سأله عن مصير بعض من ذريته ، حينما جعله الرحمن رب العالمين ، إماماً للناس .. فأُجيبَ إنه لا يمكن لعهد الرحمن رب العالمين ، أن يصل إلى الناس الظالمة الكافرة .

كذلك الأمر في دعاء إبراهيم النبي ، الرحمنَ رب العالمين ، أن يجنّبه و يجنّب ذريته ، عبادة الأصنام ، و أن يرسل إلى ذريته من بعده ، رسلاً يهدونهم إلى الصراط الحق .. صراط الرحمن المستقيم .. و هو أمر إن دلَّ على شيء ، فإنه لا يدل إلا على شدة الكفر عند قوم السوء ، معشر إبراهيم .

أيضاً كذلك الأمر في توصية إبراهيم لبنيه ، ألّا يعبدوا الأصنام و لا يكونوا عليها من العاكفين ، لهوَ دليل على شدة خوف إبراهيم على أبنائه من بعده ، أن يتم التأثير عليهم فتزل أقدامهم بعد ثبوتها في حياته .. و ما شدة الخوف هذه إلا لشدة الكفر عند هؤلاء القوم الذين لم يهلكهم الله سبحانه و تعالى ، كما فعل بأقرانهم من قبلهم بل أبقى عليهم .. ليس ذلك فقط ، بل أن الرحمن رب العالمين قد طلب من إبراهيم الهجرة من هذه المنطقة التي يسكنها أولئك القوم ؟؟؟؟!!!!! .. و لعل أحد عوامل نشوء هذا الخوف ، هو شدة عداء والد إبراهيم أو أبيه ، له بالرغم من كل تسامح و عطف إبراهيم عليه ، لدرجة أنه اضطر في نهاية الحال و المآل ، إلى التبرؤ منه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و ما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً و طهر بيتي للطائفين و القائمين و الركع السجود (*) و أذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً و على كل ضامر يأتين من كل فج عميق (*) ليشهدوا منافع لهم و يذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها و أطعموا البائس الفقير (*) ثم ليقضوا تفثهم و ليوفوا نذورهم و ليطوفوا بالبيت العتيق } .

يشير آنف الآيات إلى ظهور شعيرة من شعائر الدين ، لأول مرة .. و هي شعيرة الحج و التي هي في أساسها ، عبارة عن وليمة من الرحمن رب العالمين ، لعباده و للناس عموماً ، و للفقراء خصوصاً .. هي دعوة يقيمها الرحمن رب العالمين ، سنوياً لعباده و للناس جميعاً ، لزيارة بيته الحرام .. فيؤدوا شعائر و مناسك الرحمن رب العالمين ، التي أقامها لهم و يشكرون الله سبحانه و تعالى ، على ما تفضَّل به عليهم من خير و رزق و نِعَم .

لقد جاء قوم ابراهيم في الترتيب القرآني بعد قوم نوح الذين أفناهم الطوفان جميعاً ، و بعد قوم عاد و ثمود .. و كان في فنائهم و هلاكهم أن جاء بعدهم بشر جدد و بالتالي يفترض أن يكون قد ذهب كفرهم معهم أي مع قوم نوح و يفترض أيضاً في الذين جاءوا بعد ذلك ، أن يكون سيماهم الايمان و شيمتهم عبادة الرحمن .. ذلك أنهم كانوا ذرية من ركب مع نوح في السفينة و هم الأقوام المؤمنون أو الفئة التي آمنت مع نوح .

لكن ما حصل بعد ذلك هو العكس تماماً ، فقد عاد الكفر بالرحمن الى الانتشار مجدداً ، و الطغيان بشكل رهيب ربما يكون أشد وطأة مما كان عليه في الأقوام الذين سبقوا .. و في ذلك الأمر ما تستدعيه الغرابة من بني البشر الذين ما انفكوا على كفرهم دائبين .. و ربما و هو الراجح ، أننا نستطيع أن نعيد هذه النظرية أو المقولة بأسبابها إلى تلك الشجرة الخبيثة التي أكل منها آدم و زوجه .. و في صفات النفس البشرية ، السوء التي انتقلت اليهما من تلك الشجرة و أصبحت علامة فارقة في جيناتها و من ثم صفاتها .. قد أصبحت حالة دائمة في النفس البشرية .. ممتزجه مع بقية صفاتها الأخرى .. و طبقاً لذلك ، فإن الصفات البشرية الحق و الخير

قد تخضع بمجملها إلى صفتي الطمع و الغرور .. هاتان الصفتان بالرغم من كونهما صفتان من صفات السوء الأخرى في الشجرة المحرمة التي كان محرماً على آدم و زوجه أن يتناولا منها ، فإنهما ربما كانا من أشدها خطراً ، لأنهما هما الأساس في كل البلاء الذي وقع و لا يزال يقع على بني البشر .

إن ما يؤيد ذلك جميعاً ، هو أن الدعوة الى الرحمن رب العالمين لم تأتِ من رسالة تكليف ربانية ، بل كانت في مجملها عبارة عن اجتهاد فردي شخصي قائم على التفكير و الملاحظة و التحليل و من ثم الوصول إلى الحق ، و من ثم الدعوة إليه .. و هذه مفارقة جديدة غريبة في القرآن الكريم ، و التي ذكرها القرآن حينما وصف ابراهيم النبي ، بقوله ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً و لم يك من المشركين (*) شاكراً لأنعمه اجتباه و هداه إلى صراط مستقيم (*) و آتيناه في الدنيا حسنةً و إنه في الآخرة لمن الصالحين (*) ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين } .

إن ما يلفت النظر أيضاً في قضية قوم ابراهيم ، هو أنهم و بالرغم من كل ما جاءهم من معجزات تجلّت في انقاذ ابراهيم من النار فإنهم لم يؤمنوا له أبداً .. و ما آمن مع إبراهيم إلا ثلة قليلة جداً .. ربما تكون كما ذكرها

القرآن الكريم ، قد تمثلت في إنقاذ ابراهيم من النار و الحريق و جعْلْ النار باردة غير ضارة لإبراهيم .. بالإضافة إلى خسران قومه الرهان معه .. لكن على ما يبدو فإنه و نتيجة ثباتهم على كفرهم وعدم إنزال العقاب المهلك بهم ، فإن ذلك قد اضطر ربما ، ابراهيم إلى الهجرة من هذه المنطقة التي كان فيها و التي على ما يبدو قد صارت فيما بعد عصية على الايمان بالرحمن رب العالمين .. ذلك أنه و في مفارقة غريبة بعض الشيء ، فإن قوم لوط الذين سيأتي ذكرهم لاحقاً ، قد تم إهلاكهم في حين أن قوم ابراهيم الذين كانوا متزامنين معهم في الفترة و الزمن ، قد نجوا من هذا العقاب و هو ما يثير التساؤل ؟؟!!! .

لقد كان النبي ابراهيم في تجربته مع الله سبحانه و تعالى بالاعتماد هدى الله سبحانه وتعالى ، و إعمال العقل في ذلك ، مثالاً يحتذى .. و قد ضربه الله سبحانه و تعالى في القرآن الكريم وجعله تجربة ناجحة للإنسان ، و هو ما ينطبق عليه مصداق الآية القرآنية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { قل إن هدى الله هو الهدى و أُمِرنا لنسلم لرب العالمين } .

لقد كانت شعيرة الحج التي وضعها الله سبحانه وتعالى على عاتق النبي ابراهيم بعد أن أمره ببناء البيت الحرام ، كانت بداية تأسيس مرحلة جديدة من الدين لم تكن موجودة فيما سبقه من أنبياء و رسل .. فشعيرة الحج قد جاءت بناء على الأمر الإلهي الرباني ببناء البيت الحرام و إنشاء قواعده و جعله مضافة للناس .

إن هذه العملية المتمثلة في إعمار بيت الله الحرام وإقامة شعيرة الحج ، هي إشارة إلى تأسيس دين أساس ثابت جديد قَيّم يُبنى عليه كل دين بعده .. وهذا الدين هو الإسلام أي التسليم لله سبحانه و تعالى .. و هذا الدين بدأ انطلاقاً من اجتهاد النبي ابراهيم و كدحه و مبادرته الفردية في البحث عن الله سبحانه و تعالى ، فلما وجده و عرفه ، أسلم له و من هنا كانت بداية الإسلام ، حينما قال فيه القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل و في هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم و تكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة و آتوا الزكاة و اعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى و نعم النصير } .

بسم الله الرحمن الرحيم { قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين (*) قل إن صلاتي و نسكي و

محياي و مماتي لله رب العالمين (*) لا شريك له و بذلك أمرت و أنا أول المسلمين } .

إنما يتضح لنا من علاقة النبي ابراهيم مع الله سبحانه وتعالى ، و سعيه الدؤوب لمعرفة الحق ، هو أن الإنسان ، أي انسان ، إنما يستطيع بمفرده و بتفكيره العقلاني السليم و المنطقي و تدَبّره الواعي ، أن يصل إلى الحق سبحانه و تعالى .. ذلك أن الرحمن الرحيم رب العالمين و هو القائل في كتابه العزيز ، إنه يهدي إليه من سعى اليه ، و يهديه صراطاً مستقيماً ..

بسم الله الرحمن الرحيم { الله يجتبي إليه من يشاء و يهدي إليه من ينيب } .

بسم الله الرحمن الرحيم { قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين (*) يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه و يهديهم إلى صراط مستقيم } .

بسم الله الرحمن الرحيم { فأما الذين آمنوا بالله و اعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه و فضل و يهديهم إليه صراطاً مستقيماً } .

كما يتضح و لأول مرة في عهد نبوة ابراهيم ، وجود البلاء الإلهي الرحماني الصعب القاسي و الذي ربما لا يتحمله إنسان .. إذ كان البلاء الرحماني ،

على مقدار الهداية الرحمانية .. لكن و في الوقت نفسه فإن ثواب الله و حسن جزائه و أجره لعباده العاملين العابدين له حق العبادة ، يتضح من خلال ثباتهم على ما امتحنهم فيه و ابتلاهم به .. و لذلك جعل اللهُ سبحانه و تعالى ، ابراهيمَ النبي إماماً و جعل دينه و ملته ، هما دين الحق و ملة الحق .

إن ذلك كله كان مرتبطاً بوجه من الوجوه ، مع كفر قوم إبراهيم و فسادهم و فساد عقيدتهم و إصرارهم على الكفر ، رغم كل محاولات إبراهيم العقلانية و المنطقية ، لإقناعهم بدين الرحمن رب العالمين و ثنيهم عن عبادة الأصنام التي وجدت لها تربه خصبة في عقول هؤلاء .

لكن و من صورة أخرى ، تبدو لنا قضية النبي ابراهيم ، أنها اجتهاد فردي إنساني عقلي في البحث عن الله رب العالمين ، من دون أي رسالة و تكليف ، في مقابل وجود نظام سياسي مَلَكي شرس جداً .. كافر بالرحمن عدو له .

هذه صورة من إحدى أوجه صور قضية النبي ابراهيم .. فهو قد حارب قومه و سادة قومه و نظام الحكم و المُلك لدى قومه ، في دعوته إلى الرحمن رب العالمين .. تلك الدعوة التي لم يكن ليقبلها قوم السوء هؤلاء ، و كانوا يجادلون إبراهيم جدالاً كبيراً عنيفاً بدأب طويل ثم أرادوا ليقتلوه أمام أعين الناس .

لقد ذهب الملائكة الذين أتوا ابراهيم بالبشرى .. أولئك الملائكة الكرام ذهبوا ليدمروا قوم لوط الذين كانوا حضوراً بالتزامن مع قوم ابراهيم لكنهم لم يذهبوا الى قوم ابراهيم ليسوموهم سوء العذاب و العقاب و الدمار و الهلاك ، مشيئة من الرحمن رب العالمين .. مشيئة لا يُدرى ما أبعادها بالضبط .. فبقي هؤلاء القوم و بقيت المنطقة التي هم فيها ، يسكنونها بمنأى عن العذاب و الهلاك .

إننا لنرى في قضية النبي ابراهيم ، معالم دين و شرع ، جديدة مستحدثه لم تكن موجودة من قبل .. معالم تدل على شدة الكفر و الفسق عن أمر الرحمن رب العالمين و عن عبادته و طاعته ، و اتباع عبادات و تقديم طاعات أخرى .. و ذلك لا يمكن رؤيته إلا من حالة الخوف عند النبي ابراهيم من المستقبل ، و ليس من الزمن الحاضر الذي كان فيه .. هي

حالة شبيهة بحالة نوح الرسول عندما مكث في قومه ما يقارب الألف من السنين ، ثم أيقن أنه لا يمكن هدايتهم أبداً ، و لذلك دعا ربه أن يهلكهم جميعاً عن آخرهم ، لأنهم لن يلدوا إلا فاجراً كفاراً .

ربما في حالة نوح الرسول ، لم يكن هنالك دعوة للمستقبل كما هو الحال لدى النبي ابراهيم .. ذلك لأن نوح قد أدرك أن الطوفان لن يبقي على أحد من قومه السوء ، و أن الفئة الناجية الوحيدة هي الفئة المؤمنة بالرحمن رب العالمين والتي هي الثلة القليلة التي ركبت معه في السفينة .. و لذلك ربما لم يكن نوح محتاجاً إلى الخوف من المستقبل أو الغيب ، بعيده أم قريبه أو الدعوة لأجل أمور تأتي في المستقبل .

لكن النبي ابراهيم كان على حال مختلفة عن حال نوح الرسول .. ذلك أن إبراهيم النبي قد أيقن شديد كفر قومه الذين كانوا معه في تلك المنطقة و استفحال ذلك الكفر بشكل مرعب .. و لا ندري إن كانت هذه المنطقة هي شبيهة بحال الشجرة الخبيثة التي كانت السبب في إخراج آدم و زوجه من الجنة .. فهي منطقة خبيثة لا يمكن إصلاحها أبداً ، و لذلك هاجر إبراهيم النبي منها مرتحِلاً ، إما بإرادة منه أو بأمر من الرحمن رب العالمين .. و لأجل ذلك أيضاً ، دعا إبراهيمُ ، الرحمنَ ربه لأجل ذريته في المستقبل .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً و اجنبني و بني أن نعبد الأصنام (*) رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني و من عصاني فإنك غفور رحيم } .

بسم الله الرحمن الرحيم { رب اجعلني مقيم الصلاة و من ذريتي ربنا و تقبل دعاء } .

وربما لأجل ذلك أيضاً ، أراد الرحمن رب العالمين ، إقامة بيت له يؤمه الناس ، ليبقى آية ثابتة لهم و تدلهم على طريق الحق و النهج الحق .. و لربما أيضاَ و من هذا المنطلق ، جاءت شعيره الحج التي فرضها الله سبحانه و تعالى على عباده الأقوياء المتمكنين الميسورين ليقوموا بإطعام الفقراء و المحتاجين و المساكين نيابة عنه و تكليفاً و توكيلاً منه لهم .. فالطعام هو طعام الله ، و الرزق هو رزق الله رب العالمين ، خالق كل شيء ، مالك كل شيء ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له في شيء ومن شيء .

إن هذه الدلائل الإيمانية و المناسك الشرعية الفقهية ، تدل في وجه من وجوهها ، على شدة الكفر و الفسق و الفساد عند الطرف الآخر ، و على أن الكفر قد وصل إلى حال مستعصية قد يصعب إزالتها أو استئصالها .. فهل مما سبق جميعاً ، قد تكون دلالة مكان إقامة بيت الله ،

الحرام في مكان ناءٍ معزول عن الناس و العمران ، و ليس في المنطقة التي انتصر فيها إبراهيم على قومه الذين أرادوا حرقه .. دليلاً على استحالة إصلاح هؤلاء القوم ، و ترْكَهم ليوم تشخص فيه الأبصار ؟؟!! ذلك أمر علمه عند الرحمن رب العالمين .

قوم لوط

جاء قوم لوط في الترتيب القرآني ، في المرتبة الخامسة من أقوام السوء ، عِلماً أنهم كانوا متواجدين زمنياً في الحيّز نفسه و في فترة واحدة مع قوم إبراهيم .

على إن ما يلفت الانتباه و النظر في حال قوم لوط ، هو ظهور حالات و ممارسات جديدة من الفساد و الإفساد و عصيان للرحمن رب العالمين .. من حيث أن قوم السوء هؤلاء ، لم يكونوا كسابق أمثالهم من أقوام السوء في القرآن الكريم ، من حيث الكفر أو عبادة الأصنام و ما شابه ، أو رفض دعوة رسول مرسَلٌ لهم مِن قِبَل الرحمن رب العالمين ، ذلك أن لوطاً لم يكن رسولاً إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن رب العالمين .. فهم لم يكونوا على ذلك صراحة .. أما مِن منطلق المنظور القرآني ، فلم تَرِد آية في القرآن الكريم تفيد حول ذلك الأمر .

لكن و بحسب ما أورده القرآن الكريم ، فإن قوم لوط كانوا يعملون الخبائث و الفواحش التي لم يفعلها أحد من قبلهم من أقوام السوء فكانوا يضاجعون الرجال و يكتفون بهم عن النساء .. كما أنهم كانوا أيضاً يقومون بأشياء منكَرَة ، علانية و في المجالس ، كإطلاق الغازات و الروائح الكريهة من أبدانهم ، و إظهار عوراتهم بشكل طبعي اعتيادي علني (هو أمر شبيه ربما بما يسمى نادي العراة الآن) بالإضافة إلى كونهم كانوا يقطعون السبيل و يعتدون على من يعبر فيهم أو بجوارهم .

و بالرغم من ذلك فقد دمّر اللهُ سبحانه و تعالى ، عليهم و أهلكهم بحمم ملتهبة أسقطها عليهم من السماء فلم يبقَ منهم أحد .

لقد ورد ذكر قوم لوط في القرآن الكريم ، في الآيات التالية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { كذبت قوم لوط بالنذر (*) إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر (*) نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكر (*) و لقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (*) و لقد راودوه عن

ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي و نُذرِ (*) و لقد صبحهم بكرةً عذاب مستقر (*) فذوقوا عذابي و نُذرِ } .

يشير آنف الآيات ، إلى أن قوم لوط قد أنكروا إنذار لوط لهم ، و وعيده إياهم بالعذاب و العقاب من الله سبحانه و تعالى ، ما لم يكفّوا عن القيام بخبائثهم المعهودة لديهم .. و لم يكتفوا بذلك بل حاولوا الاعتداء على الملائكة الكرام ضيوف لوط ، ظناً منهم أنهم بشر مثلهم ، لكن الملائكة الكرام المرسلين إلى إبراهيم و زوجه ، بالبشرى ، و إلى قوم لوط بالعقاب المدمر المهلك ، قد أعموا أبصار قوم السوء هؤلاء ، و قاموا بتدمير المدينة الرئيس لهم ، فجر اليوم التالي .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (*) إنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون (*) و ما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (*) فأنجيناه و أهله إلا امرأته كانت من الغابرين (*) و أمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة و أنتم تبصرون (*) أئنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون (*) فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم

إنهم أناس يتطهرون (*) فأنجيناه و أهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين (*) و أمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين } .

هنا ، أوضح لوطٌ صراحةً ، تصرفات قومه التي أثارت غضب الرحمن رب العالمين ، عليهم ، و أنبأهم بأن ما يفعلونه من خبائث ، و يأتونه من منكر ، لم يفعله أحد من قبل .. و أن هذا الشذوذ الأخلاقي الذي يمارسونه علانية و من دون مبالاة ، قد تجاوزوا به ، حدود المعقول و حدود الأعراف الإنسانية و البشرية .

لكن هؤلاء القوم لم يكن من أمرهم إلا أن تمادوا في طغيانهم و عتوهم في الفساد ، و طالبوا بعضهم البعض أو كبراءهم في الرذيلة و الضلال ، أن يُخرِجوا لوطاً و أهله من بلدتهم ، لأنهم يمارسون الطهارة في أعمالهم و سلوكهم .. و هذا ربما يكون إشارة على أن هذه النجاسات التي كانوا يمارسونها ، ربما تكون ذات طابع عقائدي معين ؟؟!! و لذلك جاءهم العقاب الإلهي المُهلِك المتمثّل بحمم ملتهبة من السماء أفنتهم عن آخرهم بما فيهم امرأة لوط التي كانت منهم ، و نجاة لوطاً و بقية أهله من هذا العقاب المدمر .

بسم الله الرحمن الرحيم { كذبت قوم لوط المرسلين (*) إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون (*) إني لكم رسول أمين (*) فاتقوا الله و أطيعون (*) و ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (*) أتأتون الذكران من العالمين (*) و تذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون (*) قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين (*) قال إني لعملكم من القالين (*) رب نجني و أهلي مما يعملون (*) فنجيناه و أهله أجمعين (*) إلا عجوزاً في الغابرين (*) ثم دمرنا الآخرين (*) و أمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين (*) إن في ذلك لآيةً و ما كان أكثرهم مؤمنين (*) و إن ربك لهو العزيز الرحيم } .

يبين آنف الآيات القرآنية ، أن رسالة لوط الرسول إلى قومه ، لم تكن رسالة شرائع و مناسك و عبادات و توحيد الرحمن رب العالمين ، بل كانت رسالة إنذار و تحذير لهم ، من موبقات أعمالهم و خبائث تصرفاتهم و ممارساتهم .. لكن قوم السوء هؤلاء قد أنكروا رسالة التهديد و الوعيد الإلهية لهم ، بالكف عن خبائث أعمالهم و تصرفاتهم ، بالرغم من أن لوطاً قد أخبرهم إنه مرسل من الرحمن رب العالمين ، و إنه لا يريد منهم أي لقاء مادي أو معنوي على إنذاره لهم .. كما أخبرهم بسوء عملهم و إنهم يكتفون بمضاجعة الرجال و لا يقربون نساءهم ، و في ذلك دلالة قوية ربما إلى أن تصرفاتهم تلك قد تكون نابعة من منطلق عقائدي معين ، بخاصة بعد إصرارهم على ما يفعلونه و رفضهم لكل إنذار سماوي رحماني ، و

تهديدهم للوط و عائلته بالطرد ، فكان أن عاجلهم الرحمن رب العالمين ، العقاب المدَمِّر المهلك و أفناهم عن آخرهم و جعلهم كما مَن سبقهم مِن قوم سوء ، عبرة لمن يأتي بعدهم من أقوام و أنجى لوط و عائلته ما عدا امرأته التي كانت من قوم السوء هؤلاء .

لكن تلك الآيات توضح أن أكثر الناس بعد ذلك لن يؤمنوا بالرغم من كل ما حصل لأقوام السوء من قبلهم .. و تشير الآيات أيضاً إلى أن الرحمن رب العالمين ، بالرغم من عقابه المدمر فإنه يبقى هو الرحيم بعباده الممتنِع عن تأثيرهم عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم و ضاق بهم ذرعاً و قال هذا يوم عصيب (*) و جاءه قومه يهرعون إليه و من قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله و لا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد (*) قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق و إنك لتعلم ما نريد (*) قال لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركن شديد (*) قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل و لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب (*) فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها

سافلها و أمطرنا عليها حجارةً من سجيل منضود (*) مسومةً عند ربك و ما هي من الظالمين ببعيد } .

ينتقل بنا آنف الآيات القرآنية ، مباشرة إلى قدوم الملائكة الكرام ، من مكان سكنى إبراهيم إلى قرية لوط ، و نزولهم في داره .. لكن ذلك قد أحدث بلبلة كبيرة و ضيقاً لدى لوط الذي توجس عليهم من قومه السوء (إذ لم يكن يعرف أنهم ملائكة رسلٌ كرام) و قد صدق حدسه إذ أقبل قومه السوء مسرعين إليه يريدون يمارسوا الفاحشة مع ضيف لوط ، و في ذلك دلالة جديدة على سوء قوم لوط و خبثهم إذ أنهم لم يرقبوا حتى حرمة ضيافة الضيف .

هنا ، يضطر لوط إلى أن يعرض على قومه السوء ، بناته ليفتعلوا بهن ، فقط ليمنع الأذى عن ضيوفه الكرام الذين لم يتعرف على هويتهم الحقيقة بعد ، لكن قومه يرفضون ذلك و يقولون له كلاماً غريباً بعض الشيء ، لا يدل إلا على أن لهؤلاء القوم عقيدة معينة على ما يبدو ، إذ يخبرونه أنهم لا حق لهم في بناته ؟؟!! و يخبرونه أيضاً إنه يعرف تماماً ماذا هم يريدون بالضبط ، و في ذلك العجب العجاب ؟؟؟!!! .

عند ذلك ، يتجه لوط إلى ضيوفه و يتمنى لو أنهم كانوا من القوة بحيث يمنعون عنه و عنهم هؤلاء القوم أو لو أنه كان في مكان منيع حصين من هؤلاء القوم .

هنا أيضاً ، يكشف ضيوف لوط ، له ، عن هوياتهم الحقيقية و يخبرونه أنهم رسل من قِبَل الرحمن رب العالمين ، و يطمئنونه ألا يخاف ثم يطلبون منه مغادرة المكان ، قبيل الفجر ، مع أهله و أن لا يلتفت أحد منهم إلى الخلف حيث سيتم تدمير مدينة قوم لوط في الفجر الباكر ، ما عدا امرأته لأنها كانت من قوم السوءِ هؤلاء ، و سوف ينالها مثل ما ينالهم .

و بالفعل تم تدمير المدينة بمن فيها ، بحمم نارية ملتهبة ، و كان أن انقطع دابر قوم لوط .

بسم الله الرحمن الرحيم { قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (*) إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين (*) إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين (*) فلما جاء آل لوط المرسلون (*) قال إنكم قوم منكرون (*) قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون (*) و أتيناك بالحق و إنا لصادقون (*) فأسر بأهلك بقطع من الليل

و اتبع أدبارهم و لا يلتفت منكم أحد و امضوا حيث تؤمرون (*) و قضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين (*) و جاء أهل المدينة يستبشرون (*) قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون (*) و اتقوا الله و لا تخزون (*) قالوا أولم ننهك عن العالمين (*) قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين (*) لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون (*) فأخذتهم الصيحة مشرقين (*) فجعلنا عاليها سافلها و أمطرنا عليهم حجارةً من سجيل (*) إن في ذلك لآيات للمتوسمين (*) و إنها لبسبيل مقيم (*) إن في ذلك لآيةً للمؤمنين } .

يقدم آنف الآيات ، صورة أخرى عن لقاء الملائكة الكرام مع إبراهيم و من ثم لقائهم مع لوط ، الذي لم يتعرف عليهم بداية الأمر و أنكرهم مبدياً استياءه من وجودهم في هذه المدينة الكريهة ، لكنهم أخبروه بهوياتهم الحقيقية ، و لماذا هم موجودون هنا ، و ما هو العقاب الإلهي الرباني الذي حُقَّ على أهلها و الذي سوف سيقع عليهم و سوف يبيدهم عن بكرة أبيهم ، صباح اليوم التالي .

ثم تعطي تلك الآيات صورة أخرى عن تهافت قوم لوط إلى داره بمجرد سماعهم خبر وجود ضيوف لديه ، و كيف حاول لوط ثنيهم عن الإساءة لضيوفه و ثنيهم عن خرق قوانين و أصول الضيافة عند الناس كافة ..

لكنهم ذكّروه بأنهم قد حذروه مسبقاً من التعاطي مع الغرباء أو استقبالهم من دون علم أهل المدينة ، و في ذلك إشارة إلى وجود شيء من قوننة هذه الفاحشة لدى هؤلاء القوم .

لكن لوط و في محاولة أخيرة منه لحماية ضيوفه الرسل الكرام الذين ظنهم بشراً مثله ، يعرض بناته على قومه ليفعلوا بهم مثل ما يفعلون بالرجال ، مقابل أن يتركوا ضيوفه و شأنهم .. لكن الآيات القرآنية تخبرنا إن قوم السوء هؤلاء ، قد وصلوا إلى درك من ارتكاب الخبائث و الفواحش ، قد غابت فيها عقولهم عنهم و صاروا كالبهائم العجماء ، و لذلك وقع عليهم العقاب المدمِّر الذي قلب مدينتهم رأساً على عقب و أتاها بحمم نارية ملتهبة دمرت المدينة بمن فيها ، تماماً ، و تركت آثار المدينة و دمارها ، في أماكن مأهولة عمرانياً ، كعلامات و دلائل باقية لكل من يريد التأمل و التفكر و لكل من يريد الإيمان بالرحمن رب العالمين و تقواه .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (*) أئنكم لتأتون الرجال و تقطعون السبيل و تأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين (*) قال رب انصرني على القوم

المفسدين (*) و لما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين (*) قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه و أهله إلا امرأته كانت من الغابرين (*) و لما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم و ضاق بهم ذرعاً و قالوا لا تخف و لا تحزن إنا منجوك و أهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين (*) إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون (*) و لقد تركنا منها آيةً بينةً لقوم يعقلون } .

يورد آنف الآيات القرآنية ، صورة نمطية أخرى عن علاقة لوط بقومه ، إذ تتحدث عن إنذار لوط لقومه السوء ، قبل أن يحق عليهم قول الرحمن رب العالمين ، بالعذاب و العقاب ، من حيث يخبرهم لوط إن ما يفعلونه من شذوذ في العلاقات الجنسية و ما يقترفونه من خبائث ، لم يفعله أحد من البشر قبلهم ، و هذه إشارة و دلالة على أن هؤلاء القوم كانوا يؤسسون للشذوذ و للفواحش المقيتة ، في العا لم كله .

لكن هؤلاء القوم و في إشارة إلى أنهم لم يكونوا يرون في أعمالهم أي عيب أو منكر ، طلبوا من لوط أن يأتيهم بعذاب من الله سبحانه و تعالى ، ما دام هو صادقاً في ادّعائه .

بعد ذلك ، يبدو و من سياق الآيات القرآنية أن الرحمن رب العالمين ، قد أصدر حكمه في عقاب هؤلاء القوم و دمارهم ، و أصدر أمره في إصلاح حال إبراهيم النبي و امرأته .. فكان أن أرسل الملائكة الكرام ، بدايةً إلى إبراهيم ليبشروه في حمل امرأته العقيم و قدوم غلام لهما ، ثم إخباره بذهابهم إلى حيث قوم لوط لإنزال العقاب الإلهي بهم .. فيخبرهم إبراهيم إن لوطاً موجود في المدينة و أنه لا يقترف ما يقترفه قومه السوء .. فيخبره الملائكة الكرام إنهم يعرفون ذلك و إنهم يعرفون بمن يوقعون العذاب ، و سوف ينجون لوطاً و أهله ما عدا امرأته ، و إنهم سيعاقبون قوم لوط بحمم ملتهبة من السماء تهوي عليهم فتبيدهم عن آخرهم و أنهم سوف يكونون عبرة لكل معتبِر بعدهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إن لوطاً لمن المرسلين (*) إذ نجيناه و أهله أجمعين (*) إلا عجوزاً في الغابرين (*) ثم دمرنا الآخرين (*) و إنكم لتمرون عليهم مصبحين (*) و بالليل أفلا تعقلون } .

تخبر الآيات القرآنية آنفة الذكر إن لوطاً هو من الرسل ، بالرغم من أنه ليس برسول حامل لرسالة شريعة و أحكام ربانية ، لكنها رسالة إنذار تحذير و وعيد من الرحمن رب العالمين لينتهوا عن خبائثهم تلك .. فلما لم ينتهوا ، أنهاهم الرحمن رب العالمين ، و أبادهم عن آخرهم و قطع دابرهم

و أنجى لوطاً و أهله إلا امرأة .. ثم أشارت الآيات القرآنية بتحذير آخر للناس اللاحقين الذين يقرأون القرآن ، من فعل هؤلاء القوم ، من حيث أنها أشارت إلى مكان وجودهم الذي يعرفونه جيداً ، و طلبت منهم أن يفكروا ملياً و يعقلوا و يتعقّلوا و لا يكون مثل قوم السوء هؤلاء و لا يتبعوا خطاهم ، من حيث أنهم قد عوقِبوا و أُهلِكوا فقط كونهم كانوا يأتون الذكور .. **فاتعظوا .. فاتعظوا .. فاتعظوا يا أولى الألباب .**

بسم الله الرحمن الرحيم { و لوطاً آتيناه حكماً و علماً و نجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوءِ فاسقين (*) و أدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين } .

توضح الآيات آنفة الذكر ، قضية هامة و هي أن قوم لوط لم يكونوا على ما يبدو ، كفاراً بل كانوا فاسقين عن أمر الرحمن رب العالمين ، بما يمارسونه و يقترفونه من خبائث و يجعلونه شارعاً لغيرهم .

في قراءة أولية لقوم لوط ، يتضح لنا أن منظومة الكفر لدى الإنسان ، تقوم بتطوير نفسها مع مرور الوقت و الزمن ، و تبتكر لنفسها مظاهر جديدة غير متوقعة من الكفر و الفسق عن أمر الرحمن رب العالمين .

كما يتضح لنا أنه ليس بالضرورة أن يكون ما يثير غضب الرحمن رب العالمين ، هو الكفر به أو الشرك ، بل هو الفسق أيضاً .. ربما يكون شيء ما ، خارج تلك الدائرة .. شيء خارج دائرة الأخلاق و الأعراف الإنسانية .. شيء مستهجن غير مألوف .. شيء شاذ غير مقبول ، يثير غضب الرحمن رب العالمين ، و سخطه إلى درجة أن يدمر القوم الذين يأتون هذا الأمر ، و يفنيهم عن آخرهم و لا يبقي عليهم إلا أثراً بعد عين ، يكون عبرة لكل معتبِر يأتي بعدهم و يرى بأم العين عاقبة كل من يثير غضب الرحمن رب العالمين ، و سخطه .. عاقبة الفسق عن أمر و شرع الرحمن رب العالمين ، و ليس فقط الكفر به أو الشرك .

كما يبدو لنا أن كل جديد مبتكَر مستحدَث ، في الكفر و الفسق عن أمر الرحمن رب العالمين ، و شرعه ، هو أمر عامد متعمد ، قد يكون منظَماً ممنهَجاً عن دراية و قصد .. ليس ذلك فقط بل إن الأمر قد يكون مقصوداً أن يكون فاتحة و تأسيساً لفكر جديد في عصيان أمر الرحمن رب العالمين ، و الفسق عن أحكامه و شرائعه .

و تتضح الصورة جلية ، حال ما تظهره الآيات القرآنية ، من إصرار قوم لوط على ارتكاب خبائثهم و فواحشهم ، بالرغم من قول لوط لهم إنه لم يفعلها أحد غيرهم مِن قبل ؟؟!! و هو أمر يدل على المنكر الذي لا يقترفه الناس بطبائعهم الإنسانية أو البشرية ، بخاصة إذا علمنا أنه لم ينجرف أحد مع قوم لوط ، ممن عاصرهم أيضاً ، إلى ما يقترفونه ، و هو أمرٌ دليلٌ على اختلاق و اصطناع هذا المنكر اصطناعاً و جعله صناعة مبتكَرَة مع دوام ممارسته و الدفاع عنه و التهديد بالنيل من كل من يحاول إزالته .

و بالنظر مرة أخرى إلى العقاب الإلهي المدمِّر الذي حاق بقوم لوط و أفناهم عن آخرهم و جعلهم آية لمن بعدهم و عبرة لكل معتبِر ، و حيثية ملابساته و أسبابه .. لربما قادنا هذا الأمر إلى الشك حول وجود نية

مبطَّنة أو معلَنّة ، في تسويق هذا المنكر و نشره على العموم ، و هو أمر نجد له مصداق إشارة في القرآن الكريم ، من حيث جاء ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا و الآخرة و الله يعلم و أنتم لا تعلمون } .

فكان أمر الرحمن رب العالمين ، و قوله الحق ، في هلاك هؤلاء القوم ، درءاً لفسادهم و إفسادهم و منعاً له من الانتشار .. و في الوقت نفسه تبيان أن كل فسق عن الأعراف و الشرائع الأخلاقية التي وضعها الرحمن رب العالمين ، و أمَرَ بها حُكماً و ديناً و شرعاً ، محله سخط و غضب الرحمن رب العالمين ، و استجلاب عقابه الشديد .

إن ما يمكن استخلاصه أيضاً ، من حيثيات الآيات القرآنية التي تناولت قوم لوط ، هو الظهور الفجائي المباشر لِما كان يفعله هؤلاء القوم ، و اختصاصهم به من دون غيرهم من العالمين .. إذ أنه من المنطقي المفترض أن يكون لهذه الأعمال ، بدايات أولية فردية ، متقطِّعة و متناثرة هنا و هناك .. زمنياً و جغرافياً ، لكي يتم البناء عليها كأساس لما فعله هؤلاء القوم ، و لِما أصروا عليه و نافحوا من أجله و جعلوه بما يشبه العقيدة الثابتة الراسخة .. ذلك كله بالتزامن مع الحجج العقلانية المنطقية التي

جادلهم بها رسولهم لوط ، و ما دحضوه هم به من كلام ، ظهر في بعض عبارات الآيات القرآنية من مثل .. (هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين .. لقد علِمتَ ما لنا في بناتك من حق و إنك لتعلم ما نريد .. أولم ننهكَ عن العالمين) .

لكن و مِن الذي يبدو من تلك الآيات القرآنية أيضاً ، هو أن قوم لوط كانوا يريدون حصر ذلك الأمر بهم فقط ، ربما لجعله مشاعاً فيما بعد أو جعله منهجاً مُتّبَعاً أو لكونه لم يتم بعد و لم توضَع اللمسات النهائية عليه أو لجعله علامة فارقة خاصة بهم وحدهم .. ذلك من عبارة (أولم ننهك عن العالمين) التي قالوها للوط بعد أن عرض عليهم بناته ليكتفوا بهم و لا يقربوا ضيفه .

لقد اتضح من سياق جميع ما ورد من آيات تنزيل الرحمن رب العالمين ، أن نزعة الكفر بالرحمن العزيز القدير الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه ، و الفسق عن شرعه ، هي نزعة ثابتة متأصلة بفعل عوامل الزمن و التراكم التاريخي ، بدأت بداياتها مع الشجرة التي نُهيَ آدم و زوجه عنها ، و بذلك يكون قد اتضح أمر جديد في صفات السوء للنفس البشرية التي أيقظتها و فعّلتها تلك الشجرة ، غير صفات الطمع و الغرور و الحسد و

الأنانية .. هو الشذوذ عن الواقع الافتراضي الطبعي الذي وضعه الرحمن رب العالمين ، لا بل الاستمتاع بذلك الأمر و الذوذ و المنافحة عنه ، بالأنفس و المُهَج .

كذلك يتضح لنا أن سمات و مظاهر و أوجه الكفر بالرحمن رب العالمين ، لا تقتصر في أبعادها على الكفر و الفسق أو الشرك ، بل تغيير كل ما هو طبعي افتراضي وضعه الرحمن رب العالمين ، في النفس و الذات البشرية ، و ذلك في محاولة للتأثير على الروح الإلهية الرحمانية التي نفخها الرحمن رب العالمين ، في ذلك الكائن البشري الذي خلقه من طين .

و لذلك و بناء على كل ما سبق ، فإننا لا ندرك هذه الحقيقة و عمقها ، إلا إذا عرفنا سبب إصرار قوم لوط على ما هم عليه و ما اختلقوه و ابتدعوه و لم يسبقهم إليه أحد من العالَمين .. أو يكون العكس مقبول و موجِب أيضاً .. من حيث أن إصرار قوم لوط على ما اختلقوه و ما فعلوه و دفاعهم عنه و تهديدهم للوط و أهله بالطرد و حتى القتل ، لمجرد ثنيه لهم عنه و نهيهم عما يفعلونه ، هو ما يقود إلى تلكم الحقيقة .

إن الطبع الإنساني للنفس البشرية ، هو صفة افتراضية إلهية ربانية رحمانية ، وضعها الرحمن رب العالمين ، في الكائن البشري المخلوق من طين ، و الذي بسببها أمر الملائكة بالسجود له ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين (*) فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين } .

و التي بسببها أيضاً جعل الرحمن رب العالمين ، هذا الكائن الإنساني ، خليفة مستخلَفاً ، في الأرض ، بالرغم من استغراب الملائكة لذلك و اعتبارهم أن هذا الكائن بطباعه البشرية ، غير مؤهلاً لذلك ، لكن الرحمن رب العالمين ، يوضح لهم سبب ذلك ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفةً قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون (*) و علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (*) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (*) قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات و الأرض و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون } .

لقد كان في محاولة تغيير السمات و الصفات و الطبائع الإلهية الربانية الرحمانية للنفس البشرية بما يعاكسها تماماً ، و بما هو أدنى من طبائع البهيمة العجماء و الحيوان الأبكم .. موجِب أساس في استجلاب غضب الرحمن رب العالمين ، و إثارة غضبه و نقمته ، و من ثم قوله الحق في هلاك هؤلاء القوم و إفنائهم عن بكرة أبيهم و جعلهم عبرة دائمة عبر التاريخ و الزمن ، لكل معتبِر .

إن في قراءة تاريخية لاحقة لِما بعد قوم لوط ، يتضح لنا أن هذا الأمر قد ترسخ و انتشر و صار له سواده بين بين البشر ، بالرغم من العقاب الرهيب المدِّمر الذي حاق بمن أسسه أول أمره ، و بالرغم من بقاء آية ذلك العقاب الإلهي حتى يومنا هذا .

لقد بادَ قوم لوط و قطَعَ الرحمن رب العالمين ، دابرهم .. و تُرِك قوم إبراهيم بالرغم من مزامنتهم لقوم لوط ، في أمر و مشيئة إلهية لها حكمتها .

قوم شعيب ، مدين ،

جاء قوم شعيب في الترتيب القرآني ، في المرتبة السادسة من أقوام السوء ..
و قد تفَرّدَ قوم السوء هؤلاء بميزة سوء جديدة عما سبقهم من أقوام سوء ..
أما ذكرهم فقد ورد في القرآن الكريم في الآيات التالية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و إلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل و الميزان و لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين (*) و لا تقعدوا بكل صراط توعدون و تصدون عن سبيل الله من آمن به و تبغونها عوجاً و اذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم و انظروا كيف كان عاقبة المفسدين (*) و إن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به و طائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا و هو خير الحاكمين (*) قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب و الذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين (*) قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها و ما يكون

لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق و أنت خير الفاتحين (*) و قال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون (*) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (*) الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين (*) فتولى عنهم و قال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي و نصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين } .

يبين آنف الآيات القرآنية ، أن شعيب هو رسول من الرحمن رب العالمين ، إلى قومه السوء ، لكن قوم السوء هؤلاء ، لم يكن موجِب سخط الرحمن رب العالمين ، عليهم ، هو الكفر أو الشرك أو عبادة الأصنام مثلاً ، بل كان أمر ربما قد لا يخطر على بال ، ألا و هو .. وضع الرجل غير المناسب في مكان الرجل المناسب ، بالإضافة إلى قضية أخرى و هي التقييم غير العادل أو الصحيح المضبوط ، لأي شيء كان .. سواءً أكان بالتجارة أو كيل البضائع و السلع و موازينها ، أم كان بتقييم الأداء و المعايير الاجتماعية أو العملية (ذات الجهد و الإنجاز) أم تقدير الأشياء الأخرى ، إنسانية كانت أم غير ذلك .

و لعلنا نلاحظ ارتباط المفهومين المومأ إليهما ، بتحذير شعيب الرسول لقومه ، بعضهما ببعض ، فهما ذوا علاقة ارتباطية منطقية ، تؤدي كل منهما للأخرى .

لكن و في تبيان معمق للنظر ، في أبعاد كلا المفهومين ، نرى أنهما إلى درجة كبيرة من الخطورة و تدمير المجتمع و نظام الحكم و الإدارة .. و لذلك جاء كلام شعيب الرسول لقومه و وعيده لهم ، من غضب الرحمن رب العالمين ، مشفوعاً بالفساد في الأرض و التخريب و الصد عن سبيل الرحمن رب العالمين ، و العوج الذي هو الفسق عن صحيح الأمور و صوابها و الذي هو جميعاً ، مرتبط بإقعاد صراط الرحمن رب العالمين (و لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين (*) و لا تقعدوا بكل صراط توعدون و تصدون عن سبيل الله من آمن به و تبغونها عوجاً و اذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم و انظروا كيف كان عاقبة المفسدين) .

على أن شأن قوم شعيب ، كان شأن من سبقهم من أقوام السوء ، إذ قاموا بتهديد شعيب و من آمن معه ، بالطرد .. فجادلهم شعيب بأن ما يقومون به من أفعال منافية للفطرة الإصلاحية البشرية ، لا يمكن لأي

إنسان عاقل أن يقوم به ، و بالتالي فهو و من معه لا يمكن لهم العودة إلى تلك الممارسات المدمرة لكيان المجتمع و المانعة لخيره و تقدمه .

إزاء ذلك ، يطلب شعيب من الرحمن ربه ، النجاة من قوم السوء هؤلاء ، بعد تهديدهم له و لمن معه ، فيستجيب الله سبحانه و تعالى ، له و يرسل الصاعقة المدمِرَة المميتة ، على هؤلاء القوم ، فلا تُبقي منهم أحداً .. و يقف شعيب على آثار قومه و إطلالهم ، و يناجيهم اعتبارياً إنه قد قدم لهم النصيحة السديدة الصائبة لكنهم تجاهلوها و أغفلوا عقولهم عنها .. و هنا يربط شعيب ، تصرفات قومه البائدين و ممارساتهم ، بالكفر بالرحمن رب العالمين ، و هذا دليل على شدة سوء عمل هؤلاء القوم و فِعالهم .

بسم الله الرحمن الرحيم { كذب أصحاب الأيكة المرسلين (*) إذ قال لهم شعيب ألا تتقون (*) إني لكم رسول أمين (*) فاتقوا الله و أطيعونِ (*) و ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (*) أوفوا الكيل و لا تكونوا من المخسِرين (*) و زنوا بالقسطاس المستقيم (*) و لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تعثوا في الأرض مفسدين (*) و اتقوا الذي خلقكم و الجبلة الأولين (*) قالوا إنما أنت من المسحرين (*) و ما أنت إلا بشر مثلنا و إن نظنك لمن الكاذبين (*) فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من

الصادقين (*) قال ربي أعلم بما تعملون (*) فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم (*) إن في ذلك لآيةً و ما كان أكثرهم مؤمنين (*) و إن ربك لهو العزيز الرحيم } .

يبين آنف الآيات القرآنية هنا ، صورة أوضح قليلاً .. إذ توضح هذه الآيات أن شعيباً هو من المرسَلين ، أي هو رسول من الرحمن رب العالمين ، إلى قومه .. و لا يرسل الرحمنُ رب العالمين ، رسولاً إلا لأمر جَلَل خطير .. أمر فيه وعد و وعيد .

لقد أوضح شعيب لقومه أن ما يفعلونه ، هو مثار لجلب سخط الله سبحانه و تعالى ، و مدعاة لغضبه و عقابه ، و أن عليهم أن يتقوا الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، في الابتعاد عن إنقاص الناس حقوقها و بخْسها أشيائها و وضعِ الرجل غير المناسب في مكان الرجل المناسب .. و إن ذلك الذي يفعلونه ، هو بمنزلة العثي فساداً في الأرض جميعاً .. و أن عليهم أن يخافوا الرحمن رب العالمين و يتجنبوا سخطه و عقابه و غضبه ، فهو الذي خلقهم ، هم و الأقوام الذين قبلهم ، منهم من أبقاهم و منهم من أفناهم .. لكن قوم السوء هؤلاء ينكرون على شعيب نصحه لهم و يتهمونه أنه من الذين يتعاطون بالسحر مع الجان لأنه ليس إلا بشر مثلهم

و تِبعاً لذلك فهو كاذب في أقواله .. و بناء عليه ، تحَدّوه أن يأتيهم بالعذاب الذي توعدهم به ، فكان أن عاجلهم الرحمن رب العالمين ، العذاب و العقاب المدمِر .. و قد جعل الرحمن رب العالمين ، ذلك العقاب المُهلِك ، دليل و علامة لمن جاء بعدهم ، و لكن الأغلبية الساحقة منهم لم يؤمنوا و لم يتعظوا بما حل بقوم شعيب ، أهل مدين .. و إن الرحمن رب العالمين ، كان في هذا العقاب المدمر ، قوياً لا يتأثر بصراخ هؤلاء القوم ، و هو في الوقت نفسه ، رحيم ببقية الناس إذ منع انتشار هذا المرض المميت للمجتمع ، من الانتشار في بقية أرجاء الأرض .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره و لا تنقصوا المكيال و الميزان إني أراكم بخير و إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط (*) و يا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط و لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تعثوا في الأرض مفسدين (*) بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين و ما أنا عليكم بحفيظ (*) قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد (*) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي و رزقني منه رزقاً حسناً و ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب (*)

و يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح و ما قوم لوط منكم ببعيد (*) و استغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود (*) قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول و إنا لنراك فينا ضعيفاً و لولا رهطك لرجمناك و ما أنت علينا بعزيز (*) قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله و اتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط (*) و يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و من هو كاذب و ارتقبوا إني معكم رقيب (*) و لما جاء أمرنا نجينا شعيباً و الذين آمنوا معه برحمة منا و أخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (*) كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود } .

يؤكد آنف الآيات ، مرة أخرى على رسولية شعيب ، برسالة من الرحمن رب العالمين ، إلى أهل مدين ، بانتهائهم عن الفساد الاجتماعي المرتبط بظلم الناس و أكل حقوقهم و امتيازاتهم ، و طمس ما أتى الله سبحانه و تعالى ، البعض منهم ، مِن مهارات و ميزات و قدرات في مجالات العمل و الفكر المختلفة .. و قد قال لهم رسولهم شعيب إن ما أبقاه الله سبحانه و تعالى ، لهم من بعد الأقوام الفانية قبلهم ، هو أفضل لهم و أسلم .

هنا يجادل أهل مدين ، شعيباً بحجة غريبة داحضة في أصلها ، و تدل إما على جهل مدقَع و أما على نفاقٍ مَرِدٍ .. إذ أنهم سألوه عما إذا كانت علاقته مع الرحمن رب العالمين ، و تواصله معه ، هما اللذان يطلبان منه أن يأمرهم بترك عبادة الأصنام و الرموز الدينية التي كان آباؤهم و أجدادهم ، و يمنعهم من أن يتصرفوا بأموالهم كما يشاؤون .

إن هذا الطارئ الإخباري الجديد الغريب في نوعه ، يشير إلى أمور عدة ..

الأمر الأول .. إن القرآن الكريم ، لم يُشِر صراحة إلى كفر قوم شعيب أو إلى أن رسالته لهم من قِبَل الرحمن رب العالمين ، كانت بسبب الكفر و لأجل الكفر .. لكن القرآن الكريم قد أشار من خلال الحجة التي قالوها لشعيب ، أن الأفعال الفاسدة المدمِرة للمجتمعات و للعلاقات الاجتماعية الإنسانية ، كانت بسبب عبادتهم الأصنام و ما ينحو إليها ، و بالتالي ، كفرهم بالرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .. أو أن ذلك بالنسبة للرحمن رب العالمين ، هو كفر لشرائعه و أحكامه ، و بالتالي هو كفر به بشكل أو بآخر .

الأمر الثاني .. إن الرحمن رب العالمين ، ينهى تماماً عن أي فعل أو اتّباع أثر فعل ، مما كان يفعله قوم شعيب و مما كانوا يمارسونه و يقترفونه ، و إن ذلك هو فسق بواح صريح ، وبالتالي هو كفر به ، نهاية المطاف .. يضاف إلى ذلك أن الرحمن رب العالمين ، ينهى تماماً عن أي فعل قد يسبب أدنى أذى أو يشكل خطورة ، لبني للإنسان و غير الإنسان ، حتى و إن كان غير مباشر صراحة بل مجرد مقدمات و تمهيد لأذى قادم أو خطر داهم فيما بعد .

الأمر الثالث .. رغبة الإنسان المنطلقة من باب الطمع و الجشع ، أن يُترَك على هواه و رغباته الأنانية و محض شهواته ، بمعزل عن قوانين الرحمن رب العالمين ، و أحكامه و شرائعه .. هو أمر يعود بنا مرة أخرى إلى قضية و مفهوم الشجرة الأساس ، التي مُنِع آدم و زوجه أن يأكلا منها أو حتى مجرد أن يقرباها .

إن ما يثبت الأمور الثلاث آنفة الذكر ، هو أن شعيباً قد ذَكَّر قومه بما حصل مع أقوام السوء من قبلهم ، و قد ذكرهم بالاسم لهم .. و هو ما يعني أن قوم السوء هؤلاء ، ما هم إلا مجرد امتداد لأقوام السوء الذين من قبلهم ، و أنهم على سوء كفرهم و فسقهم و فسادهم ، تابعون مقتدون مهتدون .. هو مصداق عملي فعلي لما ذكره القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم (*) طلعها كأنه رءوس الشياطين (*) فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون (*) ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم (*) ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم (*) إنهم ألفوا آباءهم ضالين (*) فهم على آثارهم يهرعون (*) و لقد ضل قبلهم أكثر الأولين (*) و لقد أرسلنا فيهم منذِرين (*) فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون (*) أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون (*) بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مهتدون (*) و كذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون (*) قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون (*) فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله و ارجوا اليوم الآخر و لا تعثوا في الأرض مفسدين (*) فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين } .

آيتان قرآنيتان تقدمان صورة واضحة الدلالة ، على أن عبادة الرحمن رب العالمين و طاعته ، لا تلتقيان أبداً مع الظلم و الفساد في الأرض و تخريب المجتمعات و العلاقات الإنسانية .

قوم شعيب .. قراءة فكرية

تخيل نفسك أنك عالم كبير من علماء هذا العصر ، و لديك معارف و علوم ، و لديك اختراعات هامة يمكن أن تقدم للبشرية جمعاء ، فوائد جمة و تساهم في تقدمها و تطورها ، سواء من الناحية الطبية أو الصناعية أو الزراعية .. الخ .

لكنك و بالرغم من ذلك كله ، مهمَّش معزول منبوذ عمداً .. لا يؤبه بك و لك ، و لا تظهر على أية وسيلة إعلامية ، و لا يتم تعينك في منصب يلائم ما أنت عليه من علوم و فكر ، بل تم تعيين شخص جاهل فاسد مفسد ، مكانك ، لا عمل له سوى التخريب ؟؟!! .

تخيل نفسك فناناً بارزاً مرموقاً .. رساماً مثلاً أو نحاتاً أو شاعراً أو .. أو .. الخ .. و بدلاً من تكريمك و إشهارك ، يتم عزلك و طمسك و إهمالك .

تخيل نفسك كاتباً أو مفكراً أو صاحب أفكار و إبداعات مميزة في التصميم ، لكنك تجد نفسك معزولاً مهمشاً لا حول لك و لا قوة ، محارَباً في علمك و فهمك و درايتك و مهاراتك ، فقط لأنك تمتلك تلك الميزات و المهارات .

تخيل نفسك كاتباً أو مفكراً أو لديك مواهب قيادية و فكرية عصرية ، تواكب الزمن الذي أنت فيه ، و لديك قدرات و ميزات غير متوافرة في غيرك ، و لديك من الشهادات العلمية و الخبرات العملية ، ما يجيز لك ذلك كله ، لكنك مُقصى عن أي منصب أو مكان أو شيء يمكنك من إخراج ما لديك مما سبق ، و إفادة المجتمع و الناس ، فيه .

تخيل كل ما سبق و ربما زيادة عليه ، و أنت لا تعرف لما أنت مبعد معزول مهمش ؟؟؟!!! و عن قصد و دراية و إدراك .. في مواجهة منظومة خفية أو ظاهرة ، منظمة و ممنهجة ، تحاربك و تحاول إفشالك و إقعادك ، فقط

لأنك مبدع متفوق ناجح ؟؟؟!!! و فوق ذلك كله ، يوضع مكانك شخص على النقيض و النقيض منك تماماً .. شخص فاشل ربما .. جاهل ربما .. فاسد .. مفسد .

تخيل نفسك قد تقدمت لمسابقة في مجال معين .. توظيف .. إبداع .. عمل .. شعر .. موسيقى .. تخطيط .. تنفيذ .. تصميم .. الخ .. الخ .. و كنت أنت الأفضل في ما تقدمتَ به و تستحق المركز الأول .. لكن و بالرغم من كل ذلك ، تم رفض عملك أو حصلت على درجة متدنية بعض الشيء ، و فاز غيرك ممن لا أهلية علمية و لا إبداعية ، لهم ، في المركز الأول .

تخيل و تخيل و تخيل ثم تخيل ما شاء لك الخيال أن تتخيل ، مِن فساد و عهر و قهر .. ما هو شعورك و ما هي مشاعرك ؟؟!! ما هو إحساسك و ماذا يعتمل في داخلك ؟؟!! أليس هذا هو الخراب بعينه ؟؟!! أليس هذا هو التخريب و الفساد و الإفساد بعينه ؟؟!! .

هل علمت الآن ، لماذا أهلك الرحمن رب العالمين ، هؤلاء القوم و قطع دابرهم و منع من انتشار فسادهم و إفسادهم في الأرض ؟؟!! أليست هذه رحمة من الرحمن الرحيم ؟؟!! أليس هذا ، بما رحمة من الرحمن ربك ، بك و لك ؟؟!! .

لك أن تتخيل حال مجتمع تسود فيه مثل هكذا حالات فساد و إفساد ، كيف سيكون حاله من التخلف و البؤس و الشقاء و الألم .

ماذا لو علمت أن هذا الأسلوب هو أحدث ما تبتكره أجهزة استخبارات الدول القوية ، لتدمير مجتمعات الدول المعادية لها ؟؟!! .

إن المفارقة فيما بين قوم لوط و قوم شعيب ، هي أن قوم لوط قد تم عقابهم لأجل الفواحش و الموبقات التي كانوا يفعلونها و يقترفونها ، و التي كان أساس عملها تغيير البيئة الافتراضية الأخلاقية التي وضعها الرحمن رب العالمين في النفس البشرية ، و هذا ما لم يكن عليه قوم شعيب .. ذلك أن قوم شعيب أيضاً قد تم إهلاكهم و هلاكهم لأنهم قد شذوا عن أمور اجتماعيه إنسانيه عامة ، قد لا يكون لها علاقة مباشرةِ بالفواحش و

الخبائث التي كان عليها قوم لوط .. فهم (قوم شعيب) قد قاموا بالمساس بالأسس الاجتماعية الأخلاقية المعيارية التي وضعها الرحمن رب العالمين للعلاقات الإنسانية و التعامل فيما بين بني البشر ، من حيث لا يقع ظلم أو تعدي على الحقوق فيما بين بني البشر عامةً .. و هو ما يختلف عن قوم لوط الذين قاموا بتغيير و خرق المعايير الأخلاقية الإلهية الرحمانية التي وضعها الرحمن رب العالمين كمعايير أخلاقية فطرية صائنة و ضامنة لقوام الجنس البشري و حسن سيرورته التاريخية من بدئها في الأرض إلى صيرورتها يوم الدين .. التي من خلال قوم لوط ، كان يتم فيها التعدي على أعراض الناس و تشويه الفكر الأخلاقي برمته .. و لذلك نرى أن قوم شعيب قد كانوا أخف وطأة من حيث الظاهر ، في فسادهم و فسقهم ، من قوم لوط ، و هذا ما يستوجب سؤالاً و استفهاماً عن سبب عقابهم و إهلاكهم ، كما هو الحال في قوم لوط ؟؟!! .

إن صورة ظاهرة سطحية بعض الشيء ، قد تُوهِم القارئ أو الناظر في أمر قوم شعيب .. أو ما يُعرَف بـ (أصحاب الأيكة) أنهم كانوا فقط يُنقِصون الكيل و الميزان و يبخسون الناس أشيائهم ، و التي تعني ظاهرياً ، أكل بعض حقوق الناس ، و هو أمر لا يستوجب هذا العقاب الصارم القوي جداً ، و المهلك لقوم و جماعات بأكملها .

في الواقع إنه و عند النظر و التأمل قليلاً في أمر و شأن هؤلاء القوم .. قوم شعيب .. نرى أن أثر ما فعلوه ، هو خطراً كبيراً جداً على المعايير و الاخلاق الاجتماعية و العلاقات البشرية .. فهو يدخل في باب أمرين اثنين ، كليهما أشد وطأة أيضاً على الإنسان و أشد استجلاباً لسخط الرحمن رب العالمين ، و هما الظلم و الفساد .. و إذا ما رأينا ما يحصل اليوم في المجتمعات ، من هذا الباب ، قد يتضح لنا بعضاً مِن فهم و فقه هذه القضية من منظور ما يحصل في الزمن الحالي .

إن أكبر عملية تعطيل أو أداة لتخريب المجتمعات ، هو وضع الشخص غير المناسب في مكان الشخص المناسب .. فهذا يؤدي حتماً إلى خراب المجتمع بأكمله ، و فساد الناس ، و التخريب و التعطيل .. حتى أنه يقال حسب المرويات الحالية السياسية للتاريخ السياسي البشري إنه فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، كانت بعض الدوائر الاستخباراتية التي تريد تدمير نظام دولة معادية .. كانوا يضعون الشخص غير الكفؤ ، في منصب هام ، مع وجود شخص كفؤ آخر قادراً على تسنم هذا المنصب .. و هذه العملية بحد ذاتها قادرة لوحدها على تدمير المجتمع و تأخيره و تعطيله ، و هي نوع من أشد أنواع الفساد خطورة .

كذا الأمر في بخس الناس أشياءهم ، أي مهاراتهم و قدراتهم العقلية و البدنية ، و معارفهم المفيدة للمجتمع و الدولة .. هي قضية بعضها من بعض ، و صنوان لا انفصام له .

من هنا ، و من هذا المبدأ ، ربما نستطيع أن نفهم أو ندرك خطورة قوم شعيب ، و لِما أمر الرحمن رب العالمين بإهلاكهم و تدميرهم عن آخرهم .

إن أفضل عملية قتل شخص أو تدميره ، هو أن تبخسه حق من حقوقه ، قادر بموجبه ، على الإتيان بخير المجتمع و تقدمه .. كأن يكون هذا الشخص ذكياً مبدعاً مخترعاً ذا فائدة كبيرة جداً للمجتمع و الدولة .. فيتم إحباط هذا الشخص و إفشاله و ربما قتله في بعض الأحيان أو تعطيله أو قتله معنوياً و التعتيم عليه و منعه من ممارسة أي فعل أو أثر يؤدي إلى بناء المجتمع و الدولة ، و وضع شخصاً آخراً مكانه .. شخصاً فاسداً فاشلاً جاهلاً عاجزاً مخرِباً .. و هذه العملية بحد ذاتها ، كافيه أيضاً لقتل أي مجتمع و تدميره تماماً .

مِن هنا و مِن هذا المنطلق ربما ، أراد الرحمن رب العالمين ، تدمير قوم شعيب قبل أن يقدموا هم على تدمير العلاقات البشرية و الإنسانية و تدمير المجتمعات وتعطيلها إجهاضها .

إن هذا الفساد و الإفساد ، منقطعي النظير ، لهما وجه آخر مشابه لهما أو يعدلهما في الأثر ، و هو التزييف و الخداع و التزوير .. هو أيضاً أمر ، يمكن اعتباره شيء من عملية قلب المعايير و تغيير القوانين الطبعية و حتى الطبيعية .. ذلك أمر إن ترك هملاً على سداه و مداه لا بد أن يؤدي إلى خراب اجتماعي لا أمل في إصلاحه أو تداركه .. إنه شيء شبيه بتغيير الفطرة الإنسانية بل و حتى فطرة الله سبحانه و تعالى التي وضعها في هذا الكون ، و هو الذي ذكره القرآن الكريم في بعض مواضعه قائلاً ..

بسم الله الرحمن الرحيم { بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله و ما لهم من ناصرين (*) فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم و لكن أكثر الناس لا يعلمون } .

لقد قامت سنن الرحمن رب العالمين ، و فطرته ، في أحد وجوهها على العدل و انتفاء الظلم لدى الله سبحانه و تعالى ، و لدى الإنسان بل و حتى في المنظومة الكونية نفسها ، إذ جاء في القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و ما خلقنا السماوات و الأرض وما بينهما إلا بالحق و إن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل (*) إن ربك هو الخلاق العليم } .

و قوم العهر هؤلاء (إن صحت التسمية) يريدون أن يخرقوا كل تلكم القوانين الإلهية الرحمانية الربانية الكونية و يعيثوا فساداً في الأرض بل و حتى في السماء إن استطاعوا .. و لا مصداق لذلك إلا ما ذكره القرآن الكريم بالقول الصادق ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات و الأرض و من فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون } .

لكن لابد من تساؤل حول مصداق هذا كله في القرآن الكريم ؟؟!! .

إن مصداق ذلك في القرآن الكريم ، هو ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا و جاءتهم رسلهم بالبينات و ما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين (*) ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النسل و الله لا يحب الفساد } .

هذا المصداق هو موافق تماماً للمصداق أيضاً حول قوم لوط .. ذلك أن من يبخسك حقك و مهاراتك و أهليتك في شيء ما ، أو أشياء عدة ، و يستبدل مكانك الأسوأ منك .. هو ممن يتولى في الأرض و يسعى فيها ليفسدها و يهلك الحرث و النسل .

فرعون و قومه

آثرنا في مبحثنا هذا ، أن نقدّم فرعون على قومه ، لأن فرعون بحد ذاته ، هو شخصية فريدة متفرِّدة ، في القرآن الكريم .. كيف لا و هو أكثر الشخصيات المذكورة في القرآن الكريم بعد موسى ؟؟!! إذ جاء ذكره في القرآن الكريم ، فيما ناهزَ الأربع و السبعين موضعاً .. لا بل لعلنا نزيد من الشِعر بيتاً إن قلنا إن فرعون هو أول شخصية مذكورة في القرآن الكريم .. من حيث ترتيب النزول .. و ذلك في سورة (المزمل) تحديداً ، و هي ثالث سورة في القرآن الكريم ، من حيث النزول ، إذ جاء ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً (*) فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً } .

كيف لا ؟؟!! و فرعون هو أول شخص و آخر شخص في القرآن الكريم تأتيه رسالة من الله سبحانه و تعالى ، إليه هو شخصياً قبل قومه ، إذ

جرت العادة و المتعارف عليه في القرآن الكريم ، أن يأتي رسول من قِبَل الرحمن رب العالمين ، إلى أقوام و أمم و مجتمعات بأكملها أو على الأقل ، إلى الملأ منهم .. و هو ما عبّر عنه القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا و كان حقاً علينا نصر المؤمنين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ... } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ... } .

كذلك الحال في المسيح عيسى ابن مريم ، الذي أُرسِلَ من قِبَل الرحمن رب العالمين ، إلى قومه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و رسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم } .

لكن القرآن الكريم قد استثنى موسى الرسول من ذلك إذ أرسله إلى شخص محدد بعينه ثم من بعده ، قومه .. و هي سابقة لا لاحقة لها في القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً } .

بسم الله الرحمن الرحيم { ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون و ملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { اذهب إلى فرعون إنه طغى } .

بسم الله الرحمن الرحيم { اذهب أنت و أخوك بآياتي و لا تنيا في ذكري (*) اذهبا إلى فرعون إنه طغى (*) فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى } .

و مجمل بقية الآيات القرآنية ، تأتي بصيغة مشابهة لمثيلاتها اللاتي تناولن قضية موسى الرسول مع فرعون .

كما يُلاحَظ ظهور قضية جديدة لم يسبق أن جاء مثلها فيما سبق من أقوام السوء .. و هي أن موسى الرسول لم يأتي برسالة من الرحمن رب العالمين ، لفرعون ، فقط لكي يسلم و يعبد الله سبحانه و تعالى ، فقط ، بل لكي يسمح لبني إسرائيل بالعودة مع موسى لديارهم .. أي بمعنى أنه إذا لم يقبل بدعوة الله سبحانه و تعالى ، بالطاعة و الإسلام ، فليقبل على الأقل بترك بني إسرائيل و شأنهم مع موسى .. و هو ما سوف نراه في قادم الآيات القرآنية .

لذلك و بناء عليه .. فإن شخص جاء ذكره في القرآن الكريم ، كأول اسم عَلَمْ ، قبل جميع الأنبياء و الرسل ، و قبل أي أشخاص أُخرٌ غيرهم .. و جاء اسمه كأكثر الشخصيات ذِكراً في القرآن الكريم .. لهو برأينا جدير بأن يُقَدم على قومه في المبحث و عنوانه .

إن فرعون و قومه ، هم آخر أقوام السوء المذكورين صراحة ، في القرآن الكريم ، إذ لم يُذكَر بعدهم أقوام آخرين منفصلين بحد ذاتهم في القرآن الكريم .. كما سوف نرى أن فرعون و قومه ، هم من الأقوام الذين لم يُبادوا كغيرهم من أقوام السوء في القرآن الكريم ، يضاهئهم في ذلك ، قوم إبراهيم الذين هم بدورهم لم يُبادوا .. إذن .. يتضح لنا من القرآن الكريم ،

أن قوم إبراهيم ، و فرعون و قومه ، هما فقط اللذان لم يُبادا ، و ذلك حينما بادت أقوام السوء جميعاً ، في القرآن الكريم .. و لا نعلم ما إذا بقي هذان القومان أو أحدهما إلى الآن أم تلاشيا بفعل عوامل الزمن .

قلنا إن كل قوم سوء و كفر ، كانوا يراكمون ما قبلهم من أقوام السوء ، بدءاً من النفسية المريضة في عهد آدم و انتهاء بما هو عليه آخر قوم سوء ، ألا و هم فرعون و قومه .. لذلك فقد تميز فرعون و قومه عن بقية الأقوام الأخرى التي سبقتهم ، بأنهم قد راكموا كل فسق و معاصي و موبقات تلك الأقوام ، و جمعوها بل و أضافوا عليها أشياء جديدة لم تكن موجودة في عهد مَن سَبَق .. كذلك سنرى في فرعون و قومه أن الكفر بالرحمن رب العالمين و الفسق عنه و عن شرائعه و أحكامه ، قد تطورا تطوراً كبيراً و اتخذ أبعاداً جديدة و غير مسبوقة .. إن على مستوى نظام الحكم أو تعدد المنظومة الإدارية و تعقيدها عما ذي قبل أكان ذلك أفقياً أم عمودياً .. يضاف إلى ذلك أمور عدة ، و هذا كله سوف نراه في ما ذُكِرَ عنهم في القرآن الكريم .. إذ جاء ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً (*) فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً } .

يُشهِد القرآن الكريم ، في بدايته و في أول ذكر لفرعون .. يُشهِد قوم الرسول الكريم ، محمد ، أن محمد هو رسول مرسَل لهم من قِبَل الرحمن رب العالمين ، كما تم بالضبط إرسال موسى الرسول إلى فرعون .. و هنا تُظهِر الآيتان آنفتا الذكر ، إشارة تميز بها شخصية فرعون عن غيره من الأشخاص ، من حيث لم يتميز بها أحد أيضاً ، لا من قبل فرعون و لا من بعد ، و هي أنه قد تم إرسال رسول له شخصياً بالإضافة إلى قومه ، و هو ما تحدثت عنه آيات عدة في القرآن الكريم ، نأتي عليها لاحقاً .. و لم يتحدث القرآن الكريم عن إرسال رسول إلى شخص مجرد بعينه بالإضافة إلى قومه ، سوى فرعون .. و سوف نسمي هذه العملية بـ (رسالة لشخص) .

و تخبر الآيتان آنفتا الذكر ، قومً محمد ، أن فرعون قد عصى موسى الرسول المرسَل إليه من قِبَل الرحمن رب العالمين ، و رفض دعوته ، فكان أن عاقبه الرحمن رب العالمين ، عقاباً شديداً .. و في ذلك إشارة إلى قوم محمد أن لا يخالفوا رسولهم محمد و لا يعصونه أبداً .

بسم الله الرحمن الرحيم { ألم تر كيف فعل ربك بعاد (*) إرم ذات العماد (*) التي لم يُخلق مثلها في البلاد (*) و ثمود الذين جابوا الصخر بالواد (*)

و فرعون ذي الأوتاد (*) الذين طغوا في البلاد (*) فأكثروا فيها الفساد (*) فصب عليهم ربك سوط عذاب (*) إن ربك لبالمرصاد } .

تشير الآيات آنفة الذكر ، إلى قضية جديدة مستحدثة ، تصف شخصية فرعون ، و هي الأوتاد .. و أن فرعون هذا هو ذو أوتاد .

في الواقع إن الوتد هو الاسم الذي كان يطلَق قديماً على الأداة التي تشد الخيمة عند العرب .. و هي عبارة إما عن قضيب خشبي يُغرَز في الأرض و يشد الخيمة من أحد أطرافها ، بحبل متين يساعد على إقامتها و الحفاظ على توازنها .. و إما هو سفود معدني ، يفعل الأمر نفسه .

إذن .. فالآيات القرآنية آنفة الذكر ، تشير إلى أن فرعون ، لديه أو يعتمد على مراكز قوى متعددة ، تعمل على تثبيته و تثبيت أركان حكمه .. و هي قضية لم تكن مذكورة من قبل في القرآن الكريم ، لما يختص بأقوام السوء أسلاف فرعون و آله و قومه .

أما مراكز القوى هذه المرتبطة بفرعون ، فهي لأجل الطغيان في الأرض و ممارسة الظلم الفاحش الفادح ، كذلك نشر الفساد و الإفساد .. أي أن

ذلك كله ، بحسب ما يشير القرآن الكريم ، هو لنشر الفساد و الكفر و الظلم الفادح في الأرض جميعاً .. و بالتالي .. هو حرب على الرحمن رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد جاء آل فرعون النذر (*) كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر } .

تقول تلكما الآيتان القرآنيتان إن أتباع فرعون و مواليه ، لم يُظلَموا أبداً ، فقد أرسل الله سبحانه و تعالى ، إليهم من يحذرهم منه و من سخطه و غضبه عليهم ، إن هم فسقوا عن أمره و خرجوا عن طاعته .. لكنهم أصروا على الكفر و الطغيان و الفساد ، و أنكروا كل تلكم المعجزات التي أرسلها الرحمن رب العالمين ، إليهم .. فكان لزاماً أن يأخذهم الرحمن رب العالمين ، بما اقترفوه و قدموه .

بسم الله الرحمن الرحيم { ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون و ملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (*) و قال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين (*) حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل (*) قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين (*) فألقى عصاه فإذا هي

ثعبان مبين (*) و نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين (*) قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم (*) يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون (*) قالوا أرجه و أخاه وأرسل في المدائن حاشرين (*) يأتوك بكل ساحر عليم (*) و جاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين (*) قال نعم و إنكم لمن المقربين (*) قالوا يا موسى إما أن تلقي و إما أن نكون نحن الملقين (*) قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس و استرهبوهم و جاءوا بسحر عظيم (*) و أوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون (*) فوقع الحق و بطل ما كانوا يعملون (*) فغُلِبوا هنالك و انقلبوا صاغرين (*) و أُلقي السحرة ساجدين (*) قالوا آمنا برب العالمين (*) رب موسى و هارون (*) قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون (*) لأقطعن أيديكم و أرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين (*) قالوا إنا إلى ربنا منقلبون (*) و ما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً و توفنا مسلمين (*) و قال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى و قومه ليفسدوا في الأرض و يذرك و آلهتك قال سنقتل أبناءهم و نستحيي نساءهم و إنا فوقهم قاهرون (*) قال موسى لقومه استعينوا بالله و اصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين (*) قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا و من بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم و يستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون (*) و لقد أخذنا آل

فرعون بالسنين و نقص من الثمرات لعلهم يذكرون (*) فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه و إن تصبهم سيئة يطيروا بموسى و من معه ألا إنما طائرهم عند الله و لكن أكثرهم لا يعلمون (*) و قالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين (*) فأرسلنا عليهم الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات فاستكبروا و كانوا قوماً مجرمين (*) و لما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك و لنرسلن معك بني إسرائيل (*) فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون (*) فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا و كانوا عنها غافلين (*) و أورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض و مغاربها التي باركنا فيها و تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا و دمرنا ما كان يصنع فرعون و قومه و ما كانوا يعرشون } .

يظهر آنف الآيات القرآنية ، قضية (رسالة لشخص) التي ذكرناها من قبل و التي سوف تتكرر كثيراً في القرآن الكريم ، مختصة بفرعون وحده من دون غيره من الأشخاص .

لقد تحدثت هذه الآيات عن قضية الرسل الذين سبقوا موسى إلى أقوام السوء من قبل فرعون و آله ، و هي إشارة إلى أن فرعون و قومه هم آخر أقوام السوء في القرآن الكريم إذ لم تأتِ عبارة (الذين من بعدهم) لفرعون

و آله و قومه ، أبداً بل جاءت دائماً لأقوام سبقوا فرعون و قومه .. و مِن ذلك ..

بسم الله الرحمن الرحيم { ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون و ملئه ... } .

بسم الله الرحمن الرحيم { ثم بعثنا من بعدهم موسى و هارون إلى فرعون و ملئه بآياتنا فاستكبروا و كانوا قوماً مجرمين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { مثل دأب قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم و ما الله يريد ظلماً للعباد } .

بسم الله الرحمن الرحيم { ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم } .

كذلك الأمر في عبارة (الذين من قبلهم) كانت تأتي لفرعون و قومه ، و لم تأتِ أبداً لأقوام ما بعد فرعون إلا قوم محمد .. و مصداق ذلك في القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب } .

بسم الله الرحمن الرحيم { كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم و أغرقنا آل فرعون و كل كانوا ظالمين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم و الله شديد العقاب } .

لقد خاطب موسى الرسول ، فرعونَ ، صراحة بأنه رسول مرسَل إليه من الرحمن رب العالمين ، و إنه لا يقول إلا الصدق و إنه قد قدم له و لقومه براهين و دلائل و معجزات ربانية .. و إنه إن كان فرعون لا يريد الإيمان بالرحمن رب العالمين ، فعليه على الأقل أن يترك بني إسرائيل يعودون مع موسى إلى ديارهم الأصلية .. لكن فرعون رفض كلام موسى الرسول إليه من الرحمن رب العالمين ، و طالبه بأن يقدم ما جاء به من براهين و معجزات .. و في ذلك إشارة إلى أن فرعون يتوجب أن يصدق موسى ، حال أراه تلك المعجزات .

و لم يكُ طلب موسى من فرعون ، صعباً عسيراً ، بل كان سهلاً يسيراً ، و هو أنه إذا لم يكن يريد الإيمان بالرحمن رب العالمين ، و الانصياع التام له ، فعليه أن يترك شعب بني إسرائيل يعودوا إلى ديارهم مع موسى .

لكن فرعون يأبى رافضاً طلب موسى الخفيف اليسير ، و الذي لا يشكّل أدنى عبء عليه ، و يطلب من موسى إبراز ما لديه من براهين و دلائل مادية على وجود الرحمن رب العالمين ، فيلقي موسى عصاه التي كانت معه لتتحول إلى ثعبان حقيقيّ حيّ لا شبهة و لا شك في كينونته و وجوده .. ثم بعد ذلك يسحب موسى يده بقوة من جيبه ، لتخرج بيضاء تماماً لكل من يراها عياناً و يبصرها مباشرة .

هنا يتدخل كبار حاشية و خواص فرعون ، لينقذوا الموقف أو لينقذوا فرعون من المأزق الذي وقع فيه ، فيتهمون موسى بأنه ساحر محترف للسحر و أنه لم يأتي فرعون إلا لكي يخرجه و قومه من أرض مصر .. ثم و من دون أن يتركوا لموسى فرصة الرد ، يسألون بعضهم بعضاً و بطريقة الحكم المسبق .. ما هو الحل الأمثل للتعاطي مع موسى و سحره ؟؟!! فيتدخل بعضهم الآخر مباشرة و على الفور (و كأنهم شعروا بفداحة الخطر المحدق بهم) ليطلبوا من فرعون تأجيل الرد على موسى و أن يرسل في كافة أرجاء مصر و مُدنها ، العسس لجمع و جلب كل من هو خبير بالسحر و فنونه .. فكان أن فعل فرعون ذلك و جاء إليه كبار السحرة من كل جانب .

هنا تُبرِز الآيات القرآنية أمراً لافتاً للنظر ، و هو طلب السحرة من فرعون أن يكون لهم عطاء و مكافآت في حال انتصروا على موسى .. و هذه إشارة إلى إدراكهم ضعف فرعون و الموقف الحرِج الذي هو فيه .. فكان جواب فرعون الفوري و من دون نقاش ، بالإيجاب و أن لهم مكانة رفيعة أيضاً حال ذلك .. و هي أيضاً دلالة على شعوره هو نفسه بضعفه و بفداحة الخطر الداهم له .

على إثر ذلك ، يخيّر السحرةُ موسى بالبدء بالإلقاء ، فيترك لهم موسى البدء بذلك .. و عندما يلقون عصيهم ، يتراءى للناس و الحضور ، أنها تتحرك ، من شدة قوة سحر السحرة ، فيخافون خوفاً شديداً .

و هنا يوحي الله سبحانه و تعالى ، إلى موسى أن يلقي عصاه ، فلما فعل ذلك ، تحولت إلى ثعبان كبير و بدأت تلتهم كل حبال السحرة الذين صُعِقوا لما شاهدوه و أيقنوا أن ما رأوه هو الحق المبين الذي أزال الباطل الذي اصطنعوه ، فصاروا مهزومين مطرقي رؤوسهم بخوف و عجز و خَرّوا جميعهم ساجدين للرحمن رب العالمين و هم يقولون آمنا برب العالمين الذي هو رب موسى و هارون .

إن هذا الموقف كان منعطَفاً هاماً و بارزاً بالنسبة لفرعون و آله ، و حتى بالنسبة للناس و الحضور إذ أنه في مجمل وجوهه ، كان عبارة عن مباراة و مبارزة يعلن فيها الخاسر قبوله و خضوعه للرابح .. و لا أدَل على ذلك ، من موقف السحرة أنفسهم إذ أنهم خروا ساجدين معلنين إيمانهم بالرحمن رب العالمين .. لا بل أن هذه الحادثة كانت بدورها منعطفاً حاسماً للشعب نفسه .. ذلك الشعب الذي كان مستعبَداً من قِبَل فرعون و آله و ملأه .

هذه الحادثة كانت أيضاً منعطفاً هاماً لفرعون الذي لو آمن حينها كما آمن السحرة و صدّق و أقرّ بما شاهده و رآه و لا مجال لإنكاره ، لربما كان قد كُفِّرَ عنه سيئاته و نجا كما هو حال السحرة الذي كان ذلك الحدث أيضاً منعطفاً حاسماً بالنسبة إليهم ، فأعلنوا إسلامهم و إيمانهم و خضوعهم للرحمن رب العالمين .. كذا الأمر كان هذا الحدث حاسماً للشعب المتجمهر و الذي حينها لو انتفض و ثار بوجه فرعون و حاشيته ، لكان الحال و ميزان القوى ، ربما قد تغيرا نهائياً بالنسبة إليه و نال قسطاً من حريته و كرامته لكنه على ما يبدو من سياق الآيات القرآنية ، قد خضع و خنع و استكان و سكَنَ ، فكان ذلك حافزاً لفرعون الذي كان حينها في أضعف حالاته و أوهنها ، لكنه حينما شاهد خنوع الجمهور ، تشجع و أعلن التمرد ضد نتائج المباراة و رفضه لكل نتائجها لا بل أنه

حكم بأشنع ميتة على السحرة الذين خضعوا للحق الذي رآه العالم أجمع ، علماً أنه و للمفارقة الغريبة ، كان هو و ملأه ، من دعا لهذه المبارزة العلنية و كانوا قد طلبوا حضور الجمهور (و قيل للناس هل أنتم مجتمعون) .

من هنا و من هذا الرفض انتقل فرعون و ملأه ، من مرحلة الرفض إلى مرحلة الحرب العلنية على موسى و قومه ، و قد كانت حرب إبادة و استئصال ، حسبما عبّرَ فرعون نفسه لأعوانه الذين حرضوه بالقول متسائلين عما إذا كان سيترك موسى و قومه ليفسدوا في الأرض ؟؟؟!!! و هي علامة فارقة على النفاق أو ما قررنا أن نسميه .. عهر النفاق .. الرجل فاز عليهم بمبارزة علنية هم من دعوه إليها ، و قبلها كان قد قدم إليهم بالبراهين و المعجزات القاهرة المبصِرة ، ثم بعد ذلك كله ، يعتبرون أن هذا الفوز و هذه المعجزات هي الفساد في الأرض ؟؟؟!!! .

هنا و بعد أن ترامت الأنباء إلى موسى بما يعتزم فرعون القيام به ضده و ضد قومه ، يطلب موسى من قومه أن يستعينوا على أمرهم بالله سبحانه و تعالى ، و أن يتحملوا قليلاً ، ذلك أن هذه الأرض كلها هي ملك لله سبحانه و تعالى ، و هو وحده فقط الذي يقرر لمن تكون .. لكن قوم موسى أخبروه ، في لحظة يأس و خوف و تعب إنهم قد تأذوا و تضرروا من

فرعون ، من قبل أن يأتي هو موسى ، إليهم و أيضاً من بعد ما أرسله الله إليهم .. و في ذلك إشارة منهم لموسى أن فرعون لا يأبه له و لا لربه .

لكن موسى يطمئنهم أن الله سبحانه و تعالى ، من الراجح الغالب أنه سوف ينتقم لهم من ظلم فرعون و سوف يجعلهم خلفاء له في الأرض و سوف يختبرهم فيما سيفعلونه .

و فعلاً تتابع الآيات القرآنية السرد التاريخي ، من حيث أنها تخبر عن العذاب الأليم و الطويل زمناً ، الذي تعرض له آل فرعون ، و الخسارات الفادحة التي أوقعهم الله سبحانه و تعالى ، بها ، فقط لعلهم يتذكرون أو يتعظون و من ثم يعودوا إلى رشدهم و خالقهم الرحمن رب العالمين .

لكن الإصرار و العناد الكبيرَين المرعِبَين لهؤلاء القوم و الذي لم يسبق له نظير من قبل ، قد منعهم عن التوبة و الرشد و الهداية ، و منع ذلك كله عنهم ، فصاروا يتشاءمون بموسى و قومه حال تعرضوا لأذى و ضرر و عقاب رباني ، و في حال أتاهم خير من الله سبحانه و تعالى ، اعتبروا

ذلك منهم أنفسهم لأنهم ذوو فأل حسن ، لكنهم و لجهلهم ، لا يعلمون أن فألهم و حسن أو سوء حظهم ، هما من عند الله سبحانه و تعالى .

و قد بلغ من شدة جهلهم و عنادهم العجيبين الغريبين أن قالوا لموسى .. مهما تجلبه و تظهره لنا من دلائل و براهين و معجزات لكي تسلب عقولنا بها و تجعلنا ننقاد لك ، فلن نفعل ذلك ، فلا تُتعِبَّن نفسك في ذلك ..

فكان تبعاُ لذلك أن أرسل عليهم الرحمن رب العالمين ، العقاب الأليم .. سواء أكان بالطوفان الذي أهلك الزرع و الحرث أم بالجراد الذي أتى على المحاصيل أم بالقمل الذي أصابهم بالأمراض أم بالضفادع التي دخلت بيوتهم أم بالدم الذي أفسد ماءهم و سقياهم .. و كل ذلك كان واضحاً ظاهراً للعيان ، منفصلاً بذاته .. فكان أن دأبوا على استكبارهم و ظلوا عليه و على عنادهم عاكفين .. ذلك بسبب إجرامهم المنقطع النظير .

و لم يرعَووا و لم يتحسسوا الخطر المحدق بهم إلا عندما وقع عليهم من الرحمن رب العالمين ، عذاب شديد مُنقِض للكاهل ، لا فكاك منه .. فكان أن تألموا و خضعوا و صرخوا و ناشدوا موسى أن يطلب من ربه

بموجب العهد الذي بينه و بينه ، أن يرفع عنهم هذا العذاب الثقيل الوطأة و الوزر ، لكي يصدقوا دعواه إلى الرحمن رب العالمين ، و يسمحوا لبني إسرائيل بالذهاب معه و العودة إلى الأرض المقدسة التي وُعِدوا بها .

لكن و عندما استجاب الله سبحانه و تعالى ، لدعاء موسى و أعطى فرعون و قومه ، فترة السماح التي طلبوها ، عادوا سيرتهم الأولى من الغدر و النكوث ، فكان أن انتقم الله سبحانه و تعالى ، منهم بأن أغرقهم في البحر بسبب أساس و هو استكبارهم لكل آياته و دلائله المادية منها و المنطقية ، و تجاهلهم إياها تماماً و كأنها غير موجودة .

ثم كان بعد ذلك الحدث الكبير ، أن مَكّن الله سبحانه و تعالى ، بني إسرائيل و الضعفاء المظلومين من أهل مصر ، من كل ممتلكات و أراضي آل فرعون .

بسم الله الرحمن الرحيم { و هل أتاك حديث موسى (*) إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدًى (*) فلما أتاها نودي يا موسى (*) إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك

بالواد المقدس طوًى (*) و أنا اخترتك فاستمع لما يوحى (*) إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني و أقم الصلاة لذكري (*) إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (*) فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها و اتبع هواه فتردى (*) و ما تلك بيمينك يا موسى (*) قال هي عصاي أتوكأ عليها و أهش بها على غنمي و لي فيها مآرب أخرى (*) قال ألقها يا موسى (*) فألقاها فإذا هي حية تسعى (*) قال خذها و لا تخف سنعيدها سيرتها الأولى (*) و اضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آيةً أخرى (*) لنريك من آياتنا الكبرى (*) اذهب إلى فرعون إنه طغى (*) قال رب اشرح لي صدري (*) و يسر لي أمري (*) و احلل عقدةً من لساني (*) يفقهوا قولي (*) و اجعل لي وزيراً من أهلي (*) هارون أخي (*) اشدد به أزري (*) و أشركه في أمري (*) كي نسبحك كثيراً (*) و نذكرك كثيراً (*) إنك كنت بنا بصيراً (*) قال قد أوتيت سؤلك يا موسى (*) و لقد مننا عليك مرةً أخرى (*) إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى (*) أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي و عدو له و ألقيت عليك محبةً مني ولتصنع على عيني (*) إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها و لا تحزن و قتلت نفساً فنجيناك من الغم و فتناك فتوناً فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى (*) و اصطنعتك لنفسي (*) اذهب أنت و أخوك بآياتي و لا تنيا في ذكري (*) اذهبا إلى فرعون

إنه طغى (*) فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى (*) قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى (*) قال لا تخافا إنني معكما أسمع و أرى (*) فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل و لا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك و السلام على من اتبع الهدى (*) إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب و تولى (*) قال فمن ربكما يا موسى (*) قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (*) قال فما بال القرون الأولى (*) قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي و لا ينسى (*) الذي جعل لكم الأرض مهداً و سلك لكم فيها سبلاً و أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى (*) كلوا و ارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى (*) منها خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارةً أخرى (*) و لقد أريناه آياتنا كلها فكذب و أبى (*) قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى (*) فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا و بينك موعداً لا نخلفه نحن و لا أنت مكاناً سوًى (*) قال موعدكم يوم الزينة و أن يحشر الناس ضحًى (*) فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى (*) قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب و قد خاب من افترى (*) فتنازعوا أمرهم بينهم و أسروا النجوى (*) قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما و يذهبا بطريقتكم المثلى (*) فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً و قد أفلح اليوم من استعلى (*) قالوا يا موسى إما أن تلقي و إما أن نكون أول من ألقى (*)

قال بل ألقوا فإذا حبالهم و عصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى (*) فأوجس في نفسه خيفةً موسى (*) قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى (*) و ألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر و لا يفلح الساحر حيث أتى (*) فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون و موسى (*) قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم و أرجلكم من خلاف و لأصلبنكم في جذوع النخل و لتعلمن أينا أشد عذاباً و أبقى (*) قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات و الذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا (*) إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا و ما أكرهتنا عليه من السحر و الله خير و أبقى (*) إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها و لا يحيا (*) و من يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا (*) جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و ذلك جزاء من تزكى (*) و لقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً و لا تخشى (*) فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم (*) و أضل فرعون قومه و ما هدى } .

يعيد آنف الآيات القرآنية ، صياغة قصة موسى مع فرعون و آله ، بصورة أخرى ، من حيث أنها تبدأ منذ حادثة مغادرة موسى مع أهله ، لديار حَميه ، متجهاً إلى ديار قومه في مصر .. و في الطريق ليلاً ، يبصر موسى من بعيد ، ناراً و بعد أن يطمأن إلى أنها نار لا خطر منها (حريق كبير ..

لصوص .. قطاع طرق .. الخ) يطلب من أسرته البقاء مكانهم حتى يذهب هو و يحضر لهم شعلة منها أو يجد بعض الطعام عند من أشعل هذه النار .

عندما وصل موسى إلى الناس أتاه صوت الله سبحانه و تعالى ، منبئاً إياه إنه هو ربه ، طالباً منه أن يخلع نعليه لأنه قد صار في المنطقة التي أُسدِلت عليها القداسة بسبب حضور الله سبحانه و تعالى ، و منبئاً إياه إنه قد اختاره ، و عليه الانتباه جيداً و استيعاب ما سوف يقال له .

لقد قال الرحمن رب العالمين ، لموسى إنه هو الله سبحانه و تعالى الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له في شيء أو من شيء ، و أن على موسى أن يكون تابعاً له لا لغيره ، و أن يكون دائم التواصل معه لأجل أن يحيي ذكره أمام الناس .

أخبر الله سبحانه و تعالى ، موسى إن موعد حساب الناس و هلاك الأمم و الجبابرة و الطغاة ، قد أزِفَ ، و أنه الله سبحانه و تعالى ، يوشك أن لا يذكر ذلك أبداً لكي يكون كل امرئ ملاقٍ جزاءه عدلاً و حقيقةً ، و من

حر أعماله و تصرفاته ، من دون أن يعلم بموعد الساعة فيغير سلوكه و تصرفاته تورية و نفاقاً .. لهذا ، طلب الله سبحانه و تعالى ، من موسى أن يُحَذِّر كل من لا يؤمن بيوم البعث و الحساب و لا يرى إلا هذه الحياة الدنيا العاجلة الزائلة الفانية ، كي لا يتأثر به فتكون عاقبته الهلاك .

بعد ذلك يسأل الله سبحانه و تعالى ، موسى عما يمسك في يده اليمنى ، فيجيب موسى إنها عصاته التي يستند عليها و يزجر غنمه بها و إنه يستخدمها في بعض شؤونه الخاصة .. هنا ، يأمر الله سبحانه و تعالى ، موسى أن يلقي عصاه ، فيلقي بها موسى إلى الأرض لتتحول إلى ثعبان حقيقي يتحرك بكل حرية ، فيأمر الله سبحانه و تعالى ، موسى أن يلتقط العصاة و لا يخاف لأنه سيعيدها إلى خصائصها الأولى الني كانت عليها ، و هي عصاة خشبية .. كذلك يطلب الله سبحانه و تعالى ، من موسى أن يضع يده تحت إبطه ثم يسحبها لكي تخرج بيضاء تماماً ، من دون حرض أو أذى .. ذلك كله و الرحمن رب العالمين ، يخاطب موسى بهدوء مخبراً إياه إن ذلك هو من المعجزات الكبرى التي يريه إياها لكي يذهب إلى فرعون الذي تجاوز كل حدود الأخلاق و المعايير الإنسانية و الاجتماعية .

و يبدو أن تلك الآيات التي أراها الرحمن رب العالمين ، لموسى ، كان لها أثر كبير و مقام عال عندهم ، كمثال أفعى الكوبرا التي كانت تعلو مقدمة تاج الفراعنة ، بحسب ما يبدو من الآثار و المكتشفات الحديثة .. كذلك اليد البيضاء التي كانت تدل على المقام العالي أو الدرجة الرفيعة عندهم .

لقد أعطت الآيات القرآنية دلالة كبيرة على خطورة شخصية فرعون و قومه على الناس .. ذلك أن الله سبحانه و تعالى ، قد تجلى بنفسه ، صوتاً لموسى و طلب منه صراحةً و مباشرةً ، الذهاب إلى فرعون شخصاً و عياناً و أن يعرض عليه رسالته إليه .. و هو أمر لم يسبق حدوثه مسبقاً مع أقوام سوء ، و لم يحصل لاحقاً مع أقوام سوء .. و هذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أهمية و خطورة و تعقيد التعامل مع فرعون و قومه ، و على أن هؤلاء القوم قد وصلوا إلى مرحلة متقدمة جداً في الكفر و الإجرام و الفساد و الإفساد ، كذلك الاستكبار و الظلم و العدوان ، و هبطوا إلى درك لا ينفع فيه إلا أن يتدخل الله سبحانه و تعالى ، مباشرة .. و في ذلك مُعطَيين اثنين ..

المُعطى الأول .. تشجيع الرحمن رب العالمين ، لعبده و رسوله موسى ، بالذهاب إلى فرعون بعد أن أراه المعجزات الكبرى .. و هو دليل على

السطوة و الظلم الكبيرين المخيفين لدى فرعون و أثرهما في الناس ، و هو ما سيظهر لدى موسى في الآيات القرآنية اللاحقة .. و لنا أن نتخيل شخصاً يقف في حضرة الله سبحانه و تعالى ، و يقول له أنا خائف من الذهاب إلى ذلك الشخص الذي ترسلني إليه ؟؟؟!!! .

في آنف الآيات السابقة ، و بعدما أرى الله سبحانه و تعالى ، موسى الآيات و المعجزات الكبرى ، يعاود موسى الاستعانة به و يطلب منه أن يفتح له ذهنه و يسَهِّل له أموره و حوائجه و أن يكشف عنه صعوبة النطق التي كانت تتلبسه و أن يجعل له معيناً من أهله في مهمته تلك ، و هو هارون أخوه .. من حيث أن موسى يطلب من الله سبحانه و تعالى ، طلباً غريباً و هو أن يجعل أخاه هارون مساعداً له و أن يكون شريكاً له .. و هذا الأمر إما له دلالة الخوف الكبير من فرعون ، و إما لدلالة قوة الانتماء القومي و العائلي لدى بني إسرائيل .

المُعطى الثاني .. رحمة الله سبحانه و تعالى ، الكبيرة الواسعة اتجاه عباده من بني آدم ، حتى أولئك الأشد عتواً في الكفر و العصيان و العناد ، كفرعون مثلاً .. رحمة الرحمن رب العالمين ، المقترنة بالصبر على هؤلاء و أمثالهم ، و هذا دليل كبير على حرص الرحمن رب العالمين ، على أن يأخذ

الناس كافة ، حظهم و حقهم ، من الصبر عليهم و من الوعظ و النصح و تقديم الدلائل و البراهين الدامغة القاطعة ، لعودتهم عن ضلالهم و غيهم كفرهم بالرحمن رب العالمين .. هو أمر مصداقه في القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و ما ظلمناهم و لكن كانوا هم الظالمين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { رسلاً مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل و كان الله عزيزاً حكيماً } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و ما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء و الضراء لعلهم يضرعون (*) ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و ما كنتَ بجانب الطور إذ نادينا و لكن رحمةً من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون } .

ذلك أن الرحمن رب العالمين ، هو إله واحد أحد لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء و هو الحي القيوم العدل الحق ، فلا أحد غيره يفعل ذلك .

يستجيب الله سبحانه و تعالى ، لطلب موسى و يقول له إن طلبه قد أُجيب .. و ينبئه إنه هو الوحيد الذي كان كريم لمنتهى الكرم و الفضل معه عندما أوحى إلى أمه أن تضعه على عَجَل في صندوق خشبي ثم ترميه في البحر ، ذلك لكي يأخذه فرعون العدو للرحمن رب العالمين ، و العدو له هو أيضاً .

ثم يشرح الله سبحانه و تعالى ، لموسى ما حصل معه ، منذ أن التقطه آل فرعون إلى أن عاد إلى أمه ، و كيف حماه من الهم و الخوف بعد أن ارتكب جناية قتل ، و كيف أمضى سِنيَّه في مدين ثم جاء في هذه اللحظة و الحضرة الكبيرة المهيبة التي هو فيها الآن .

و إذ يبرز سؤال حول سبب قول الله سبحانه و تعالى ، لموسى هذا الكلام و تمنينه إياه به و هو الغني عن العالمين ؟؟!! فإن الجواب يعود بنا مرة أخرى إلى خطورة الحالة و الوضع الذي يجب أن يتم فيهما إيصال رسالة الرحمن رب العالمين ، إلى فرعون و قومه ، و ما استتبع ذلك من الخوف و الرهبة اللذان قد تملّكا موسى من مقابلة فرعون و إبلاغه بشيء أبعد ما يكون عن تفكيره و قبوله ، فكان أن طمأن الله سبحانه و تعالى ، موسى أنه كان معه منذ ولادته و حين كان ربيباً في بلاط فرعون و كنفه و هو

العدو له .. فلا حاجة لله سبحانه و تعالى ، أن يخبر الناس و ينبئهم عن نِعمه عليهم إلا أن يكون ذلك رحمة منه لهم لكي يعرفوا ربهم الرحمن الملك الحق و يعبدوه حق عبادته فيدخلوا جنته .

إن ما يؤيد هذا الكلام ، هو السرد التالي للآيات القرآنية آنفة الذكر ، إذ يأمر الرحمن رب العالمين ، موسى و هارون بالذهاب إلى فرعون و دعوته بحكمة و رفق و تؤدة ، إلى الرحمن رب العالمين ، الحق ، فربما يتفكر الرجل و يتأمل فيقتنع فيهتدي .. لكن موسى و هارون أعادا خوفهما على الرحمن رب العالمين ، مرة أخرى ، من أن يبطش بهما فرعون أو يؤذيهما أذىً شديداً ، ليعود الرحمن رب العالمين ، و يطمئنهما مرة أخرى بأنه معهما يسمع و يشاهد كل شيء و أنه لن يتركهما أبداً ، و ما عليهما سوى أن يأتيا فرعون و يوصلان إليه رسالة الرحمن رب العالمين بأن يرسل معهما بني إسرائيل إن لم يكن يريد الطاعة و الهداية ، و يخبراه إن العذاب سوف يقع على كل من يرفض أوامر الرحمن رب العالمين .

إن هذا الأمر لهو دليل على مدى شدة و عسرة أمر تبليغ الرسالة إلى شخص مثل فرعون و قومه .. كذلك الأمر هو طارئ جديد لم يسبق له

مثيل من قبل في أقوام السوء الذين خلوا قبل فرعون و آله ، أو حتى أولئك الذين جاؤوا من بعده ؟؟!! .

و لا تتضح تلك الصورة إلا حال متابعة سير آنف الآيات القرآنية القاصّة لتلك الحادثة ، إذ يسأل فرعونُ موسى و هارون ، عن هوية ربهما ، فيجيبه موسى إنه الرحمن رب العالمين ، الذي أوجد كل شيء و أعطاه صفاته و خصائصه ، ثم بعد ذلك هدى الإنسان لذلك و علمه تبيانه .

ثم يتابع فرعون أسئلته عن حال الأمم الماضية و أقوامها و ما مقدار معرفة موسى بها ، فيجيبه موسى إن ذلك من اختصاص الرحمن رب العالمين ، في قوانين و شرائع قام بوضعها الرحمن رب العالمين ، الذي لا يضيع و لا يغفل عنه شيء .

ثم يتابع موسى الشرح و الكلام عن الرحمن رب العالمين .. إنه هو الذي جعل لك يا فرعون و حاشيتك الأرض مستوية و جعلها قابلة للسير و التنقل من دون صعوبات تذكر ، و هيّأ لكم فيها الطرق و المسالك ، البرية منها و البحرية .. و الرحمن رب العالمين ، هو الذي أنزل المطر من السماء

لتنبت الأرض منه نباتاً كثير مختلف المشارب و الفوائد و لكي تأكلوا منه أيها الناس و تأكل مواشيكم منه .. و ذلك كله فيه برهان عقلي منطقي لكم أيها الناس لترتدعوا عن كفركم بالرحمن رب العالمين ، و فسقكم عن شرائعه .. ذلك إن الرحمن رب العالمين ، ربكم و إلهكم الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، هو الذي خلقكم أيها البشر من تراب هذه الأرض و أديمها و هو الذي يعبدكم فيه بعد موتكم ثم يخرجكم منه يوم البعث و الحساب .

و تخبر الآيات القرآنية إن موسى ، قد قدّم لفرعون كل الدلائل و المعجزات المنطقية و المادية على وجود الرحمن رب العالمين ، لكن فرعون أنكر ذلك كله و رفضه تعنّتاً و استعلاءً ، فكان أن رد على موسى بجواب غريب لا يمت إلى كل ما قدّمه له موسى ، بِصِلَة رشد أو منطق ، إذا اتهمه بأنه جاء ليخرجه من أرض مصر ، بقوة السحر الذي امتهنه ؟؟؟!!! و قال له إنه سيأتيه بسحر أقوى مما لديه من السحر ، و طلب منه أن يحدد موعداً للمباراة و المبارزة بقوة السحر .. فقبِلَ موسى التحدي و حدد لفرعون ، يوم العيد الوطني كمناسبة و يوم للنزال ، و اشترط أن يجتمع الناس كلهم ، نهار ذلك اليوم .. فكان أن جمع فرعون كل أعوانه و مستشاريه و استدعى كل كبراء قومه الذين جاؤوا بكبار السحرة لذلك اليوم الموعود .. و حين

وصولهم و قد اجتمعت جماهير الناس للفرجة و المشاهدة ، قال موسى للسحرة مهدداً و متوعداً .. الويل لكم من غضب الله سبحانه و تعالى ، إذا اختلقتم الأكاذيب و السحر لكي تضللوا الناس بها .

هنا .. يبدو أن السحرة أو بعضهم قد أخذ كلام موسى بعين الاعتبار ، فتردد بعض الشيء ، لكن كان هنالك من لاحظ ذلك فأمر باجتماع مغلق معهم ، ليدور نقاش حاد فيما بينهم فيقول بعضهم لبعض إن موسى و هارون ما هما إلا ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرض مصر و أن يقضيا على مدرسة السحر الثابتة و المعتمدة عندكم ، فكونوا بعضكم مع بعض صفاً واحداً و قلباً واحداً لتفوزوا و يكون النصر حليفكم في هذا اليوم الحاسم .. فكان أن اقتنع السحرة كافة و تآلفوا حول كلمة واحدة و خرجوا على موسى ليخيروه بالبدء بالإلقاء ، فطلب موسى منهم أن يكونوا البادئين بالإلقاء ، فألقوا حبالهم و عصيهم التي بدأت تتحرك و تهتز بشكل مخيف ما أدى إلى تنامي مخاوف موسى نفسه ، فطمأنه ربه أن لا يخاف لأنه هو الأعلى قدرة منهم و لأن ما قاموا به هو مجرد سحر لا نجاح له أمام الحق ، و طلب منه أن يلقي عصاه التي تحولت ثعبان ضخم التهم كل حبال و عصي السحرة الذين ما أن رأوا ما حصل أمامهم ، حتى تأكدوا أنهم أمام قدرة إلهية قاهرة و أن ما رأوه بأم العين ، لا يمت إلى

السحر بصلة .. فكان أن خرّوا إلى الأرض سجداً للرحمن الملك الحق القاهر فوق عباده ، و أعلنوا بصوت واحد .. آمنا برب هارون و موسى .

كانت هذه لحظة حاسمة للأطراف جميعاً ، لفرعون و للسحرة و لجمهور الحضور ، و مفترق جذري مصيري .. لكن الذي حصل هو أن فرعون لم يشأ أن يغتنم هذه الفرصة النادرة و التي لن تتكرر فيعلن خسارته و إيمانه بالرحمن رب العالمين ، بل فبادر فوراً إلى تغيير قواعد المباراة التي دعا هو أصلاً ، إليها ، هارباً من نتائجها التي كان يجب عليه أن يقبل و يقر بها ، صارفاً نظر الجمهور عنها .. فبادر فوراً إلى تخوين السحرة و إصدار الحكم عليم بالموت بطريقة بشعة جداً .. و يبدو أنها طريقة في سياسة الحكم لترهيب الجمهور و الحضور فينقادوا طوعاً و يرهبوا صمتاً .

لكن السحرة كان لهم موقف آخر كان يجب أن يكون للجمهور درساً و حافزاً للتمرد ، إذ أعلنوا لفرعون أنهم لا يأبهون لقراراته لأن ما رأوه أمامهم كان حقيقة قاطعة و بيّنة واضحة لا تحتاج إلى تأويل ، ألا و هي أنهم أمام برهان إلهي رباني من الرحمن رب العالمين .. و بالتالي فإنهم قد اختاروا الرحمن رب العالمين ، على فرعون و على كل ما يملكه و ما يمكن له أن يقدمه لهم .. و هنا وجه السحرة لفرعون اتهاماً خطيراً ، أنه هو من أجبرهم

على ممارسة السحر و أنه سوف يأتي الرحمن ربه قاتلاً مجرماً ، و سيكون مصيره جهنم ، و أنهم لن يعبدوا إلا الرحمن رب العالمين الذي يطمعون أن يغفر لهم جميع أخطاءهم السابقة و أن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار .. و كأن السحرة بذلك ، يخاطبون الجمهور أيضاً و ويحفزونه للتمرد و الثورة .

كانت تلك لحظة حاسمة بالنسبة للجمهور الذي كان هو ربما بيضة القبان التي ستقرر مصير المباراة ، فكان عليه أن يختار بين نتيجة المباراة التي كانت لصالح موسى و قرار السحرة الذين أيدوا موسى و انضموا إليه ، و بين خسران فرعون المقرون بالتهديد بالقتل للسحرة لكنه كان بشكل مبطن ، موجه للجمهور أيضاً .. نعم .. نعم كان تهديد فرعون للسحرة بالقتل ، موجهاً للشعب بشكل غير مباشر لكي يرهبه فَيَستَكين .. و يبدو أن الشعب قد اختار هذا الخيار فآثر الجمهورُ السكوتَ .. نعم .. لقد اختار الجمهور الحياة الدنيا الفانية ، على الدار الآخرة الدائمة .. عِلماً أنه كان على الجمهور أن ينحاز إلى موسى لأسباب عدة ..

السبب الأول .. إن مفهوم الحياة الآخرة و الحياة بعد الموت ، كان قوياً جداً في المعتقدات المصرية القديمة و كلام السحرة كان واضحاً في هذا المجال .

السبب الثاني .. إن نِصاب القُرعة أو التصويت (إن صحت التسمية) كان بنسبة اثنين إلى واحد لصالح موسى ، إذ كان موسى و السحرة طرفين اثنين ، بينما كان فرعون طرف واحد فقط .

السبب الثالث .. إن السحرة لم يكونوا من فئات اجتماعية لا قيمة لها و لا أثر ، بل العكس تماماً .. كانوا من علية القوم و أكابرهم في المجتمع المصري القديم ، و ربما كانوا في الدرجة التي تلي درجة فرعون مباشرة ، فهم كانوا كهان معابد أيضاً و لهم حضورهم الجماهيري ، و لذلك كان لا بد لتصويتهم لصالح موسى و كلامهم الذي قالوه ، من أن يكون له أثراً في تغيير رأي الجمهور .. لكن الجمهور إلى ما يبدو ، قد اختار عدم إثارة غضب السلطة الحاكمة التي بيدها السيف و الصولجان و الشوكة فآثرَ الصمت و الخضوع .

لذلك .. فإنه كان لا بد للمشيئة الإلهية أن تمضي مع فرعون حتى نهاية الشوط ، ذلك أن المشيئة الإلهية ، تؤاخذ الناس على قراراتها الخاطئة و لا تتدخل إلى جانبهم ، حال خذلانهم للحق و نصرتهم الباطل .. فما كان من نتيجة ذلك القرار الجماهيري الخاطئ ؟؟!! .

بحسب الآيات القرآنية آنفة الذكر ، كان من نتائج التخاذل الجماهيري ، أن أمر الله سبحانه و تعالى ، موسى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر و يسري بهم ليلاً و لا يخاف من خروج فرعون بجيشه ، في أثرهم .. أي أن المشية الإلهية هنا قد امتازت بأمرين اثنين ..

الأول .. أنها اعتبرت أن تخاذل الجمهور و الشعب ، لا يستحق النصرة الإلهية و بالتالي جاء الأمر لموسى بترك مصر و الانسحاب بقومه منها .. هو أمر شبيه بحالة النبي إبراهيم حين انتصر على قومه الذين أرادوا أن يحرقوه بالنار إذ أنجاه الرحمن رب العالمين ، منها ، لكنه ترك هذه المنطقة بعد ذلك و هاجر منها .

الثاني .. أنها حتى هذه اللحظة ، قد تركت فرعون و شأنه و اعتبرت أنه شخص لا يمكن له و لا لآله أن يؤمنوا بالرحمن رب العالمين .. و بالتالي فإنه ربما نرى هنا أمراً مشابهاً ، لقوم إبراهيم بالإضافة إلى عدم هلاك القومين ، إذ أمر الله سبحانه و تعالى ، إبراهيم بترك المنطقة التي كان فيها و الهجرة إلى مكان آخر ، من حيث أنه قد أنجاه منهم .

لكن ما حصل مع فرعون و قومه ، أمر مختلف تماماً .. فبينما قام قوم إبراهيم ، بترك إبراهيم يهاجر و لم يتعرضوا لهم بعد أن أنجاه الله سبحانه و تعالى ، من النار و جعلهم الأخسرين من دون أن يدمرهم .. فإن فرعون و قومه لم يرفضوا فقط تقَبُل فكرة الهزيمة ، بل قاموا باللحاق بموسى و قومه

لقتلهم و استئصالهم عن شأفتهم .. فكان أن أغرقهم الرحمن رب العالمين ، في البحر ، . ذلك كله بسبب فرعون الذي قاد قومه إلى الهلاك بعناده و استكباره و ذلك بعد كل ما رآه من آيات و براهين و دلائل إلهية ربانية رحمانية .

بسم الله الرحمن الرحيم { و إذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين (*) قوم فرعون ألا يتقون (*) قال رب إني أخاف أن يكذبون (*) و يضيق صدري و لا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون (*) و لهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون (*) قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون (*) فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين (*) أن أرسل معنا بني إسرائيل (*) قال ألم نربك فينا وليداً و لبثت فينا من عمرك سنين (*) و فعلت فعلتك التي فعلت و أنت من الكافرين (*) قال فعلتها إذاً و أنا من الضالين (*) ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً و جعلني من المرسلين (*) و تلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل (*) قال فرعون و ما رب العالمين (*) قال رب السماوات و الأرض و ما بينهما إن كنتم موقنين (*) قال لمن حوله ألا تستمعون (*) قال ربكم ورب آبائكم الأولين (*) قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون (*) قال رب المشرق و المغرب و ما بينهما إن كنتم تعقلون (*) قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من

المسجونين (*) قال أولو جئتك بشيء مبين (*) قال فأت به إن كنت من الصادقين (*) فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين (*) و نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين (*) قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم (*) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون (*) قالوا أرجه و أخاه و ابعث في المدائن حاشرين (*) يأتوك بكل سحار عليم (*) فجُمِع السحرة لميقات يوم معلوم (*) و قيل للناس هل أنتم مجتمعون (*) لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين (*) فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين (*) قال نعم و إنكم إذاً لمن المقربين (*) قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون (*) فألقوا حبالهم و عصيهم و قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (*) فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون (*) فأُلقي السحرة ساجدين (*) قالوا آمنا برب العالمين (*) رب موسى و هارون (*) قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم و أرجلكم من خلاف و لأصلبنكم أجمعين (*) قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون (*) إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين (*) و أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم مُتَّبَعون (*) فأرسل فرعون في المدائن حاشرين (*) إن هؤلاء لشرذمة قليلون (*) و إنهم لنا لغائظون (*) و إنا لجميع حاذرون (*) فأخرجناهم من جنات و عيون (*) و كنوز و مقام كريم (*) كذلك و أورثناها بني إسرائيل (*) فأتبعوهم مشرقين (*) فلما تراءى الجمعان قال

أصحاب موسى إنا لمدرَكون (*) قال كلا إن معي ربي سيهدين (*) فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم (*) و أزلفنا ثم الآخرين (*) و أنجينا موسى و من معه أجمعين (*) ثم أغرقنا الآخرين (*) إن في ذلك لآيةً و ما كان أكثرهم مؤمنين (*) و إن ربك لهو العزيز الرحيم } .

صورة نمطية أخرى يقدمها القرآن الكريم تبرز جوانب أخرى من لقاء موسى مع فرعون ، إذ يتحدث آنف الآيات القرآنية مرة أخرى عن تجلي الله سبحانه و تعالى ، صوتاً لموسى و الأمر له بالذهاب إلى فرعون و قومه .. و لعلنا لا نغفل عن ملاحظة تكرار حالة أو قضية مفهوم (رسالة ربانية لشخص بعينه و قومه) و كذلك تكرار التعبير عن الخوف من قِبَل موسى لله سبحانه و تعالى ، من فرعون و قومه و طلبه الإمداد ببشر مثله .. أخاه هارون ، و تشجيع الله سبحانه و تعالى .. و هذا الأمر كما ذكرنا ، لا يدل إلا على خطورة الأمر و جلل الحال .

يشجع الرحمن رب العالمين ، موسى و أخاه هارون على المضي قدماً إلى فرعون و إخباره إنها مرسَلان إليه من طرف الرحمن رب العالمين ، و إنه يتوجب عليه أن يسمح لبني إسرائيل بالعودة معهما إلى الأرض الموعودة .

إن اقتصار الرحمن رب العالمين ، على الأمر لموسى و أخيه هارون ، بالطلب من فرعون إخلاء بني إسرائيل و إرسالهم معهما ، من دون الطلب إليه الهداية و الإيمان بالرحمن رب العالمين ، إلا فيما ندر ، هو أيضاً ربما يكون دليل على علم الرحمن رب العالمين بخطورة و صعوبة قضية فرعون و قومه بالنسبة لبني البشر ، من شده ظلمهم و قهرهم للناس و استبدادهم بهم و استعبادهم لهم .. ذلك أنه و في العرف الإلهي الدعوي الرباني ذي الرسالة إلى الناس ، كان يُطلب من الناس أو رؤوس القوم و عليتهم ، الإيمان بالرحمن رب العالمين و اتباعه و إخلاص الدين و العبادة له و عدم الإشراك به أو معه بشيء أو من شيء .

يدور نقاش حاد و جدال عقيم ، بين موسى و فرعون ، إذ يأتي فرعونُ موسى من الجانب العاطفي ، فيذكّره بأنه كان ربيبه طوال سنين طوال و أنه تعهّده بالرعاية و التربية ، و أنه بعد كل ما فعله لأجله ، يقوم بارتكاب جناية قتل و هو في حالة كفر بفرعون و دين فرعون .. لكن موسى ، و على غير ما كان يتوقعه منه فرعون ، يقر بفعلته هذه و يقول إنه كان غافلاً غير مدركاً لما كان يقوم به ، و تبعاً لذلك فإنه قد هرب منهم عندما علم بعزمهم على اغتياله ، فكان أن اجتباه الرحمن رب العالمين و أتاه حكمة من لدنه ، في التعامل مع الأمور و القضايا و جعله رسولاً إليه .

هنا .. عند هذه النقطة بالذات ، يسأل فرعونُ موسى سؤالاً غريباً ، فيقول له .. و ما رب العالمين ؟؟!! إذ كان من المفترض فيه أن يسأل فيقول .. و من رب العالمين ؟؟ .. هذا الأمر سواء أكان عن حقيقة واقعة أم عن نفاق و تورية ، فإنه يدل على غياب الإيمان بالرحمن رب العالمين ، من قاموس فرعون ، تماماً .. هو دليل على غياب بعض مصلحات و مفاهيم الإيمان ، من ذهن و قاموس هذا الرجل ، و هو أمر لم يحصل قط ؟؟!! لا مع من سبق من أقوام السوء ، و لا مع من جاء بعد .. هو إشارة و دلالة على استفحال الكفر و تغلغله في صلب و متن المجتمع المصري الذي يقوده فرعون .. ربما لهذا ، نستطيع أن ندرك لماذا اكتفى الرحمن رب العالمين ، في مجمل و عموم الأمر ، بدعوة فرعون ، فقط للسماح لبني إسرائيل بالذهاب مع موسى و العودة للأرض الموعودة .

أجاب موسى فرعونَ .. إن رب العالمين هو الرحمن رب العالمين ، الذي هو السيد الأوحد الواحد للسماوات و الأرض و كل ما يوجد فيهما ، إن كنت فعلاً يا فرعون تريد أن تعرف ما هو رب العالمين .

كان من الطبيعي أن تكون ردة فعل فرعون هي الإنكار و الاستنكار و التكبر و الغرور .. فكان أن نادى في الملأ المحيط به موحياً إليهم بشكل

غير مباشر ، نجدته .. لكن موسى أردف متابعاً القول .. إن الرحمن رب العالمين ، هو ربكم و رب أسلافكم جميعاً بلا استثناء .. و في ذلك إشارة إلى أن قوم فرعون كانوا يعبدون أسلافهم باعتبارهم آلهة و العياذ بالله ، و هو الأمر الذي استدعى فرعون إلى أن يستبق أي كلام و يصيح في الملأ .. إن هذا الذي يدّعي إنه رسول لكم ، هو مجرد مجنون لا قيمة له .. لكن موسى تابع الرد و الكلام .. إنه هو الرحمن إلهكم و ربكم و خالقكم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء .. هو رب المشرق و المغرب و ما بينهما ، لو تفكرتم قليلاً .

هنا .. عند هذه النقطة الحرِجة ، يتدخل فرعون بالتهديد و الوعيد و يحسم الأمر مع موسى قائلاً .. إذا أردتَ أن تعبد إلهاً غيري فسوف أسجنك مدى الحياة .

هنا يدخل موسى في مجال الإعجاز و الآيات و البراهين المادية الظاهرة عياناً ، بعد أن أفلس النقاش العقلي و الفكري و المنطقي مع فرعون ، فيقول لفرعون إنه إن كان لم يقبل بالنقاش العقلاني و الحجة المنطقية ، فإنه لديه براهين مادية لا يمكن دحضها .. فيطلب منه فرعون إظهارها ، فيقوم موسى بإلقاء عصاه إلى الأرض فتتحول مباشرة إلى ثعبان حقيقي ظاهر

واضح .. ثم يخرج يده من كمه بقوة لتظهر للحاضرين بيضاء تماماً من غير شوب فيها .

أمام هذه البراهين الحقيقية الواضحة ، يلجأ فرعون مرة أخرى إلى الهروب منها و عدم الإقرار بها ، فيتهم موسى بأنه ساحر حاذق محترف ، بعد أن اتهمه قبل قليل بالجنون .. و الجنون و السحر لا يجتمعان .. لكن فرعون كان يوجه كلامه هذا للملأ الذين حوله ، لكي لا يفقد زمام السيطرة و المبادرة .. و يرهبهم بأن موسى قد أتى ليخرجهم من أرض مصر ، ثم يوجه إليهم سؤالاً مباشراً كي لا يترك لهم فرصة للتفكير .. ماذا قررتم حول ذلك ؟؟!! .. فكان أن انقاد الملأ لأسلوب فرعون في الكلام و قالوا له إنه يتوجب عليه أن يؤجل النقاش مع موسى ، ثم يبعث العسس في أرجاء مصر كلها ، لجمع كبار السحرة المحترفين لكي يقارعوا موسى في سحره هذا و يتغلبوا عليه .

لقد لجأ فرعون إلى حيلة ذكية أتت أُكُلَها ، و هي ما يسمى بالتوجيه أو الإيحاء عن طريق الكلام المباشر ، فهو قد بادر بطرح التهمة لموسى ثم أتبعها مباشرة بالسؤال عن الحل و كيفية التعامل ، فكان أن انساقَ أتباعه معه من دون إدراك أو وعي ، أو أنهم ربما أدركوا مقصده فبادروه الإيجاب و القبول ، إرضاءً له و إنقاذاً من الموقف الصعب الذي وضعه موسى فيه .

تم تحديد يوم للنزال فيما بين موسى و السحرة الذين جاؤوا في ذلك اليوم و قد اجتمع الناس بناءً على طلب حاشية فرعون الذي وعد السحرة حال فوزهم ، بالعطاء الجزيل و المناصب الرفيعة ، و هذا دليل على خطورة الوضع الذي كان فيه و توجسه و خوفه من خسارة النزال مع موسى .

ابتدأت المباراة و ألقى موسى عصاه التي تحولت إلى ثعبان التهم كل حبال و عصي السحرة الذي لم يتبقى لهم شيء و أدركوا أنهم أمام حقيقة إلهية ربانية رحمانية قاهرة لا مجال لدحضها أو نكرانها ، فخروا جميعاً ساجدين معلنين إيمانهم بالرحمن رب موسى و هارون .

هنا .. و مرة ثالثة يتهرب فرعون من النتيجة الحتمية ، و لما لم يعد أمامه ما يفعله أمام حشد غفير من الجماهير ، فإنه لجأ هذه المرة إلى التصعيد الخطير فأصدر حكمه على السحرة بالموت الشنيع و أمر بمطاردة موسى و قومه .

و أمام هذا الموقف المستجد ، يأمر الله سبحانه و تعالى ، موسى بأن يسري بقومه ليلاً لأن فرعون سيلحق بهم و يوقع بهم مقتلة عظيمة .

و بالفعل ، فقد أرسل فرعون في المدائن يجمع و يجيش و يحرض الناس و الجنود على بني إسرائيل و يتّبَع في ذلك أسلوب التضليل الإعلامي .. من أن هؤلاء فئة قليلة صغيرة وضيعة و أنهم يستفزون المصرين بأفعالهم و تصرفاتهم .. و كل ما في الأمر أن موسى قد انتصر على فرعون في اللقاء بينه و بين السحرة .. فكان أن أخرج الله سبحانه و تعالى ، فرعون و قومه مما هم فيه من عز و خير و كرم و ثروات طائلة ، و أعطى ذلك لبني إسرائيل .

و عندما بان الجيش المصري لبني إسرائيل من بعيد ، شعروا بالخطر و الخوف الشديدين و أعربوا لموسى عن ذلك .. فطمأنهم موسى ألا يخافوا لأن الرحمن ربه و ربهم ، معه و لن يتركهم هكذا هُملاً .

و فعلاً أمر الله سبحانه و تعالى ، موسى أن يضرب ماء البحر بعصاه ، فكان أن انفلق البحر إلى قسمين كبيرين و عبر موسى ببني إسرائيل في البحر ، و وصل فرعون بجيشه و رأى هذا المنظر المرعب المهيب الذي لا ينم إلا عن معجزة ربانية رحمانية قاهرة لا مجال لدحضها أو تكذيبها .. و بدلاً من أن يتراجع و ينسحب بجيشه و يخر ساجداً طائعاً مؤمناً بالرحمن

رب العالمين ، تقدم بجيشه و دخل البحر وراء بني إسرائيل ، في حالة ليس لها أي تفسير معقول منطقي ؟؟؟!!! البحر انقسم أمامك قسمين و لا زلت تعتقد أنه لا وجود للرحمن رب العالمين ؟؟؟!!! البحر انقسم أمامك قسمين عظيمين فدخلت فيه بجيشك من دون تدبير و تفكير ؟؟!! هكذا و بكل بساطة ؟؟!! ألهده الدرجة وصل بك العناد و الكفر ؟؟!! .

و فعلاً و كما قال القرآن الكريم .. إن في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين .. يعني أكثر من هكذا دليل ينفلق فيه البحر قسمين ، ماذا يريد هؤلاء ؟؟!! أية آية و حجة يريدها هؤلاء القوم أكبر من ذلك ؟؟!! إنها حالة لا مصداق لها في القرآن الكريم إلا الآية التالية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و لو أننا نزلنا إليهم الملائكة و كلمهم الموتى و حشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله و لكن أكثرهم يجهلون } .

لقد تحدثت الآيات القرآنية عن ثلاث مراحل في دعوة موسى لفرعون ، إلى الرحمن رب العالمين .. و في المراحل الثلاث هيمن موسى على فرعون و انتصر عليه إما بالحجة المنطقية أو بالمعاجز الإلهية الرحمانية ، لكن فرعون

أبى و استكبر و أصر على عدم الاعتراف بالهزيمة .. و هذه المراحل الثلاث هي ..

المرحلة الأولى .. مرحلة النقاش العقلي المنطقي و الموعظة الحسنة ، امتثالاً لأمر الرحمن رب العالمين ، و فيها غلب موسى فرعون و حاشيته بالحجة و العقل و البراهين المنطقية ، بدليل أن أحداً من قوم فرعون ، قد انحاز إلى جانب موسى و أيده في دعواه و حذر قومه من عدم الاستجابة لموسى أو التغافل أو عدم أخذ كلامه بعين الاعتبار .. و مع ذلك رفض فرعون الإقرار بالحجة و العقل اللذان أتى بهما موسى ، و هدده بالسجن إن لم يقبل به إلهاً (و العياذ بالله) .

المرحلة الثانية .. هي مرحلة الآيات البينات و المعجزات البصائر .. كالعصا التي تحولت إلى ثعبان ، و اليد البيضاء .. و هي معجزات و دلائل بصرية لا يمكن أنكارها .. و مع ذلك ، أنكرها فرعون و اعتبرها سحر و دعا موسى إلى نزال مع السحرة .

المرحلة الثالثة .. مرحلة اللقاء مع السحرة و النزال معهم .. و فيها أيضاً انتصر موسى عليهم .. لكن فرعون أنكر ذلك مجدداً و حكم على السحرة بالموت و أصدر فرمانات بمحاربة بني إسرائيل و استئصالهم .

كل ذلك لأجل ماذا و بسبب ماذا ؟؟!! كله فقط لأن موسى طلب من فرعون السماح لبني إسرائيل بالذهاب معه و العودة إلى ديارهم .. فما الذي يمكن أن يؤمَلَ من مثل هكذا قوم سوء ؟؟؟!!! .

بسم الله الرحمن الرحيم { إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون (*) فلما جاءها نودي أن بورك من في النار و من حولها و سبحان الله رب العالمين (*) يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم (*) و ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً و لم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون (*) إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم (*) و أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون و قومه إنهم كانوا قوماً فاسقين (*) فلما جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحر مبين (*) و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلماً و علواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين } .

يبدي آنف الآيات القرآنية ، صورة مختصرة بعض الشيء لكنها معبِّرة لمن كان يبتغي العبرة .

و القصة فيها تبتدئ من مسير موسى مع عائلته ليلاً ، هاجراً مضارب حَميه في مدين بعد أن أنهى خدمته لديه .. و في المسير ليلاً ، شاهد من بعيد ناراً فاطمأن لها من مظهرها و قال لأسرته .. أنني أرى ناراً أظنها لأشخاص مسافرين مثلنا ، و سوف أذهب إليهم فربما يكون لديهم أخباراً عن مصر ، أو أحضر معي شعلة من النار تتدفؤون بها في هذا الليل .

و ما أن اقترب من النار حتى سمع منادياً يناديه .. تبارك من في النار و من حولها و المجد كله لله رب العالمين .. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ، ألق عصاك .. فلما ألقاها تحولت إلى ثعبان مخيف ، ففر موسى هارباً من المكان و تاركاً الله سبحانه و تعالى ، الذي ناداه مرة أخرى ، برحمته و حكمته .. تعال يا موسى و لا تخف ، لأن الرسل لدي لا يخافون .. ادخل يدك في جيبك لتخرج بيضاء من دون مرض أو علة ، و هذا من تسع آيات و معجزات تريها إلى فرعون و قومه لأنهم عصاة فَسَقَة كفرة بي أنا الرحمن رب العالمين ، لعلهم يتعظون أو يهتدون إن رأوا تلك المعجزات .

فلما جاء موسى آل فرعون بالبراهين و الدلائل و المعجزات الزاهرة المادية المبصرة ، أنكروها و كذبوها و قالوا عنها إنها سحر ظاهر واضح ، علماً أنهم في داخل و قرارة أنفسهم كانوا يعلمون أنها حق من الرحمن رب العالمين .. فانظر أيها الإنسان كيف فعلنا بهم و كيف عاقبناهم .

و قد بلغ من شدة أثر فرعون و قومه في الأرض ، طغياناً و ظلماً و فساداً و كفراً ، تابعاً و لاحقاً ، أن تم تخصيص معظم سورة القصص لأجله و أجل حربه مع موسى ، فقد جاء في القرآن الكريم .. سورة القصص ..

بسم الله الرحمن الرحيم { طسم (*) تلك آيات الكتاب المبين (*) نتلوا عليك من نبإ موسى و فرعون بالحق لقوم يؤمنون (*) إن فرعون علا في الأرض و جعل أهلها شيعاً يستضعف طائفةً منهم يذبح أبناءهم و يستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين (*) و نريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض و نجعلهم أئمةً و نجعلهم الوارثين (*) و نُمَكِّن لهم في الأرض و نُري فرعون و هامان و جنودهما منهم ما كانوا يحذرون (*) و أوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم و لا تخافي و لا تحزني إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين (*) فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً و حزناً إن فرعون و هامان و جنودهما كانوا خاطئين (*) و قالت امرأة فرعون قرة عين لي و لك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه

ولداً و هم لا يشعرون (*) و أصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي

به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين (*) و قالت لأخته قصيه

فبصرت به عن جنب و هم لا يشعرون (*) و حرمنا عليه المراضع من قبل

فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم و هم له ناصحون (*)

فرددناه إلى أمه كي تقر عينها و لا تحزن و لتعلم أن وعد الله حق و لكن

أكثرهم لا يعلمون (*) و لما بلغ أشده و استوى آتيناه حكماً و علماً و

كذلك نجزي المحسنين (*) و دخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد

فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته و هذا من عدوه فاستغاثه الذي من

شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل

الشيطان إنه عدو مضل مبين (*) قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي

فغفر له إنه هو الغفور الرحيم (*) قال رب بما أنعمت علي فلن أكون

ظهيراً للمجرمين (*) فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره

بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين (*) فلما أن أراد أن

يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً

بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض و ما تريد أن تكون من

المصلحين (*) و جاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ

يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين (*) فخرج منها خائفاً

يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين (*) و لما توجه تلقاء مدين قال

عسى ربي أن يهديني سواء السبيل (*) و لما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً

من الناس يسقون و وجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء و أبونا شيخ كبير (*) فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير (*) فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه و قص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين (*) قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين (*) قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك و ما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين (*) قال ذلك بيني و بينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي و الله على ما نقول وكيل (*) فلما قضى موسى الأجل و سار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون (*) فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين (*) و أن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً و لم يعقب يا موسى أقبل و لا تخف إنك من الآمنين (*) اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء و اضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون و ملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين (*) قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون (*) و أخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون (*) قال

سنشد عضدك بأخيك و نجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما و من اتبعكما الغالبون (*) فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترًى و ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين (*) و قال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده و من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون (*) و قال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى و إني لأظنه من الكاذبين (*) و استكبر هو و جنوده في الأرض بغير الحق و ظنوا أنهم إلينا لا يرجعون (*) فأخذناه و جنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (*) و جعلناهم أئمةً يدعون إلى النار و يوم القيامة لا يُنصَرون (*) و أتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً و يوم القيامة هم من المقبوحين } .

جاءت سورة القصص لتعطي بياناً مفصَّلاً أكثر من غيره ، عن حال موسى و فرعون .. و قد أخبرت السورة عن نفسها بأنها تورد بياناً حقاً صادقاً موسَّعاً ، عن أخبار موسى و فرعون ، لم يَرِد من قبل .. فللمرة الأولى يَرِد اسم أحد أعوان فرعون ، و هو هامان الذي يبدو أنه كان أحد مهندسي البناء عند فرعون ، و أحد القادة الكبار .

بدأت السورة ، هذه المرة ، كلامها ، عن فرعون نفسه و عن شخصيته و سلوكياته ، فأخبرت إنه شخص ظالم متكبر متجبر فرّق الناس بعضهم عن بعض و جعلهم أحزاباً متحزِّبة ضد بعضهم بعضاً و هو أمر لم يحصل من قبل في أقوام السوء .. و قد اختار شيعة منهم استعبدها و جعلها واهنة ضعيفة ، فكان يودي بأبنائها و رجالها إلى الموت ، و يبقي نساءها للخدمة و المتعة ، إذ أنه كان فوق كل ذلك ، فاسداً مفسداً .

تتابع السورة السرد قائلة إن الله سبحانه و تعالى ، أراد أن يتفضل و يمنن على هذه الفئة الضعيفة المستضعفة .. التي هي بنو إسرائيل .. و يجعل من أفرادها قادة مرجوع إليهم و يجعلهم ورثة الأرض و مالكي مقدراتها ، و يجعل فرعون و هامان وزيره و أتباعهما ، يرون الذي كانوا يخشونه من بني إسرائيل (يقال أنها كانت رؤية بأن أحدهم سينزع من فرعون مُلكه) .

لذلك فقد أوحى الله سبحانه و تعالى ، إلى أم موسى أن ترضعه ثم ترمي به في البحر .. و طمأنها الله سبحانه و تعالى ، وحياً ، ألا تخاف و تجزع عليه لأنه قد صار في حفظ الرحمن رب العالمين ، و أمنه و أنه سوف يعيده إليها في الوقت المناسب و سوف يجعله من رسله .

و نتيجة لذلك وصل اليم بموسى إلى منتجع فرعون على البحر ، فالتقطه مواليه و أخذوه لفرعون لكي يتم الرحمن رب العالمين ، مشيئته و ويجعل موسى عدو لفرعون و مواليه ، ذلك لأن فرعون و ساعده الأيمن هامان و أتباعهما كانوا من الخطأة العصاة للرحمن رب العالمين .

و تخبر الآيات القرآنية إنه بتدبير و مشيئة الرحمن رب العالمين ، تدخلت امرأة فرعون في اللحظة المناسبة و منعت فرعون و آله من قتل الطفل الوليد و بررت بأنه قرة عين لها و لفرعون و ممكن أن يستفيدوا منه إن جعلوه ولداً لهما .

و تتابع الآيات القرآنية سرد بدايات قصة موسى مع فرعون ، فتصور حال والدة موسى الحزينة و قلبها المتفطر حزناً و ألماً على وليدها موسى .. و قد صار انقطاع معلوماتها عنه مدعاة لأن تسأل الناس صراحة عنه و تخبرهم كيف ألقت به في اليم ما يؤدي إلى انكشاف أمره و من ثم قتْله .. فكان أن ثبّت الرحمن رب العالمين ، عقلها و نفسها و أوحى إليها الطلب من أخته أن تتقصى أثره و أخباره ، فكان أن عثرت عليه الأخت في دارة فرعون .. و كان أن جعله الله سبحانه و تعالى ، لا يتقبّل الرضاعة من أحد .. و قد وصلت به الحال إلى حد الهلاك .. فانتهزت أخته الفرصة و أخبرت آل فرعون إنها تعرف من يمكنه إرضاع الوليد و هو أمين عليه ،

فكان أن قَبِلَ آل فرعون ذلك و أرسلوا موسى بإذن الله سبحانه و تعالى ، إلى أمه من دون أن يشعروا بشيء .. و هكذا علِمت الأم أن الرحمن حق و أن وعد الرحمن حق .. و إن هذه المعادلة الربانية ، قلة مَن يدركونها .

ثم بعد ذلك تنتقل بنا الآيات القرآنية مباشرة إلى فترة شباب موسى و بلوغه أوج قوته ، إذ أعطاه الرحمن ربه ، العلم و الحكمة .

و تخبر الآيات القرآنية عن دخول موسى ، ذات يوم ، إلى مدينة مصرية قيد الإنشاء على ما يبدو ، و كان هو مشرفاً أو مراقباً عليها ، و قد كان دخوله إليها مفاجئاً أو على غير موعد دخوله .. فإذا به أمام رجلين يتصارعان ، أحدهما من بني إسرائيل على ما يبدو ، و الآخر من جماعة عدوة له .. فطلب منه ذاك الذي من ملّته ، العون و النصرة على خصمه العدو ، فما كان من موسى أن لكم الخصم العدو المفترض فقتله بسبب ذلك .. و لما شاهد ما صار بالرجل و ما آل إليه بسبب فعلته تلك ، أدرك أن ذلك كان بتأثير و فعل الشيطان الذي هو عدو للإنسان ، فطلب من الرحمن ربه العفو و المغفرة على ما بدر منه من تسرع و غضب ، لكنه صار خائفاً من رد فعل المصريين اتجاهه فصار متوجساً يجول في المدينة بحذر و ترقب شديدين .

في اليوم التالي كان يمشي محاذراً في المدينة ففوجئ بذاك الذي من ملته ، في صراع ثانٍ مع آخر من عدو لهما ، و إذ به يستنجده مرة أخرى ، فتذكر موسى ذنب البارحة و صرخ بالرجل ملته .. واضح أنك إنسان مخادع كاذب .

لكنه و من دون أن يشعر ، دبت به الحماسة و هم بالقضاء على الرجل الثاني الذي هو عدو لهما ، فكان أن صاح به الرجل .. هل ستقتلني كما قتلت بالأمس و تنخدع بابن ملتك الكاذب ؟؟!! هل تريد أن تكون ظالماً متجبراً غاشماً في الأرض ؟؟!! .

هنا اقترب منهم رجل كان يبدو أنه يبحث عن موسى و قال له .. يا موسى لقد وصل خبر قتلك الرجلَ البارحة ، إلى فرعون و كبار رجاله ، و هم الآن مجتمعون يخططون لقتلك و أنصحك بشدة أن تخرج الآن من المدينة لأنهم يبحثون عنك .

إن سورة القصص و خلافاً لغيرها من مواضع القرآن الكريم ، قد أسهبت في التوسع و الشرح و التفصيل في سياق قصة موسى مع فرعون ، و هو ما لم يحصل من قبل مع أنبياء و رسل آخرين ، حتى ليشعر القارئ بأنه قد يكون هنالك خروجاً عن السياق المألوف للنص القرآني .. لكن الحكمة الإلهية الربانية ، اقتضت ذلك التوسع و الإسهاب في السرد .. ذلك لكي يدرك القارئ أمرين اثنين ..

الأمر الأول .. الجذور الأولى للصراع و العداء فيما بين موسى و فرعون ، من حيث تبيان مدى ذلك الظلم الفادح لفرعون ، و العتو في الظلم و الكفر و الفساد و الإفساد الذي آل الرجل إليهما .

الأمر الثاني .. تبيان مدى الحكمة الربانية الرحمانية في التعامل مع مجرى الأحداث و تدبير سيرها و التحكم بها ، و تبيان أن الرحمن رب العالمين ، هو الأول و الآخِر .. هو خالق الخلق مالك الملك رب الخلائق أجمعين ، بيده ملكوت كل شيء و إليه الرجوع .. و هو ما سنراها في السرد التالي لسورة القصص .. و هو أمر أشار إليه القرآن الكريم في قول الرحمن رب العالمين ، لموسى عن كيفية تدَخّله في شؤون حياته منذ ولادته و إلى

اللحظة التي جاء فيها إليه بناء على تقدير منه و قدر و مشيئة ، إذ جاء في القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى (*) أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي و عدو له و ألقيت عليك محبةً مني و لتصنع على عيني (*) إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها و لا تحزن و قتلت نفساً فنجيناك من الغم و فتناك فتوناً فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى } .

إذن .. خرج موسى من المدينة خائفاً مضطرباً ، من أن يلقى القبض عليه فيكون الموت مصيراً له .. فدعا الرحمن ربه ، دعاء لافتاً للنظر إذ طلب منه أن ينجيه من القوم الظالمين ، علماً أنه هو من ارتكب جناية القتل من دون سبب ، فما السبب ؟؟!! .

في الواقع لا تفسير منطقي لذلك سوى أن موسى الذي عاش في كنف فرعون طيلة حياته الماضية ، قد شاهد و رأى بأم العين ، الظلم و القهر الذي كان يمارسه فرعون و قومه .. و لا شك أنه قد رأى أعمال القتل و الموت و التعذيب من دون مبرر أو حكم ، تقع على الآلاف من الناس و ربما لمئاتهم ، فكان أن استنكر كيف يتم صدور حكم بالموت عليه لمجرد

عملية قتل واحدة لها أسبابها و مبررات حصولها ، و لو كانت خاطئة من حيث المبدأ .

بعد أن طلب موسى من الرحمن ربه ، النجاة من القوم الظالمين ، طلب منه أن يدله على الطريق الصحيح و يهيئ له أسباب الرشاد ، فكان أن وجهه الرحمن رب العالمين ، إلى مدينة مدين حيث يلتقي عند وصوله إليها و قصده عين مائها للشرب ، فتاتين تدفعان عنهما تدافع الرعاة ، و عندما سألهما عن مشكلتهما أخبرتاه إنهما لا تستطيعان السقي حتى ينتهي الرعاة الرجال من سقي مواشيهم ، ذلك لأن والدهما رجل كبير طاعن في السن و لا يستطيع العمل .. فكان أن تولى موسى هذه المهمة نيابة عنهما و سقى لهما أغنامهما .

و بعد أن ذهبت الفتاتان ، جلس موسى في الظل و أخذ يتأمل هذا الرزق الوفير من الماشية و الكلأ و الخير الناتج عنهما ، فأخبر ربه إنه فقير لكل ذلك و لا يملك شيئاً يسترزق منه .

و لم تمضِ هنيهة حتى أقبلت إحدى الفتاتين تقترب منه بخجل و قالت له إن والدها يريد أن يراه لكي يكافئه على ما قام به لأجلهما .. فذهب موسى معها و التقى والدها و أخبره كل ما حصل معه في مصر و سبب مجيئه لمدين ، فطمأنه الرجل أنه قد صار في أمان .

هنا تشجعت إحدى الفتاتين و طلبت من والدها العجوز أن يطلب من موسى العمل معه مقابل أجر مادي ، لقاء شجاعته و أمانته .. فكان أن عرض الشيخ على موسى أن يزوجه إحدى بناته نظير العمل لديه و إدارة أعماله لمدة زمنية متفق عليها .

هنا أيضاً يُلاحَظ الإسهاب القرآني ، بعض الشيء في تفاصيل حياة موسى الاجتماعية . و هو كما ذكرنا لأجل حكمة و غاية إلهية ربانية ذكرنا أسبابها سابقاً .

بعد أن انتهى موسى من عقد الاتفاق و العمل لدى حَميه .. قرر العودة إلى مصر ، فسار بأسرته ليلاً ، و في الطريق لمح من بعيد ناراً ، قدّر أنها لمسافرين في الطريق فطلب من أهله البقاء ريثما يذهب إليها و يأخذ ما يمكن الإفادة منه هناك .. و عندما وصل ناداه صوت خفي بمعنى .. يا موسى إنني أنا الله رب العالمين .. ثم بمعنى آخر .. ارم عصاك يا موسى ..

فلما رماها و صارت ترتجف و تدب فيها الحياة ، فر موسى من المكان مديراً ظهره لصوت الله رب العالمين ، حتى من دون أن يلتفت وراءه ، فناداه الرحمن رب العالمين بتؤدة و لطف أن ارجع يا موسى أنت بحضرتي آمن تماماً ، أدخِل يدك في جيبك لتخرج بيضاء تماماً من دون تسبب بأذى لك ثم اضمم يداك إلى إبطك ليزول عنك كل خوف أو رهبة ، إن تحول العصا و اليد ، هما برهانان مني أنا ربك إلى فرعون و قومه ، لأنهم قوم عصاة كفرة .

لكن موسى و بالرغم من ذلك كله ، سرعان ما عبّر عن خوفه أمام الرحمن رب العالمين ، من فرعون و أعوانه ، من أن يقتلونه بسبب ما اقترفه عندهم ذات يوم ، و طلب من الرحمن ربه أن يضم له أخاه هارون كونه أقدر منه على الكلام و التعبير .. فكان أن أجاب الله سبحانه و تعالى ، طلب موسى و أخبره إنه سيكون و أخوه ، المنتصرَين على فرعون و آله .

جاء موسى فرعون و آله ، بالبراهين الربانية و دعاهم إلى الحق ، لكنهم أنكروا كل ما رأوه من الحق و اعتبروه سحراً ظاهراً واضحاً ، مدّعين إنهم لم يسمعوا بهذا الأمر من قِبَل أسلافهم .

هنا .. تورد الآيات القرآنية سرداً آخراً لجدال و نقاش موسى مع فرعون و آله ، إذ تُظهِر ادعاء فرعون الألوهية (و العياذ بالله) و طلبه من هامان رئيس البنائين لديه ، أن يبني له هرماً كبيراً ضخماً ليَظهَر عليه و ينظر في أمر إله موسى لأنه يعتقد أن موسى كاذب في دعواه .. و في هذا الأمر مماطلة و تسويف و تهَرّب من الرد على البراهين الربانية الحق ، ذلك لأن بناء مثل هكذا هرم ، يستغرق سنين طوال لا بد أن يموت فيها أحد الأطراف .. موسى أو فرعون أو الملأ الحاضر .

و تقول الآيات إن فرعون و أتباعه قد تكبروا و تجبروا بعد ذلك في الأرض ظلماً و عدواناً و أسرفوا في ذلك معتقدين أن لا أحد يمكنه محاسبتهم و أنه لا بعث و لا حساب ، فكان أن أخذهم الرحمن رب العالمين ، و رماهم في البحر و جعلهم عبرة لكل معتبر .

هنا .. تأتي آية تدل على أن فرعون و بعض آله ، لم يهلكوا جميعاُ بل بقي منهم من بقي ، حيث تخبر أن الله سبحانه و تعالى ، قد جعلهم بعد حادثة البحر ، قادة و مراجع للكفر و دعاة إلى جهنم ، و أنهم في هذه الدنيا سيكونون مطرودين من رحمة الرحمن رب العالمين ، و في يوم القيامة سيكونون من أصحاب قبائح العمل و المآل .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً (*) قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات و الأرض بصائر و إني لأظنك يا فرعون مثبوراً (*) فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه و من معه جميعاً (*) و قلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً } .

تقود الآيات القرآنية آنفة الذكر ، إلى صورة مقطعية تشير إلى أن موسى قد جاء فرعون و آله ، بتسع دلائل و براهين إعجازية مادية ظاهرة لا يمكن دحضها أو تأويلها لغير وجود الرحمن رب العالمين ، و عظمته و قدرته الباهرتين ، لكن فرعون اتخذ سبيل التهرب و الكذب و المراوغة إذ قال عن ذلك إنه سحر و اتهم موسى بأنه مسحور .. فكان أن أبان موسى عوار تفكير فرعون و أنبأه إنه في طريقة إلى الهلاك بسبب كفره و كذبه و نفاقه ، لأنه في قرارة نفسه يعلم أن هذه البراهين و الأدلة الدامغة القطعية المادية ، ما هي إلا من عند الرحمن رب العالمين .. و لأن فرعون أبى و استنكف و استأنف ، فقد أغرقه الله سبحانه و تعالى ، و من معه .

إذن .. هي صورة نمطية قرآنية تتكرر دائماً بشكل مختلف كل مرة لكنها جميعاً تتمحور حول قضية واحدة ، و هي استكبار فرعون و أتباعه و

أعوانه و عبيده و رفضهم الحق البيّن الظاهر المبين مهما تعددت أشكاله و أنماطه .. مادية .. معنوية .. اعتبارية .. عقلية .. منطقية .. و إصرارهم على الطغيان و الظلم و الفسق و الفساد و الكفر .. و هاكم صورة أخرى مختلفة لكنها بيّنة ، يريدنا الرحمن رب العالمين ، أن نتمعن بها قليلاً و ننظر في وجوهها ..

بسم الله الرحمن الرحيم { ثم بعثنا من بعدهم موسى و هارون إلى فرعون و ملئه بآياتنا فاستكبروا و كانوا قوماً مجرمين (*) فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين (*) قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون (*) قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا و تكون لكما الكبرياء في الأرض و ما نحن لكما بمؤمنين (*) و قال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم (*) فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون (*) فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين (*) و يحق الله الحق بكلماته و لو كره المجرمون (*) فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون و ملئهم أن يفتنهم و إن فرعون لعال في الأرض و إنه لمن المسرفين (*) و قال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين (*) فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين (*) و نجنا برحمتك من القوم الكافرين (*) و أوحينا إلى موسى و أخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً و اجعلوا بيوتكم قبلةً و أقيموا الصلاة و بشر المؤمنين (*) و قال موسى ربنا

إنك آتيت فرعون و ملأه زينةً و أموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم و اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (*) قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما و لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون (*) و جاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون و جنوده بغياً و عدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل و أنا من المسلمين (*) آلآن و قد عصيت قبل و كنت من المفسدين (*) فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آيةً و إن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون } .

يتحدث آنف الآيات القرآنية عن أن فرعون و أشياعه و قومه ، مَثلهم كمَثل من مضى قبلهم من أقوام السوء ، لكن فرعون و قومه هؤلاء ، ربما يكونوا قد استحوذوا على ميزات و صفات من سبقهم و راكموها و أضافوا عليها و صقلوها و طوروها .. و صاروا إلى مستوى من النفاق مريد فصاروا إلى الكذب الأشِر و لا يأبهون .. إذ أنهم بعد أن رأوا الحق و الحقائق و البراهين بأم العين ، كذبوها و اعتبروها سحر مبين ، و شتان شتان ما بين الحق و السحر .. و هو الذي دعا موسى لأن يقول لهم بأسى و استنكار و شبه من يأس من النقاش معهم .. هل تقولون عن الحق الذي رأيتموه رأي العين و الذي لا شك فيه ، إنه سحر و أنتم تعلمون تمام العلم أنه هو الحق من عند الرحمن إلهكم و ربكم و خالقكم

الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ؟؟!!
و الساحر لا ينجح بعمله أبداً .

لكن العناد و النفاق و الرفض القاطع لكل ما هو من عند الرحمن رب العالمين ، قد صار سمة لدى هؤلاء القوم ، فاستمروا في تجاهلهم للحق و رفضهم له عاكفين على افترائهم و كذبهم و تكذيبهم ، فاتهموا موسى أنه يريد أن يطردهم من أرض مصر و يكون الملك له .. ثم طلب فرعون أن يكون هنالك نزال بين السحرة الكبار و بين موسى ، فكان النزال و حصل ما حصل ، و انهزم فرعون فيه لكنه لم يخضع للحق بل استمر في غيه ، و هو ما دعا الآيات القرآنية إلى الإشارة إليه ، إذ أنه بعد هذا الانتصار الكبير الهائل ، لموسى على فرعون .. لم يؤمن لموسى سوى فئة قليلة و من قومه فقط ، و ذلك كله بسبب الخوف من فرعون الذي كان متجبراً ظالماً موغلاً في ظلمه و قتله الناس مما دعا موسى لأن يشجع قومه و يزيل عنهم الخوف الذي هم فيه ، و ذلك بأن دعاهم للتوكل على الله رب العالمين ، و أن يسلموا أمرهم إليه ما داموا به مؤمنين ، فكان أن امتثل القوم له و دعوا الرحمن إلههم و ربهم و خالقهم الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له أو معه في شيء أو من شيء ، أن لا يجعلهم مادة اختبار و سلوى للظلمة الفاسقين ، و أن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين .

لقد استجاب الرحمن رب العالمين ، لدعاء موسى و قومه ، فطلب من موسى و هارون أن يجعلا اتجاه بيوت بني إسرائيل ، لناحية القبلة و أن يبتهلوا جميعاً إلى الله سبحانه و تعالى ، و يصلون له .. ثم عاود موسى دعاء الرحمن رب العالمين ، بأن يجعل أموال و كنوز و أرزاق فرعون و آله و قومه ، غوراً كلها و أن يجعل قلوبهم متحجرة من حيث يرون الإيمان و الحق و لا يعرفونه .. هذا الصورة و هذه الشدة في الدعاء ، تبينان للقارئ ، صورة الظلم و القهر و النفاق الذين عاناه موسى من فرعون و آله ، من حيث وصل إلى مرحلة اليأس الشديد من استجابة هؤلاء القوم لأي حق أو مطلب حق .

أمر الرحمن رب العالمين ، موسى بالخروج مع قومه باتجاه البحر ، فكان أن تبعهم فرعون بجيشه العرمرم .. و لما شق الرحمن رب العالمين ، البحر لموسى و قومه ، لم يوجس فرعون و لم يتعظ و لم يخشى بل دخل وراءهم البحر المفلوق .. و نجا بنو إسرائيل و أطبق البحر على فرعون و جيشه و أدركه الغرق فصار من المغرقين .. حينها أدرك أن لا مناص له و لا محيص من الموت و الهلاك المحتم و أنه وحيد لا ينفعه و لن ينفعه ملأ و لا نفاق و لا كذب و لا استكبار .. ساعتها و حينها فقط ، أخرج من فمه الحصوة

التي طالما أطبق عليها حبيسة سنين طوال ، ظلماً و نفاقاً ، و نطق بها بالحق قائلاً .. آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل و أنا من المسلمين .

لكن الرحمن رب العالمين ، الكبير العزيز الجبار المتكبر الغني عن خلقه و مخلوقاته أجمعين الذي يعرف قرارة فرعون جيداً ، لم يشأ يغرقه ذاك الحين ، بل تم إخباره إنه إسلامه هذا مشكوك فيه بعد أن كان عاصياً كل تلك السنين التي مضت .. و لنا أن نلاحظ دقة التعابير و الكلمات .. فلم يقال له استنكاراً .. آلآن و قد كفرت من قبل ؟؟!! بل قيل له .. آلآن و قد عصيت قبل و كنت من المفسدين .. ذاك هو سؤال استنكاري و ليس استفهامي .. يضاف إلى ذلك أن الكافر يمكن له أن يؤمن فيما بعد ، كونه قد لا يعلم بوجود الله سبحانه و تعالى .. بينما العاصِ هو يعرف و يعلم بوجود الرحمن رب العالمين و يعلم دلائل وجوده و قدرته و شرعه و أحكامه لكنه يؤثر الخروج منها و من ربقتها و لا يعود إلى دائرتها إلا مكرهاً لا حيلة له ، كحال فرعون الغريق ، و متى سنحت له الفرصة ، انفلت من عقالها و عاد سيرته الأولى في العصيان و الفسق .. كما يلاحَظ الأمر من عبارة (ننجيك ببدنك) أي أنها عملية إنقاذ كاملة للنفس و البدن .. كذلك عبارة (لتكون لمن خلفك آيةً) هي كذلك عبارة لها دلالة

عميقة ، فلم يقال له .. لمن بعدك ، بل قيل .. لمن خلفك .. أي أن هنالك أشخاص سيتبعون هذا الرجل و يعتبرونه قدوة لهم .. و بالتالي فإن الرحمن رب العالمين ، قد تركه حياً و ترك له حرية الخيار في أن يعلن إسلامه لأتباعه الذين هم خلفه أو يعيد سيرته الأولى في عتو الإجرام من الظلم و الفساد و الفسق و الكفر فيلزمهم إياها ، و هو ما سوف يحصل و قد أنبأ عنه القرآن الكريم في بداية الآيات التالية ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد أرسلنا موسى بآياتنا و سلطان مبين (*) إلى فرعون و ملئه فاتبعوا أمر فرعون و ما أمر فرعون برشيد (*) يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار و بئس الورد المورود (*) و أتبعوا في هذه لعنةً و يوم القيامة بئس الرفد المرفود (*) ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم و حصيد (*) و ما ظلمناهم و لكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك و ما زادوهم غير تتبيب } .

إذن .. فالرجل لم يؤمن و لن يؤمن .. و لم يسلم و لن يسلم .. تُرِك حياً و أُنقِذَ من الغرق ليكون إماماً لأتباعه كما ذكر آنف الآيات القرآنية .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد أرسلنا موسى بآياتنا و سلطان مبين (*) إلى فرعون و هامان و قارون فقالوا ساحر كذاب (*) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه و استحيوا نساءهم و ما كيد الكافرين إلا في ضلال (*) و قال فرعون ذروني أقتل موسى و ليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (*) و قال موسى إني عذت بربي و ربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (*) و قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله و قد جاءكم بالبينات من ربكم و إن يك كاذباً فعليه كذبه و إن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (*) يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى و ما أهديكم إلا سبيل الرشاد (*) و قال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب (*) مثل دأب قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم و ما الله يريد ظلماً للعباد (*) و يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد (*) يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم و من يضلل الله فما له من هاد (*) و لقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (*) الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله و عند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (*) و قال فرعون يا هامان ابن لي

صرحاً لعلي أبلغ الأسباب (*) أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى و إني لأظنه كاذباً و كذلك زين لفرعون سوء عمله و صد عن السبيل و ما كيد فرعون إلا في تباب (*) و قال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (*) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع و إن الآخرة هي دار القرار (*) من عمل سيئةً فلا يجزى إلا مثلها و من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى و هو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (*) و يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة و تدعونني إلى النار (*) تدعونني لأكفر بالله و أشرك به ما ليس لي به علم و أنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (*) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا و لا في الآخرة وأن مردنا إلى الله و أن المسرفين هم أصحاب النار (*) فستذكرون ما أقول لكم و أفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (*) فوقاه الله سيئات ما مكروا و حاق بآل فرعون سوء العذاب (*) النار يعرضون عليها غدواً و عشياً و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (*) و إذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار (*) قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد (*) و قال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب (*) قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا و ما دعاء الكافرين إلا في ضلال } .

يعطي آنف الآيات القرآنية صورة مختلفة عما سبق ، لكنها صورة مباشرة تعبّر عن شخصية فرعون و ملأه الكبار ، و هذه المرة أُضيفت شخصية جديدة إلى جانب شخصية فرعون و هامان ، و هي شخصية قارون التي اختُصَّت بالجانب المالي و جانب الثراء الفاحش ، علما أن قارون هذا ، هو من قوم موسى بحسب المنظور القرآني ..

بسم الله الرحمن الرحيم { إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم و آتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين (*) و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة و لا تنس نصيبك من الدنيا و أحسِن كما أحسَن الله إليك و لا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين } .

و الرجل قد عوقب عقاباً شديداً مخزياً ، من الرحمن رب العالمين ، إذ خسف به الأرض ، هو و ثروته و مُلكه جميعاً ، و هلك فيها و لم يظهر له أثر بعدها ..

بسم الله الرحمن الرحيم { فخسفنا به و بداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله و ما كان من المنتصرين } .

لقد تناولت الآيات القرآنية هذه المرة ، قضيتين أساس ، هما .. رفض فرعون و قومه أية حجة عقلية منطقي و أي نقاش و جدال علمي منطقي مهما كانت آثاره و نتائجه قاطعة .. كذلك أي معجزة أو برهان مادي ظاهر للعيان .. الأمر الثاني ، هو تحول فرعون و قومه من الرفض المباشر لكل ما هو عقلي برهاني أو ما هو إعجازي مادي برهاني ، إلى التهديد بالقتل و التخطيط و الشروع المباشرين له .. و قد ابتدأت الآيات القرآنية الكلام عن أنه بمجرد ما أن أتى موسى ، فرعونَ و آله بالبراهين الحق و رأوها بأنفسهم رأي العين ، حتى أصدروا الأوامر بقتل أبناء كل من آمن معه و إبقاء النساء للخدمة و المتعة .. و قد دفع فرعونُ بطلب أن يُترَك لكي يقتل موسى و أن يسمح لموسى بالاستنجاد بربه .. و في ذلك قمة الكفر و السفه و الإجرام .. و لا أدَلّ على ذلك من أنه قد برر ذلك بأنه يخشى من أن يكون موسى يريد نشر الفساد و الرذيلة في الأرض ؟؟؟؟؟!!!! و ذلك أمر ، قمة في الكذب و النفاق .. و هو أمر دعا موسى لليأس من أمر هؤلاء القوم و الاستعاذة بالرحمن رب العالمين ، منهم و من شرهم .

هنا .. و في هذه النقطة المفصلية بالذات ، تُظهِر الآيات القرآنية ، حدثاً بارزاً جديداً و مؤثراً في الوقت نفسه ، ألا و هو ظهور رجل من أتباع

فرعون ، يخفي إيمانه بالرحمن رب العالمين .. هذا الرجل طرح قضية غاية في العقلانية و المنطقية [1] إذ أنه سأل فرعون و كبار أعوانه .. لماذا تريدون قتل رجل ، فقط لمجرد أنه يقول إن ربه هو الرحمن رب العالمين ؟؟!! علماً أنه قد قدّم إليكم بالبراهين و الأدلة الكافية التي تثبت صدق أقواله .

هنا أيضاً يتابع الرجل تقديم حجته المنطقية فيقول إنه إن كان موسى كاذباً في كلامه و لا يوجد هذا الإله الذي يتكلم عنه ، فما هي المشكلة لديكم إن اتبعتموه أو تركتموه على حاله ؟؟!! لكن إن كان صادقاً في كلامه و بخاصة بعد تقديمه الأدلة القطعية على وجود هذا الإله الذي اسمه الرحمن ، فهنا أنتم أمام مشكلة حقيقية و مصيبة كبرى ، و هي أنه سيقع عليكم كل العقاب الذي أخبركم عنه الرجل ، فما الذي ينجيكم من عقاب و بطش هذا الإله الذي يحدثكم عنه موسى ؟؟!! و ما حالكم و مآلكم إن وقع عليكم هذا العقاب و البطش بعد أن كنتم أقوياء في الأرض متملكين مستعلين فيها ؟؟!! .

[1] للمزيد المفصَّل حول هذه الحادثة ، راجع كتابنا (القضايا المنطقية و الافتراضية في القرآن الكريم) .

هنا .. مرة أخرى يدفع فرعون للهروب من النقاش المنطقي ذي الحجة الدامغة ، فيدّعي إنه يقول الحق و إنه يدعو قومه إلى الطريق الصحيح و الصواب ، لكن من دون أي برهان أو حجة أو دليل .

هنا أيضاً .. يلجأ ذلك الرجل المؤمن سراً و الذي هو من أتباع فرعون ، إلى تذكير قومه بأقوام السوء الذين سبقوهم و كيف كان مصيرهم و هلاكهم على يد الرحمن رب العالمين .. و هذه إشارة قوية إلى مراكمة أقوام السوء لأفعال و تصرفات و عقائد من سبقهم ، و إشارة قوية أيضاً إلى معرفتهم بهم و معرفتهم بمصائر السوء التي حاقت بهم .. و كأن هذا الرجل يقول لفرعون و آله .. أنتم تعرفون جيداً أن موسى على حق فلا داعي للكذب و المماطلة و التسويف ، لأنكم تعرفون يوسف النبي الذي كان من قبل في أرضكم و تعرفون من آمن به و كيف آمن و لما آمن .. و حين قضى نحبه ارتديتم على أعقابكم تظنون أن الرحمن رب العالمين ، لن يرسل أحداً بعده ، و ها قد جاءكم رسول من عند الرحمن رب العالمين ، بالدلائل و البراهين العقلية و المنطقية و المادية ، فأين تذهبون بنفيكم لكل هذه الحقائق و هذا التاريخ ؟؟!! .

هنا .. و بعد هذه الحجج المنطقية الدامغة التي لا مجال لنكرانها و التي من الممكن أن يتأثر بها بعض أتباع و قوم فرعون ، لم يجد فرعون بداً من اللجوء إلى أسلوب التأجيل و التسويف ، فطلب من هامان رئيس بنائيه أن يبني له هرماً كبيراً لكي يظهر عليه و يتأكد من صدق كلام موسى .. و المعروف علمياً و حتى تاريخياً أن بناء مثل هكذا هرم ، يحتاج إلى سنين طوال ، يموت من يموت فيها و يحيا فيها من يحيا .. و ينسى فيها من ينسى .. فكانت هذه هي حيلة فرعون للنجاة من طوق الحصار المنطقي و المادي الذي أحاط به من كل جانب .. و قد أشار القرآن الكريم إلى هذه النقطة كاشفاً إياها بالعبارة التي تلت كلام فرعون ، القائلة (و كذلك زُين لفرعون سوء عمله و صد عن السبيل و ما كيد فرعون إلا في تباب) .

يعود الرجل المؤمن سراً ، من آل فرعون ، إلى وعظ أقرانه و قومه و يحذرهم من هذه الدنيا الفانية الزائلة ، و يدعوهم إلى الرحمن الإله الحق ، لكنه نهاية الأمر يشعر باليأس من إيمان هؤلاء القوم الذين استحكم فيهم الكفر ، فيفوض الرجل أمره إلى الرحمن رب العالمين ، صابراً محتسباً ، فكان أن أنجاه الله سبحانه و تعالى ، و جعل العذاب الأليم على كل من تبع فرعون .. و حكم أيضاً بالنار مصيراً لكل من يتبع فرعون و يتخذه قدوة له ، إلى يوم

القيامة .. حكماً مبرماً .. بسم الله الرحمن الرحيم { جزاءً وفاقاً (*) إنهم كانوا لا يرجون حساباً (*) و كذبوا بآياتنا كذاباً } .

تتابع الآيات القرآنية الكريمة السرد و تورد قضية على جانب كبير من الأهمية ، ألا و هي العبيد الذي كانوا يخضعون لفرعون و آله ، إذ توضح الآيات أنهم ليسوا بمنأى و لا منجى من العذاب الأليم ، فتورد الآيات القرآنية مشهداً في جهنم و فيه يظهر أولئك العبيد و هم يقولون لآل فرعون إننا كنا خدم و عبيد لكم و لا ذنب لنا في كل ما حصل إذ أجبرتمونا على الفساد و الفسق و العصيان و الكفر ، فهل تستطيعون هنا في هذا المكان الذي نحن فيه ، أن تمنعوا عنا شيئاً من العذاب ، كما كنتم تخبروننا في الحياة الدنيا إنكم آلهة (و العياذ بالله) لكم السطوة و القدرة ؟؟!! فينكر آل فرعون ذلك ، كذباً و نفاقاً كما كان عهدهم في الحياة الدنيا ، و يخبرون أولئك العبيد إن هذا هو حكم الرحمن رب العالمين ، و إنه قد حكم أن يكونوا جميعاً في جهنم .. فيتجه أولئك العبيد إلى الملائكة القائمين على جهنم و يطلبون منهم أن يدعوا الرحمن رب العالمين ، أن يخفف عنهم يوماً من العذاب ، فيسألهم أولئك الملائكة .. ألم يأتكم رسل و يحذرونكم من يومكم هذا الذي أنتم فيه ، فتؤمنون بالرحمن جهرة أو على الأقل تكتمون إيمانكم به تقية كما فعل مؤمن آل فرعون ؟؟!! يجيب

العبيد بنعم ، فتسخر منهم الملائكة قائلين .. إذن استمروا بالدعاء و الصراخ .

بسم الله الرحمن الرحيم { و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهةً يُعبَدون (*) و لقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون و ملئه فقال إني رسول رب العالمين (*) فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون (*) و ما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها و أخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون (*) و قالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون (*) فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون (*) و نادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر و هذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون (*) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين و لا يكاد يبين (*) فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين (*) فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين (*) فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين } .

يبرز آنف الآيات القرآنية صورة نمطية أخرى معززة لما أبرزته أخرى في القرآن الكريم ، إذ يتحدث عن قضية مهمة جداً ذات مفهوم توحيدي خالص للرحمن رب العالمين الذي لا إله الا هو .. و تبرز هذه الآيات صورة تقول إنه عبر التاريخ البشري كله و منذ وجود البشر على هذه

الارض ، لم يأت و لا رسول واحد إلا ليدعوا إلى الرحمن رب العالمين لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، و إن هذه قضية محسوم أمرها تماماً و لا مجال للمناقشة فيها أو تأويلها في غير محلها .

و عندما ننظر في سياق هذه الآيات نرى أن بدايتها قد جاءت بصيغة سؤال موجه إلى الرسول الكريم محمد ، أن يسأل عن مَن قبله مِن الرسل هل أحد منهم دعا لغير الرحمن رب العالمين ، كإله أحد واحد أوحد لا شريك له في شيء أو من شيء ؟؟!! إذن .. الآية القرآنية تشير إلى نقاش و جدال حول مفهوم الإله و هوية الإله ، و من هو الإله و ما هي صفات هذا الإله .. و تلك الآية حسمت حسماً قاطعاً لا مجال فيه لتلاعب أو تأويل .. أنه لا يوجد غير الرحمن إلهاً أحداً أوحداً واحداً ، في الكون كله ، و من أراد أن يبحث فليبحث .. و من أراد أن يتيه و يضل و يضيع ، فليذهب في غياهب الضياع والضلال ، لا مَرَدّ له و لا نصير .

ثم تنتقل الآيات مباشرة بعد ذلك إلى قضية فرعون ، أي أن هنالك ربط بين قضية الرحمن رب العالمين الإله الأحد الأوحد الواحد ، و بين قضية فرعون المنكِر للرحمن المعاند العنيد المعند له .. فتورد تلك الآيات القرآنية فكرة الدلائل و البراهين القطعية التي جاءت لهذا الشخص و لقومه و

الذين شكلوا حالة فريدة متفردة مميزة ، في الظلم و الطغيان و الفساد و الكفر لم يسبق لها مثيلاً و ربما لم يأتِ لها من بعدها مثيلاً .. فكانت جامعاً لما قبلها مضيفاً محصياً مطوراً .. و مثالاً لما بعدها و شعاراً و نبراساً .. و لذلك قيل لفرعون عندما غرق (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آيةً) .

و عندما يتابع القرآن الكريم القول .. إن كل برهان قُدِّمَ لفرعون و قومه ، كان أكبر و أقوى من الذي سبقه .. و عندما يقول القرآن الكريم إنه لم تأتِ قرينة قاطعة لهؤلاء القوم إلا و كانوا يضحكون منها و يكذبونها ، فنحن هنا أمام منظومة لا مجال للنقاش معها أو الجدال بل يفوَضُ الأمر فيهم لله سبحانه و تعالى ، كما فعل مؤمن آل فرعون .

بسم الله الرحمن الرحيم { و لقد فتنا قبلهم قوم فرعون و جاءهم رسول كريم (*) أن أدوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين (*) و أن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين (*) و إني عذت بربي و ربكم أن ترجمون (*) و إن لم تؤمنوا لي فاعتزلون (*) فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون (*) فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون (*) و اترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون (*) كم تركوا من جنات و عيون (*) و زروع و مقام كريم (*) و نعمة كانوا فيها فاكهين (*) كذلك و أورثناها قوماً آخرين (*) فما بكت عليهم السماء و

الأرض و ما كانوا مُنظَرين (*) و لقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين (*) من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين } .

إن المشهد الذي تظهره لنا الآيات القرآنية ، هو جعل فرعون و آله ، مثلاً لأهل السوء بعدهم ، فتُذَكّر هؤلاء الأقوام بفرعون و آله و كيف فعلوا و ما كان جزاؤهم و مآلهم و مصيرهم .. إذ تقول هذه الآيات لهؤلاء القوم إنه قد جاء قبلكم رسول إلى فرعون و آله ، من الرحمن رب العالمين ، كما جاءكم الآن رسولكم .. و هذا الرسول اسمه موسى و كان معه آيات و دلائل و براهين منطقية و مادية مبصرة و غير مبصرة .. و قد أخبر هذا الرسولُ ، فرعونَ و قومه إنه رسول من الرحمن رب العالمين و إنه يتوجب عليهم أن يطيعوه و يتبعونه ، على الأقل فيما يختص ببني اسرائيل اذ يسمح لهم بالذهاب معه .. ذلك إن لم يكونوا يريدون أن يؤمنوا بالرحمن رب العالمين ، و يتبعون رسالته وحكمه و شرائعه ، في الأرض .

لكن يبدو أن هؤلاء القوم ، فرعون و آله ، كانوا قوم مجرمين لا يأبهون بحق و لا ببرهان .. فبيّنَت الآيات للقوم الذين تلوهم ، إنهم قوم لا يتعظون و لا يعتبرون مهما يأتِهم من آية و برهان و دليل ، كانوا يكذبون هذا الرسول الذي استعاذ بالله الرحمن الرحيم ، منهم أن يقتلوه بدلاً من أن يخضعوا لرسالته الحق و دلائله الحق و آياته الذي جاء بها إليهم مبصرة .. فما

استكانوا و ما اهتدوا و هموا به ليقتلوه و قد طلب منهم أن يعتزلهم و يعتزلوه و يذهب كل منهم في حاله .. و وصل بهم الحال إلى أن يدعو موسى الرسول ، الرحمن ربه قائلاً .. ربي إن هؤلاء قوم مجرمون .. أي أنهم قوم لا يتعظون بشيء و لا يعترفون بشيء و لا يعظهم شيء و لا يقفون عند حد .

و لذلك تخبر الآياتُ الأقوامَ اللاحقة لفرعون و قومه ، إن الله سبحانه و تعالى ، قد أمر موسى أن يسري ببني اسرائيل و أن يتخذ البحر سبيلاً له ، و أخبره إن هؤلاء القوم السوء الفجرة الكفرة ، سوف يتبعونه ليقتلوه و قومه ، بعد كل هذه البراهين و كل هذه الدلائل .. ذلك أنهم فعلاً قوم مجرمون ، و لو لم يكونوا قوماً مجرمين ، لما اتبعوه و دخلوا وراءه البحر ، و لما كان الله سبحانه وتعالى ، قد أغرقهم .

لقد بلغ من شده أذى فرعون و قومه و اجرامهم و عدوانهم و ظلمهم و إفسادهم و فسادهم ، أن قرن الله سبحانه وتعالى ، العذاب المهين ، بهم ، إذ تخبر الآيات القرآنية إن الرحمن رب العالمين ، قد نجّى بني اسرائيل من العذاب المهين الذي هو فرعون و قومه هؤلاء الذين تميزوا بأنهم كانوا يقتلون الرجال ويبقون على النساء للخدمة و المتعة .

بسم الله الرحمن الرحيم { و في موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين (*) فتولى بركنه و قال ساحر أو مجنون (*) فأخذناه و جنوده فنبذناهم في اليم و هو مليم } .

مشهد مختصر متكرر .. إخبار قصصي وعظي عن فرعون و قومه .. دعوة للرحمن رب العالمين .. رفض للدعوة إلى الرحمن رب العالمين .. عقاب أليم من الرحمن رب العالمين .. موسى رسول إليهم من الرحمن رب العالمين ، مع براهين و حجج دامعة قاطعة .. فرعون يُعرِض و يدير ظهره و يتهم موسى الرسول تارة بالسحر و تارة بالجنون .. فكان أن عاقبهم الرحمن رب العالمين ذي العزة و الجبروت ، بالغرق في البحر .

بسم الله الرحمن الرحيم { ثم أرسلنا موسى و أخاه هارون بآياتنا و سلطان مبين (*) إلى فرعون و ملئه فاستكبروا و كانوا قوماً عالين (*) فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا و قومهما لنا عابدون (*) فكذبوهما فكانوا من المهلكين } .

مشهد آخر مشابه لما سبق من مشاهد قرآنية .. رسول من عند الرحمن رب العالمين الملك القدوس المهيمن ، مع براهين و دلائل ثابتة قاطعة محكمة .. تكذيب و رفض و استكبار .. تقديم حجج داحضة كاذبة لا علاقة لها بما جاءهم من براهين و رسالة إلهية رحمانية ربانية .. بطش و عقاب مدمر مهلك .

بسم الله الرحمن الرحيم { هل أتاك حديث موسى (*) إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوًى (*) اذهب إلى فرعون إنه طغى (*) فقل هل لك إلى أن تزكى (*) و أهديك إلى ربك فتخشى (*) فأراه الآية الكبرى (*) فكذب و عصى (*) ثم أدبر يسعى (*) فحشر فنادى (*) فقال أنا ربكم الأعلى (*) فأخذه الله نكال الآخرة و الأولى (*) إن في ذلك لعبرةً لمن يخشى } .

إن آنف الآيات القرآنية يُحكَم قراءة و استخلاصاً ، بمقدمته القائلة (هل أتاك حديث موسى) و خاتمته القائلة (إن في ذلك لعبرةً لمن يخشى) .. إن ما بين المقدمة و الخاتمة المذكورتين ، هو أن الرحمن رب العالمين الملك العزيز الجبار المتكبر ، قد آثر الرحمة فتجلى لعبده موسى رحمة و صوتاً ، و طلب منه الذهاب إلى فرعون و قومه ، بسبب طغيانهم الفاحش ، و إتيانهم البراهين و الدلائل القاطعة ، لعلهم يتعظون فيهتدون فيرتدعون فيُرحَمون ، و هو سبب تجلي الرحمن رب العالمين ، لعبده موسى رحمة و صوتاً ، يضاف إلى ذلك ، الرحمة ببني إسرائيل قوم موسى المستضعفين في الأرض .. لكن فرعون و قومه أبَوّا و أنكروا و رفضوا و عصوا ، فكان العقاب المهلك .. فمن أراد العبرة و الموعظة و النصح ، فذلك كله هنا .. و من لن يُرد فذاك أمره و شأنه و لا يلومنّ إلا نفسه ، ذلك أن الرحمن

رب العالمين ، قد ترك دائماً باب العظة و الاعتبار ، مفتوحاً .. كيف لا و هو الغفور القريب الودود .

بشكل مختصر عن ذي قبل .. إن كل قصص مختصر من الآيات القرآنية حول سيرة موسى و فرعون ، يكون قد أوضح ما قبله ، بمعنى أن القارئ قد علم بشكل أكثر تفصيلاً من قبل ، عن قصة و نبأ موسى مع فرعون و آله .. و هنا .. تذكر الآيات بشكل مختصر و لكن معبر لما قبله ، تكرار مفهوم (الرسالة لشخص) الذي ذكرناه سابقاً في مبحثنا هذا .. الرحمن رب العالمين يأمر عبده موسى .. اذهب يا موسى إلى فرعون .. ذهب موسى إلى فرعون .. قدَّم له الآيات و البراهين القاطعة التي لا مجال للشك فيها أو الطعن .. فرعون أنكر و رفض و ذهب يسعى للحرب و القتال و القتل و يدعوا الناس إلى أنه ربهم الأعلى (و العياذ بالله) فأخذه الله أخذاً وبيلاً .

هنا .. نحن أمام حالة إعادة سرد قرآنية .. إعادة تدَبّر و تفكير .. القرآن الكريم يريد أن ينبه الناس إلى نقطة معينة و هي أنه من كثرة تكرار القرآن الكريم ، القصص عن هؤلاء القوم .. هنالك إشارة أنهم لم يبادوا جميعهم حينها .. و أن هؤلاء القوم قد شكلوا نقطة مفصلية فيما قبلهم و ما

بعدهم من أقوام سوء .. ذلك أنهم جمعوا و راكموا كل سمات الفسق و الفساد و العصيان و الرذائل و الظلم و الكفر .. و قد أحصوها و أحضروها و طوروها و حافظوا عليها ثم أعادوا صياغتها و طرحها بشكل آخر لما تلاهم من أقوام آخرين .. و لذلك نرى هنا كيف أن آنف الآيات يتكلم بشكل مختصر عن فرعون و آله .

بسم الله الرحمن الرحيم { كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب (*) ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم و أن الله سميع عليم (*) كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم و أغرقنا آل فرعون و كل كانوا ظالمين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم و لا أولادهم من الله شيئاً و أولئك هم وقود النار (*) كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم و الله شديد العقاب } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و قال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب (*) مثل دأب قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم و ما الله يريد ظلماً للعباد (*) و يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد } .

باختصار شديد .. الدأب يفسر لنا الكثير .. لقد وردت كلمة (الدأب) أربع مرات في القرآن الكريم كما في الآيات السابقة هنا .. ثلاث منها تناولت قوم فرعون و آله ، و الرابعة تناولت قوم نوح و عاد و ثمود لكن الذي قالها هو مؤمن آل فرعون ، و في حضور فرعون و قومه و لفرعون و قومه .. إذن .. الدأب ككلمة و مصطلح ، هو من اختصاص آل فرعون بشكل عام .. لكن ما هو الدأب هذا ؟؟!! .

الدأب لغة .. هو الاستمرار و المواصلة المتواترة على وتيرة واحدة لأجل عمل و غاية محددين ، مع بذل الجهد و العمل لأجل ذلك ، و لا أدَلّ على ذلك من القرآن الكريم نفسه إذ جاء فيه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و سخر لكم الشمس و القمر دائبين و سخّر لكم الليل و النهار } .

و لعله بالنظر إلى طبيعة و قانون حركة الشمس و القمر ، و تباين الليل و النهار ، يتضح لنا معنى كلمة و مصطلح (الدأب) .

و الدأب هو حركة و فعل إراديان لا يتوقفان من تلقاء نفسهما أو بإرادة صاحبهما أو فاعلهما ، لأن الفاعل و القائم بهما لا يقبل إيقاف دأبه هذا أبداً .. و لا يتم إيقاف الدأب إلا بقوة قاهرة أعلى من قوة القائم به ، كأن يكون هنالك غصب أو إكراه أو قتل أو بطش أو عقاب مدمر مُهلِك .

و متى سنحت الفرصة لفاعل الدأب أن يعود إلى دأبه ، فإنه يعود إليه و لا يبالي و لا يأبه و لا يتعظ أو يعتبر .. فهذا هو الدأب لمن لا يعرفه .

فرعون و قومه .. قراءة فكرية

إن شخصية كشخصية فرعون .. تستحق أن يكون لها قراءة فكرية خاصة بها .. و لعلنا قد لاحظنا في سابق الآيات في هذا المبحث ، أن القرآن الكريم قد أعطى هذه الشخصية عناية خاصة و أولاها اهتماماً و إيضاحاً و ذكراً ، مِن الكثرة بمكان .

لقد حوى فرعون و آله و قومه كل مَجامِع أقوام السوء ممن كانوا قبلهم و سبقوهم ، و أضافوا إليها مجامع جديدة لم تكن موجودة قبلاً ، لا بل لم تك معروفة و لم تكن لتوجد أصلاً .

كما يتضح لنا من حيثيات الآيات القرآنية ، أن هؤلاء الرهط ، ليس فقط قد جمعوا مما قبلهم و أضافوا مما عندهم ، لا بل قد أسسوا أيضاً لِما بعدهم .. و لهذا فإننا نلاحظ أنه لم يأت بعدهم أقوام سوء في القرآن الكريم ، من أصحاب الوصف و التوصيف الخاص .. و لذلك كثُرَ الكلام عنهم في القرآن الكريم حتى أنه ربما لا تكاد سورة منه ، تخلوا من أثر لهم أو إشارة تدل عليهم أو ذكر صريح ، بالأسماء و الكنى .

و كما تقدم معنا سابقاً ، فقد ورد ذكر فرعون و قومه في مواضع كثيرة متعددة مختلفة في القرآن الكريم .. و ما رأيناه مما سبق في هذا المبحث ، من آيات قرآنية تناولت هذه الشخصية ، لهو غيض من فيض .

إننا عندما نعلم أن فرعون هو أكثر شخصية ذُكِرت في القرآن الكريم ، فنحن لا شك أمام حدث و خبر تاريخي لقوم يستحقون المناقشة و التدبر و القراءة الفكرية .

و ما تم لحظه في ما سبق من آيات هذا المبحث ، هو أننا أمام منظومة متشعبة متقدمة في الطغيان و الكفر و الكذب و النفاق .

إن ما تميزت هذه المنظومة ، أشياء عدة لم تكن في الأقوام السابقة ، كالمماطلة و التسويف و التأجيل و النفاق و الكذب الأشِر الوقح و عدم التقيد بأي التزام أخلاقي أو أدبي أو عرفي .. لا شيء من ذلك أبداً .. و لذلك و خلافاً للأقوام الذين سبقوا فرعون و قومه فإن هذه نقطة تجب مراعاتها و تستحق النظر و التأمل .

الأمر الثاني هو أن هؤلاء القوم قد اختصوا بالمفاسد جميعاً و حواصل الفسق و الكفر و النفاق و كل ما له علاقة بالإجرام أيضاً .. ذلك ما لم يختص به أقوام سوء سبقوهم إذ كان لكل قوم سوء سابق لهم ، ميزة معينة اختص بها .. فقوم لوط مثلاً اختصوا بالخبائث ، و قوم إبراهيم اختصوا بعبادة الأصنام ، و قوم مدين اختصوا بالفساد و الإفساد و بخس الناس أشياءها .. و قوم عاد اختصوا بالشرك ، و هكذا .. إنما فرعون و قومه هؤلاء ، فقد جمعوا نواصي الإجرام و الفساد و الكفر كله ثم صهروها في بوتقة واحدة و خرجوا بها كمنظومة جديدة متقدمة لها هيكل إداري تنظيمي واحد .

إن فرعون و قومه ، هم فقط القوم الذين لهم من دون غيرهم من أقوام السوء ، مصطلح الجنود و الأوتاد ، فقد جاء في القرآن الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم { هل أتاك حديث الجنود (*) فرعون وثمود } .

بسم الله الرحمن الرحيم { فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و نري فرعون و هامان و جنودهما منهم ما كانوا يحذرون } .

بسم الله الرحمن الرحيم { إن فرعون و هامان و جنودهما كانوا خاطئين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و استكبر هو و جنوده في الأرض بغير الحق و ظنوا أنهم إلينا لا يرجعون (*) فأخذناه و جنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و جاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون و جنوده بغياً و عدواً } .

بسم الله الرحمن الرحيم { فأخذناه و جنوده فنبذناهم في اليم و هو مليم } .

بسم الله الرحمن الرحيم { كذبت قبلهم قوم نوح و عاد و فرعون ذو الأوتاد } .

بسم الله الرحمن الرحيم { و فرعون ذي الأوتاد (*) الذين طغوا في البلاد (*) فأكثروا فيها الفساد } .

و الأوتاد في القرآن الكريم ، تعني مراكز القوى المختلفة المنتشرة في أماكن عدة متفرقة .. إذن .. فنحن و الحالة هذه أمام منظومة ذات جنود و مراكز قوى متعددة منتشرة ، و هو أمر ما حصل و لم يكن ليحصل من قبل مع أقوام السوء الذين سبقوا هذه الملة من السوء .

أيضاً هنالك ميزة الاستعباد و القهر و إذلال الناس و تقسيمهم فرق و طوائف تحارب بعضها بعضاً ، و هو ما لم يكن موجوداً فيما سبق من أقوام سوء .. كذلك قتل الناس ، رجال و أطفال و ترك النساء للخدمة و المتعة .. أمور كلها لم تكن موجودة فيما سبق من أقوام السوء .

أيضاً يلاحَظ كثرة النقاش و الجدال فيما بين موسى و فرعون ، في القرآن الكريم .. و هو ما لم يحصل من قبل و لا من بعد .. صحيح أنه وردت آية في القرآن الكريم تشير إلى كثرة جدال نوح مع قومه ..

بسم الله الرحمن الرحيم { قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين } .

لكن كثرة مواضع النقاش و الجدال ، في القرآن الكريم ، كانت حصة الأسد فيها لموسى و فرعون .. و هذا دليل على شدة انحراف هؤلاء القوم عن جادة الحق و الصواب .

الأمر الآخر الذي يمكن ملاحظته أيضاً .. هو أنه عندما كانت تأتي فرعون و آله ، آية أو برهان عقلاني منطقي لا يمكن دحضهما ، فإنهم كانوا لا يقبلون بهما و يكذبوهما تماماً .. كذلك الأمر فعلوه مع الآيات الظاهرة المادية ، كالعصا التي تحولت إلى ثعبان حقيقي ، و كذلك اليد البيضاء .

لكن الأخطر في الأمر الذي تميز به هؤلاء القوم عن غيرهم من أقوام سوء ، أنهم كانوا إذا حُشِروا في زاوية الإحراج المنطقي أو حتى المادي ، فإنهم كانوا يلجأون فوراً و من دون مقدمات ، إلى الحرب و القتل أو الرد بعنف و تصفية حساباتهم بالسيف .

أيضاً هنالك ميزة ربما لم يسبقهم إليها أحد من أقوام السوء ، ألا و هي المماحكة و التسويف و الجدل العقيم .. و يبدو أن هؤلاء القوم كانوا مختصين بالجدل و النقاش العقيمين المتعمدين .. يعني مثلاً .. جاءك شخص يقول لك .. لا أريد منك شيء .. فقط اترك بني اسرائيل يخرجون معي .. فتأتي أنت و ترد عليه القول .. أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟؟؟!!! عجيب غريب .. هو يعلم .. هو واعٍ عندما يقول .. و أنت تعلم ما يقوله .. و كلامه واضح تماماً .. إذن .. هناك شيء غير منطقي أبداً ، و هذا على ما يبدو ، كان المنهج المتبع لدى هؤلاء القوم .

القضية أو الميزة التالية لدى هؤلاء القوم ، هي العناد المرعب حتى مع الآيات المخيفة و مع الضربات و البطش الرباني .. إذ أنه من المفترض أن يخشى هؤلاء القوم و يخضعوا خوفاً و رهباً لكنهم كانوا لا يأبهون .

إن من أهم السمات التي تميز بها فرعون و قومه ، هو العناد الشديد و المقاومة العنيدة المعنِّدة الشرسة لكل ما هو من عند الرحمن رب العالمين ، بالرغم من كل تلكم الآيات و الدلائل الحية المادية التي لا مجال لدحضها أو إنكارها ، و التي تثبت وجود الرحمن رب العالمين ، إلهاً أحداً أوحداً واحداً لا شريك له أو معه ، في شيء أو من شيء .. و هي آيات و براهين و معجزات اتسمت بالأذى و الضرر و العنف ، الماسين لفرعون و آله و قومه و ملأه ، كما اتسمت بطول العهد و المدة ، و ذلك كله خلافاً لما كان عليه الحال فيمن سبق فرعون و قومه ، من أقوام السوء في القرآن الكريم .. الذين لم يطل العهد معهم في العقاب الرباني أكثر من أيام معدودة أو سويعات قليلة أو ربما لحظات ، ليتم إفناؤهم و إبادتهم عن بكرة أبيهم .

كما برز في فرعون و قومه ، ظاهرة الهروب و التهرب من الآيات و البراهين و الدلائل و المعجزات الإلهية الربانية القاهرة ، و حتى تلك المنطقية منها ، إلى التسويف و المماطلة و التمديد (ارجه و أخاه .. ادعو ربك بما عَهِدَ عندك .. أخِّر .. أجِّل .. انتظر .. الخ) .

و يتضح لنا ذلك ، من أمثلة كثيرة ، منها الاجتماع و اللقاء فيما بين موسى و السحرة .. من حيث أنه و بنظرة معمّقة بعض الشيء ، نجد أن فرعون (و بإيحاء من ملأه) هو الذي دعا موسى إليه .. كما أن فرعون قد تجشّم العناء الكبير لأجل ذلك .. ذلك العناء الذي لا يُستطاع له إلا مِن قبل الدول و الممالك الكبيرة و النظام الإداري الكبير الضخم الذي يتطلب المراكز و الأفرع التابعة لها ، و ذلك من حيث أن فرعون قد قام بجمع السحرة من أرجاء المملكة كافة .. و معروف أن الساحر في مصر القديمة ، كان له سطوة في المجتمع و عند الناس .. فضلاً عن ذلك فقد تم تخصيص جيش خاص لهذه المهمة التي انحصرت فقط في جمع السحرة من كل أنحاء مصر .. يضاف إلى ذلك أيضاً ، قضية جمع الناس أو ما يسمى بالحضور أو الحشد الجماهيري ، و هي مهمة ليس يسيرة أبداً في تلكم الأزمان ، حيث لا وسائل إعلام أو غيرها ليتم جمع الناس من الأصقاع كافة و بفترة زمنية قياسية .. و هذا الأمر بالذات يتطلب إمكانيات هائلة جبارة .. يتطلب استخدام و استنفاذ كل الإمكانات و الوسائل المتاحة .

و يمكننا أيضاً ملاحظة طلب فرعون من وزيره هامان ، بناء صرح كبير له ، ليطلع عليه و يراقب إله موسى (على حد زعمه) و هذا الصرح ، من المؤكد أنه قد تطلب أيضاً هو الآخر ، جهوداً جبارة كبيرة ، و استنفذ قدرات و طاقات هائلة (هنالك من يقول أنه هو الأهرامات نفسها) .

و إذا أضفنا لما سبق جميعاً ، إصرار فرعون و آله و قومه على المضي قدماً في عصيانهم الرحمن رب العالمين ، بتكذيبهم موسى حتى بعد خساراتهم لكل رهاناتهم آنفة الذكر ، و المضي قدماً في حرب موسى و قومه ، إلى درجة أن لحقوا بهم بجيش عرمرم لأبادتهم و استئصالهم ، و دخلوا البحر وراءهم ، بعد أن فلقه الرحمن رب العالمين ، لموسى لكي يعبر هو و قومه .. و لم يرتدع فرعون و ينكفئ إلا بعد أن أُبيدَ جيشه جميعاً ، و أدركه هو الغرق و أحاط به الموج من كل جانب .. فأي إصرار هذا و أي عناد و تصميم ؟؟؟!!! .

أقوام السوء قبلهم كانوا يقولون لرسلهم (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) بينما هؤلاء القوم .. قوم فرعون كانوا يقولون لموسى (مهما تأتنا من آية فلن نؤمن لك) .. أي أن الأمر في الكفر و العناد ، قد تطور من رفض الوعظ إلى رفض حتى المعجزات الظاهرة المادية العيانية نفسها .. فالآية في القرآن الكريم تعني في أحد وجوهها ، البرهان المادي القاطع الواضح الذي لا مجال لتأويله في غير ظاهره .

الأمر الآخر الذي ميز هؤلاء القوم أيضاً عن غيرهم ، هو التنصل من

المسؤولية أو التنصل من الكلام الذي قالوه و أقروا به و اعترفوا .. فمثلاً .. فرعون ضرب لموسى موعداً للمباراة بينه و بين السحرة .. فهو الذي دعا موسى للنزال وهو الذي بعث في طلب السحرة .. هو يعرفهم و هم يعرفونه .. هو سيدهم و هم أتباع له .. لكن و مع ذلك ، عندما انتصر موسى في المباراة أو النزال ، انقلب فرعون على عقبيه و هدد السحرة بالقتل متهماً إياهم أنهم أتباع موسى ، متنصلاً من كل كلامه .. هو أيضاً الذي قال لموسى .. إن كان لديك برهان فأظهِره لنقبل به .. إذن .. هو بإشارة غير مباشرة ، يصرح إنه موافق سلفاً لما يأتي به موسى ، فلما جاءه البرهان ، إذ بالرجل يتنصل من كل شيء .

بسم الله الرحمن الرحيم { قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين (*) قال أولو جئتك بشيء مبين (*) قال فأت به إن كنت من الصادقين (*) فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين (*) و نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين (*) قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم (*) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون } .

و كما ذكرنا قبلاً ، فإن من سمات هؤلاء القوم الذين اختصوا بها من دون غيرهم ، هو الدأب الذي هو الاستمرار و التكرار دمجاً مع الإطالة ، من

دون كلل أو ملل أو رادع يردع .. بالرغم من المعيقات و المعطِلات لهذا الدأب .. إن مادياً أم منطقياً أم معنوياً .. و لا يعطِّل الدأب عند قوم السوء في القرآن الكريم ، إلا البطشة الكبرى من الرحمن رب العالمين ، التي تستأصل و تقطع الدابر و تهلك فما تبقي من أثر يذَر .. كيف لا و قد أعلن السحرة الذين أتى بهم فرعون و رهطه ، جمعاً حشراً لَمّاً ، و هم من عتاة السحرة و علمائهم في السحر و فنونه .. أعلنوا استسلامهم بعد رؤيتهم البرهان الحق من الرحمن الملك المهيمن الحق ، و ألقوا بأنفسهم خُرّاً على الأرض ساجدين معلنين صراحة ، إسلامهم و استسلامهم للرحمن رب العالمين ، رب موسى و هارون ؟؟!! كيف لا و أنه عندما تَهَدَّدهم فرعون و توعدهم بأقسى عذاب و أشنع عقوبة ، ردوا عليه القول إنهم لا يأبهون لكل تهديده و وعيده و إنهم لا يهمهم إلا أن يرضى عنهم الرحمن رب العالمين ؟؟!! ذلك كله جمعاً .. لم يأثّر في فرعون و آله ، و لا في دأبهم في حربهم لموسى و عصيانهم الرحمن رب العالمين .. ذلك كله و الجماهير الحاشدة المحتشدة المحشودة ، كانت حاضرة و شاهدة على خسران فرعون و آله ؟؟!! .

لقد اختلف هؤلاء القوم ، عما سبقهم من أقوام و تمايزوا و تفوقا عليهم في العتو و الإجرام .. أنكروا الآيات المبصرة بينما قبِلها الأقوام الذين سبقوهم فثمود قوم صالح ، مثلاً عندما جاءتهم الآية المبصرة و التي هي الناقة ، قبلوا بها رغماً عنهم و لم ينكروها و لم يقولوا عنها سحر ، إذ أنهم لا يستطيعون

و لا يمكنهم حتى نكرانها أمام كل حشود جمهور العوام .. لكنهم نهاية المطاف قتلوها لأنهم فضحتهم و لم يتبق لهم من خيار سوى الإيمان بالرحمن رب العالمين .

قوم صالح هؤلاء ، دبروا لقتله سراً ، و ذلك لخوفهم من الفضيحة بينما هؤلاء القوم صرحوا علناً بالقتل ليس لموسى فقط بل للسحرة بل لشعب بأكمله .

الرحمن رب العالمين يعطي كل ذي حق حقه و لا يبخس أحد منه شيئاً .. ذلك أن الرحمن لا يريد أن يكون لعبد من عباده حجة عليه يوم القيامة .. و لذلك فكلما ازداد الانسان عتواً و فسقاً و فساداً و كفراً و شركاً و إجراماً ، تماهى معه الرحمن رب العالمين ، وعظاً و تمهيلاً و براهين و دلائل لعله يتذكر أو يخشى .. لكن ذلك كله ، إلى أجل مسمى ، ثم بعد ذلك يأخذه الرحمن أخذاً وبيلاً و لا يجد ذلك البائس ، له صريخاً و لا تبيعاً .

كيف لا و الرحمن رب العالمين لا يخالف عباده إلى ما ينهاهم عنه .. فالرحمن رب العالمين ، حقٌ ، أمرَ بالحق و وعد و توعد بالحق و أثاب و عاقب و أخذ بالحق .. الرحمن يمهل طويلاً و يعظ كثيراً و يرسل الآيات و

البراهين تخويفاً ، لعل عباده يستكينون و يتذكرون و يتعظون فيرجعون عن غييهم .. و لذلك صبر الرحمن رب العالمين ، صبراً طويلاً على فرعون .. كيف لا و هو الصبور الحليم .. لكنه بعد ذلك أخذه أخذاً وبيلاً ، نكال الأولى و الآخرة .

إن قضية (رسالة لشخص) التي ذكرناها و التي تكررت دائماً في القرآن الكريم ، فيما يختص فرعون و آله .. تبين خطورة هذه الشخصية و شديد أثرها الحالي وقت حياتها .. و مديد أثرها ربما لاحقاً بعد مماتها .. فذلك التركيز الشديد على هذه القضية ، قضية (رسالة لشخص) لا بد أنه بوضح أمرين اثنين لا ثالث لهما ..

الأمر الأول .. خطورة و قوة تأثير هذه الشخصية التي ارتبطت بأوتادها ، علماً أن هذه الشخصية هي الشخصية الوحيدة في القرآن الكريم التي ذُكِرَ لها أوتاداً .. و هذا دليل لا بد أنه مؤشر على امتداد أثر هذه الشخصية إلى مراحل بعيدة في الزمن غير محددة المدة .

الأمر الثاني .. هو رحمة الرحمن رب العالمين ، بعبادة ، الطويلة و المديدة و التي وسعت كل شيء .. هي رحمة شملت حتى فرعون نفسه ، إذ اصطبر

عليه الرحمن رب العالمين ، و هو (فرعون) قد ادعى الألوهية و طغى و تجبر و فعل ما لم يفعله الأوائل ممن سبقوه .. فصبر الرحمن رب العالمين ، عليه حتى نهاية المطاف .. و حتى حين أدركه الغرق ، أنجاه الرحمن رب العالمين و تركه .

و هي أيضاً رحمة شملت العالمين في الأرض جميعاً ، حين طغى فرعون عليهم و استعبدهم .. فأشار القرآن الكريم بهذه الإشارة و أكثر من الآيات الدالة على هذه الشخصية ، لكي يتعظ الناس و يرعوون .

لكن إلام يقودنا هذا الأمر كله ؟؟!! و إلام يعود بنا و يشير ؟؟!! .

إن الأمر يعود بنا إلى تلكم الشجرة الخبيثة المذكورة في بداية هذا الكتاب ، التي حرمها الرحمن رب العالمين ، على آدم و زوجه .. إنه الطمع و الغرور اللذَين قادا آدم و زوجه إلى الأكل من هذه الشجرة ، لتتفجر فيهما كل صفات السوء الموجودة فيها و تنتقل من ثم إلى ذريتهما .

لقد قال فرعون لموسى (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) صحيح أنه كان يجيب بجواب لا ينتمي إلى الرسالة المعروضة عليه ، لكن في

الوجه الآخر كان هناك تعلق بالأرض .. أي أنه الطمع .. هو كان باللاشعور يطمع في الأرض و الملك و الحكم ، و يعتبر أن خضوعه لموسى و إيمانه بالرحمن رب العالمين ، يعني زوال ملكه عن أرض مصر و شعب مصر .. و هو عين الذي قاله قومه و أعوانه لموسى ، عندما جاءهم بالحق من الرحمن رب العالمين ..

بسم الله الرحمن الرحيم { قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا و تكون لكما الكبرياء في الأرض و ما نحن لكما بمؤمنين } .

و الطمع بالأرض و الملك ، صورة أبرزها القرآن الكريم في الإنسان ، و في فرعون نفسه حينما أظهر المبرر الخفي لكلامه مع موسى ، إذ جاء ..

بسم الله الرحمن الرحيم { و نادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر و هذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون (*) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين و لا يكاد يبين (*) فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين (*) فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين } .

هو كان يظن أن استجابته لدعوة موسى إلى الرحمن الإله الحق .. الملك الحق .. هي بوجه من الوجوه سلْبٌ لملكه و حكمه ، مع أن ذلك غير صحيح على الإطلاق ، كما ذكرنا في موضع سابق .. فالغاية الأساس من دعوة موسى ، كانت إخلاء سبيل بني إسرائيل و السماح لهم بالعودة إلى أرضهم الموعودة .. كما أنه كان بإمكانه مزاولة الحكم و المُلك حتى بعد أن يؤمن لموسى أو يرسل معه بني إسرائيل .. لكنه .. لكنه الطمع .. الشهوة .. الغرور .. و كل ما يتبع من صفات السوء .

إذن .. فالرجل كان متشبثاً بالمُلك يريد المُلك يريد الأرض يريد الذهب يريد النساء يريد العبيد يريد .. يريد .. هو الطمع و الشهوة .. هي نفسها تلك الشجرة التي أنتجت و لا تزال تنتج صفات السوء و الاذى و الشر .

لكن ما هو العامل أو العنصر الخفي ربما ، الذي يدفع بالإنسان إلى الطمع و التشبث بالمطموع به ؟؟!! هنالك آية قرآنية كريمة تقول ..

{ و اتبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه و كانوا مجرمين (*) و ما كان ربك ليهلك القرى بظلم و أهلها مصلحون } .

الترف هو ذلك الطمع الخفي المقابل و هو الغرور الخفي المقابل الذي يعمي النفس البشرية التي لا تؤمن بحياة أخرى آخرة ، و هو الذي يقودها إلى الإجرام .. ذلك المستوى النهائي و الأعلى في مراحل الكفر بالرحمن رب العالمين ، و عصيانه .

خلاصة واستخلاص

أيها القارئ النبيه .. أيها الفَهِمُ اللبيب .. لا نريد أن نطيل عليك الإسهاب و نُثقِل عليك وطأة الفكر و أوجاع مضامينه .. فما مضى من إماطة بحث ، و قيل و قال ، حول أقوام السوء في القرآن الكريم لَهَوَ من منظورنا ، كافٍ و مفيد للوصول إلى الحقائق الحالية التي تحيط بك من كل جانب و التي انتشرت انتشار النار في الهشيم .. هشيم هذا العالم كله .

باختصار شديد .. كل ما عليك فعله الآن و قد وصلتَ إلى خاتمة هذا الكتاب .. كتاب أقوام السوء في القرآن الكريم .. هو أن تنظر الآن من حولك و في مجتمعك و بين ظهرانيك ، و تطَّلع على القنوات الإعلامية و على وسائل الأنترنت و وسائطه التي تُظهِر لك العالم أجمع كله في أداة صغيرة يتسع لها أحد كفّا يديك ، و هي الهاتف الخليوي .. ألا ترى أن كل ما قيل في هذا الكتاب عن أقوام السوء في القرآن الكريم ، قد صار الآن كله جمعاً لمّاً ، في قوم سوء واحد بعضه من بعض ؟؟!! .

انظر و لك الحكم .. انظر و حلل بنفسك ما تراه و ما يحصل أمامك ، و من ثم قارنه مع ظهر لك و بان في هذا الكتاب .

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

-(((انتهى)))-

نبذة عن المؤلِّف

نزار يوسف .. كاتب و باحث من سورية ، و له الأعمال و المؤلفات التالية ..

١) – الزمن العربي الرديء (دراسة و بحث) .

٢) – الحكمة بين الإله و السلطان (دراسة و بحث) .

٣) – الوصاية الفكرية (دراسة و بحث) .

٤) – المنطق الثاني (دراسة و بحث) .

٥) – هوية الفكر العربي المعاصر (دراسة و بحث) .

٦) – من وحي الواقع (مقالات) .

٧) – قراءة في القرآن الكريم (تفسير القرآن الكريم) .

٨) – قرآن الأرقام في حروف القرآن (تبيان نظام الجُمّل في القرآن الكريم) .

٩) – القضايا المنطقية و الافتراضية في القرآن الكريم (دراسة و بحث) .

١٠) – الأشخاص و التشخيص في القرآن الكريم (دراسة و بحث) .

١١) – دراسات قرآنية .

١٢)– أمثالي المحكية فسط الشامية (أمثال عامية) .

١٣)– المسيح المهموم (مجموعة قصصية) .

١٤)– تشوشو كاكي (قصص قصيرة) .

صفحة المؤلف على موقع فيسبوك ..

/https://www.facebook.com/nizary3

صفحة العروة الوثقى للمؤلف على موقع فيسبوك ..

https://www.facebook.com/NizarYusuf.Quran